

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01010 3988

61-B 1121

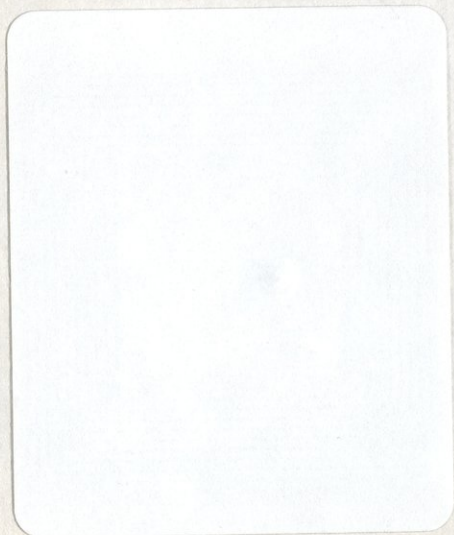
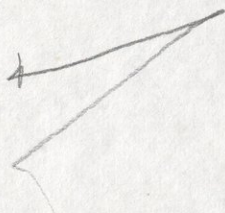
put Feb 15/11

18/15

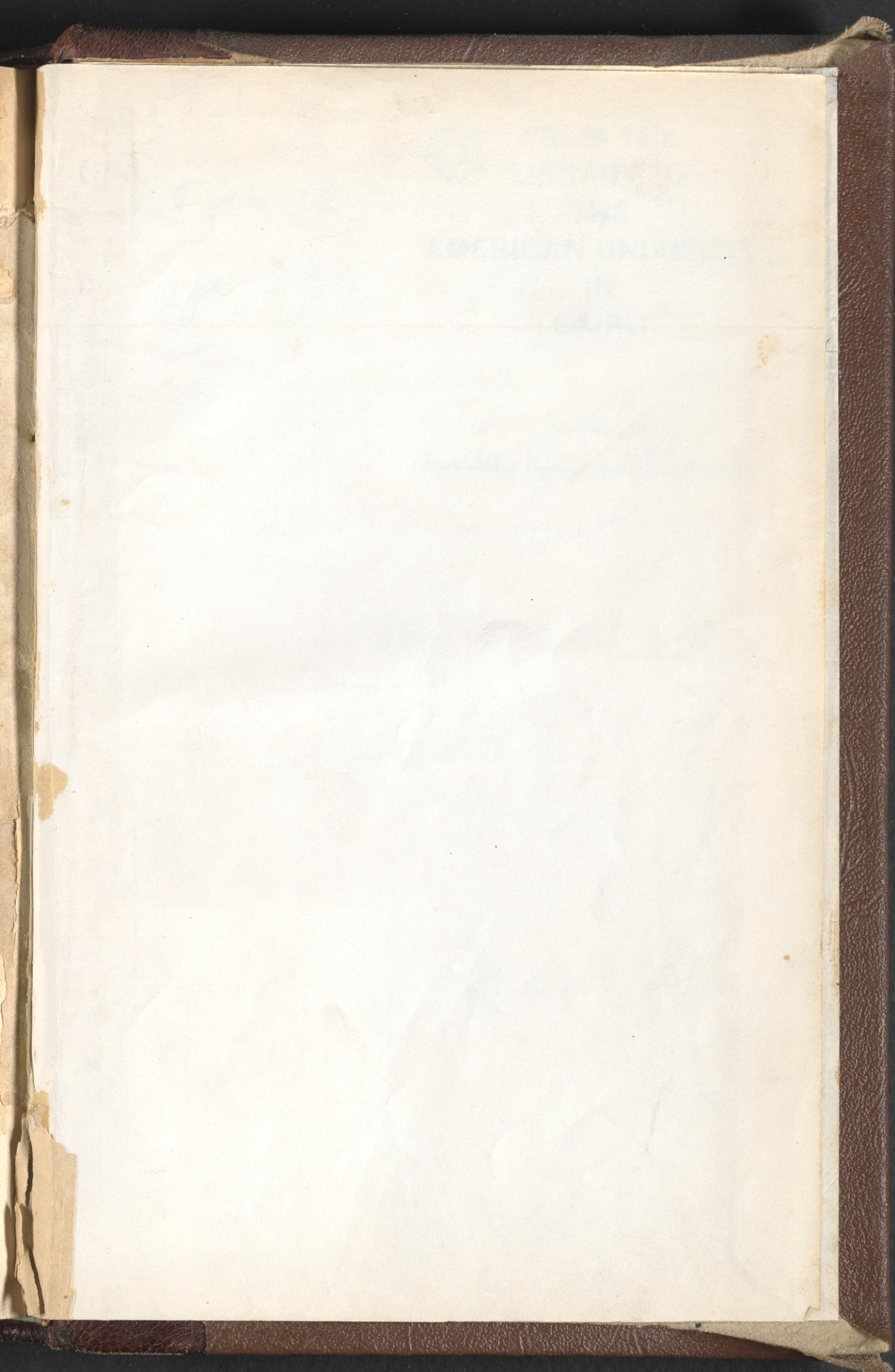


FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة



22/



PJ

7750

A25

259

1944

Bint al-Shāṭi', Pseud

بنت الشاطئ

al-Hayāh al-Insāniyah 'inda Abi al-'Ala'

الحياة الإنسانية

عند أبي العلاء

لِمَ خُلِفْنَا؟ وَكَيْفَ نَحْيَا - وَالْيَأْيَنُ الْمَصِيرُ؟

بحث نوقش في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في ١٨ من يونية ١٩٤١
ونال درجة الماجستير في الآداب ، مع مرتبة الشرف الأولى



ملتمزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف وكتبها بمصر

~~921/9~~
~~ab 94b~~

111, 2.9
قری. 9

23538

١

يظهر هذا البحث في موسم أبي العلاء ، والعالم الأدبي يستعد للاحتفال بذكرى مرور ألف عام على مولده ، وأدباء الشرق العربي يتهيئون للرحلة إلى معرة النعمان ، موطن شاعرنا الصديق .

٢

كتب هذا البحث في عامي ١٩٤٠ ، ١٩٤١ — وقدم إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول لنيل درجة الماجستير في الآداب ، وقد مضت على ذلك ثلاثة أعوام . وإنها لجذيرة بأن تزيد معارفنا عن أبي العلاء ، وتمحص آراءنا فيه ، وبخاصة إذا اتصل الدرس وتتابع البحث .

وأبو العلاء الذي حُبب إليّ ، بما وجد من نفسه ، وأحسن الترجمة عنها في فنه ، قد أغرائني بأن أأخذ منه موضوعات دراساتي الجامعية العليا ، فكان من حسن التوفيق أنني أمضيت هذه الأعوام الثلاثة في تحقيق نص (رسالة الغفران) ، واتخذت من درسها موضوعاً لدرجة الدكتوراه في الآداب ، فكان لي من ذلك فرصة مواتية ، لمداومة دراسة أبي العلاء ، وزيادة المعرفة به .

وبهذه المناسبة ، أنصح لزملائي الجامعيين ، أن يختاروا لدراساتهم العليا موضوعاً تتصل فيه مرحلتها ، اتصالاً يحقق التخصص والعمق ، اللذين هما أجل سمات الدرس الجامعي .

وإذا كان العكوف على درس أبي العلاء طوال هذه المدة ، قد أجدى على مراجعة هذا البحث ، فإن من خير ما أجدى عليه كذلك ، الرجوع إلى التقرير القيم الذى كتبه عنه حضرة شيخى الجليل « الأستاذ أمين الخولى » ، والنظر فى مناقشاته لى أثناء الامتحان . وأشهد أن هذا التقرير ، قد غير من رأيى فى غير مسألةٍ تغييراً جوهرياً ، فما أتردد فى الاعتراف بأنه كان تكملة للتوجيه المنهجى الذى تدين به حياتى الفكرية لشيخى الجليل .

وبهذه المناسبة أيضاً ، أرجو أن يكون من التقاليد الجامعية المقررة ، أن يقدم حضرات الأساتذة المتحنيين ، تقارير مكتوبة عن الرسائل التى يناقشونها ، تُحفظ معها ، ويتيسر لتلاميذهم الانتفاع بها فى تكملة أبحاثهم ، ولا سيما حين يفكرون فى نشرها .

وبعد فإنى من مصر الخالدة ، وفى ريفها الباسم الذى عاشر الحضارات المختلفة على مر الزمان ، أبعث تحية التقدير إلى أبى العلاء ، الذى ارتفع بفنه إلى آفاق لم تشارفها جمهرة النقاد والأدباء قبله ، فعدا أديب العربية الجدير بأن تحتفل به فى أقاليمها المختلفة

بنت الشاطىء

شوشى
يولية ١٩٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

موضوع البحث :

حين فرغت لدراسة أبي العلاء ، سألتني أحد أساتذتي الفضلاء ، عن موضوع البحث الذي أعده لرسالتي ، فأجبت في شيء من التحمس والاعتزاز « أبو العلاء المعري » . قال : ولكن أبا العلاء قد خدم ، وظفر بشيء غير قليل من العناية ، وحسبه ما كتبه عنه أستاذك الدكتور طه حسين بك .

قلت : لعل الأمر كما تقول ولكنه جدير بهذا .

فقال ملحاً : ولكن في تاريخنا الأدبي أشخاصاً غير أبي العلاء لم يخدموا كما خدم ، وهم أيضاً جديرون بالعناية والبحث .

مضيت أفكر : أمن الحق أن أبا العلاء قد خدم ؟ وهل يقضى الواجب العلمى أن نكتفى بما كتب عنه ، لنكتب شيئاً عن سواه ممن لا يزالون مغيبين في ثنايا العصور وأطواء التاريخ ؟ .

أبو العلاء قد خدم حقاً ، ولكنها الخدمة العامة الجامعة التي تأخذ حياته جملة واحدة ، فتلم بها وتحدثك عنها .

وكانت هذه الدراسة الجامعة أمراً طبعياً مفهوماً في فخر حياتنا الجامعية ، حين بدأت كلية الآداب تعلن الحرب على طريقة دراسة الأدب العربي جملة واحدة يقوم بها فرد واحد ، على نظام العصور التي تسير العصور السياسية وتتمشى معها . ولقد نجحت الكلية في توجيه الدراسة الأدبية توجيهاً يجعل للأدب شخصية ذات اتصال بالسياسة ، ولكنها أيضاً ذات اتصال بالمجتمع والبيئة . ثم هي فوق هذا — وقبل هذا — ذات حظ من الاستقلال ، يميز شخصيتها ولا يلغيها بإدماجها في العصور السياسية^(١) .

ونجحت كلية الآداب في توجيه الطلاب نحو التخصص في الدراسة الأدبية . فرأينا دراسات مستقلة تتوفر على موضوع بعينه أو شخص بذاته ، وكان هذا التخصص يشبه أن يكون طفرة في العهد الذي كان تاريخ الأدب العربي يدرس فيه جملة أو عصرافعصر .

على أن هذه الدراسات — التي كانت بالأمر نوعاً من التخصص — أصبحت اليوم ذات صفة عامة تخرج بها عن التخصص — فالكلية تتجه اليوم إلى نوع من التخصص أدق وأضيق — إذا صح هذا التعبير — من الدراسة العامة لشاعر أو أديب . هي اليوم تحاول أن تضيق دائرته ، فتوجه العناية إلى ناحية واحدة من نواحي الشاعر — أو مسألة واحدة من موضوع واسع .

ذلك لأننا اليوم كما يقول حضرة الأستاذ أمين الخولي . « في عصر شعاره التخصص ، بل التخصص الدقيق العميق ، لا في الأصول فحسب بل في الفروع والمسائل . والبيئة الجامعية هي بيئة البحث المتخصص المتماضي ، الذي يعكف السنين الطوال على الموضوع الواحد ، بل المسألة الواحدة ، وبهذا الجهد النافذ إلى أعماق المسائل . . . يقوم بناء

(١) أعددتُ هذا البحث ونوقش في الجامعة ، قبل أن أعتنق الفكرة الجديدة عن « الإقليمية في الأدب » وهي التي دعا إليها أستاذنا أمين الخولي ، وبسطها كتابه « في الأدب المصري » وبهذه الفكرة ، يتم تصحيح المنهج الجامعي في درس الأدب وتاريخه .

الهيكل العلمى الوطيد المؤيد — الذى بمثله تقدر النهضات وتؤرخ العلوم وتبين خطا انتقالها »

« فإذا ما أردنا أن نقوم بحق البحث ، أو نخلص لمنهج الدرس ، أو نؤدى الرسالة الجامعية — فيما يقولون — فلنصن حرمة هذا التخصص مهما تعق دونه عوائق أو تذدنا عنه موانع^(١) . »

وإذن فلا نزال فى حاجة إلى دراسات جديدة ، ولا بأس علينا من البحث فى حياة أبى العلاء — أعنى فى ناحية واحدة من نواحي هذه الحياة الفذة .

وفى الحق — إن هناك فى تراثنا الأدبى رجالاً لم يخدموا ، ومواضيع لم تدرس ، ولكن من الخير لنا أن نمضى فى استكمال بحث موضوع واحد ، ونبذل جهدين لمسألة واحدة ، بدلا من أن نوزع جهودنا ونترك بحثاً غير مستكمل لنخدم بحثاً جديداً .

على أن هذا التثبت بأبى العلاء لم يكن مصدره الحرص على التخصص واستيفاء الدراسة فحسب ، وإنما كان مصدره أيضاً — شيئاً كثيراً من الميل لأبى العلاء والتعلق به ، مذ كنت طالبة فى السنة الثالثة بكلية الآداب .

اتصلت بأبى العلاء بعد أن ترامت بيننا الأبعاد ، وفصلتنا عشرة قرون جدت فيها أحداث على العربية ، وتغير الذوق الفنى لأهلها — أتى أبو العلاء على قمة عصر التكلف ، وأتيت فى عصر الحرية والانطلاق — أتى أبو العلاء على أثر المدرسة التى بدأها مسلم — أو أبو تمام — وانتمى إليها المتنبي ، واستوى على قمتها أبو العلاء ، وأتيت أنا فى المدرسة الحديثة التى تنبوع عن تكلف المولدين لأنواع البديع ، وتبغض

(١) من مقدمة بحث حضرة الأستاذ أمين الحولى فى « البلاغة وعلم النفس » وقد نشر فى مجلة كلية الآداب — المجلد الرابع الجزء الثانى .

أشد البغض أحكام الضرورة في الشعر — بله النثر — وتضييق كل الضيق بالكلمات التي تكره على البقاء في أماكنها لتسوية صنعة الشعر أو النثر .

كان هذا كله خليقاً بأن يصرفني عن أبي العلاء ويشيع في نفسي الجفوة والملل . ولقد أحسست شيئاً من هذا قبل حضور الدرس الأول عن أبي العلاء . كان أستاذنا الدكتور طه حسين بك قد طلب إلينا أن نعد للدرس مقدمة « رسالة الغفران » ، وأذكر أنني أمضيت ساعات طويلاً أعالج فهم المقدمة ، ونفسي تشور بكل ألوان السخط والمقت لأبي العلاء .

ثم حضرت درس الأستاذ وإني لأهم بأن أنفض لديه ما وجدت من ألغاز أبي العلاء ، وما أحسست من سخط على إغرابه وتكلفه . ولكن الأستاذ تحدث فتسيت — في تتبع حديثه — ما كان يطوف بنفسى . ومضيت أتبعه وهو يقدم إلينا « رسالة الغفران » .

وإلى المأتمة يسيرة بحياة أبي العلاء .
وانتهى الدرس — فإذا بي أمضى إلى « رسالة الغفران » أقرأها من جديد ، وأحاول أن أهتدى إلى الآفاق الجديدة لأبي العلاء — بعد الحديث الأول لأستاذنا الدكتور طه حسين بك .

ومضت الأيام — وتتابع الدروس . أمضيت عامين أقرأ فيهما على الأستاذ رسالة الغفران واللزوميات والفصول والغايات — فلا والله ما شعرت بجفوة ولا ملل ، ولا ضقت بهذا الإغراب الذي يكلف به أبو العلاء ، وذلك التكلف الذي قد يسرف فيه .

لقد كان أستاذنا معجباً بأبي العلاء أشد الإعجاب وقد وفق في أن يقدمه إلينا — حتى إذا مضينا في الدرس ، عاد أبو العلاء يفرض نفسه علينا ويقترب من قلوبنا ، فما مضت السنتان إلا وهو عزيز عندي أثير لدى .

ونظرت فيما بين أيدينا من دراسات عن أبي العلاء ، فإذا هي تتناول حياته جملة من غير اهتمام بناحية خاصة تؤثرها بالدرس .

ثم نظرت فيما لدينا من آثاره فإذا فيها آراء شتى مبعثرة ، تحتاج إلى أن تجمع وتخدم لتكشف لنا عن شخصية أبي العلاء .

لقد عرفنا أبا العلاء : متى عاش وكيف امتحن ، وعرفنا شيئاً من أقوال المؤرخين عنه : من أصدر منهم عن هوى ومن كتب عن أمانة وإخلاص . ولكننا لم نعرف بعد ، كيف كان يفكر ، وكيف كان يواجه مشكلات الحياة ، وكيف كان اضطرابه في مسائل الكون .

هنا صرح مني العزم على إثثار أبي العلاء بدراستي ، واتجهت إلى آثاره أجمع شتات أقواله في المسألة الواحدة ، وأرقب اضطرابه وحيرته في تيه الحياة .

بدأت هذه الدراسة منذ سنوات . فكنت حريصة على أن أقوى اتصالي بأبي العلاء وأقرأ ما وصل إلينا عنه . فلما نلت درجة الليسانس فرغت لأبي العلاء فأمضيت وقتاً غير قصير في صحبته ، قرأت سقط الزند ، وملقى السبيل ، ومجموعة رسائله ، والرسائل التي دارت بينه وبين داعي الدعاة ، وأعدت قراءة الفصول والغايات واللزوميات ورسالة الغفران . فرأيت أبا العلاء مهموماً معني بحياة الإنسان بوجه خاص ، يتجه إليها بنفسه وعقله ، ويبذل لها الحظ الأوفر من عواطفه وتأملاته .

لم يفلح الإنسان ؟

وكيف يواجه الحياة . . . ؟ وماذا يلقي فيها ؟

وإلى أين المصير . . . ؟

تلك مسائل عقلية - تعتبر إلى مجال الفلسفة أقرب ، ولكن أبا العلاء يعرضها علينا عرضاً إنسانياً مؤثراً .

وإنك تستطيع أن تجد هذه الأبحاث في كتب الفلسفة : منظمة ، دسمة ، عميقة .
ترضى عقلك ومنطقتك ، ولكنك تجدها في تأملات أبي العلاء ، صدى لإنسانيتك
وغذاء لنفسك وقلبك .

لقد تصدى الفلاسفة والمتكلمون لبحث هذه المشكلات ، ولكنهم كانوا يعالجونها
بعقولهم . أما أبو العلاء فيعالجها بكل قوى إنسانيته . فليس عقله وحده الذى يفكر
ويتحدث ، وإنما يحدثك منه العقل والنفس والقلب جميعاً ، يحدثك منه الإنسان
الذى يفكر ويحس ، ويشتهى ويتألم ، ويعضب ويرضى ، ويثور ويستسلم .

الإنسان بكل ما فيه من قوة وجبروت .

وكل ما فيه من ضعف وقصور .

هذا هو البحث الذى اخترته وتوفرت على دراسته ، منتفعة بالدراسات التى خدم
بها أبو العلاء ، تحت إشراف أستاذنا الكبير الدكتور طه حسين بك ، الذى أعترف له
بالفضل الأول فى توجيه هذا البحث ، وتوسيع آفاقه .

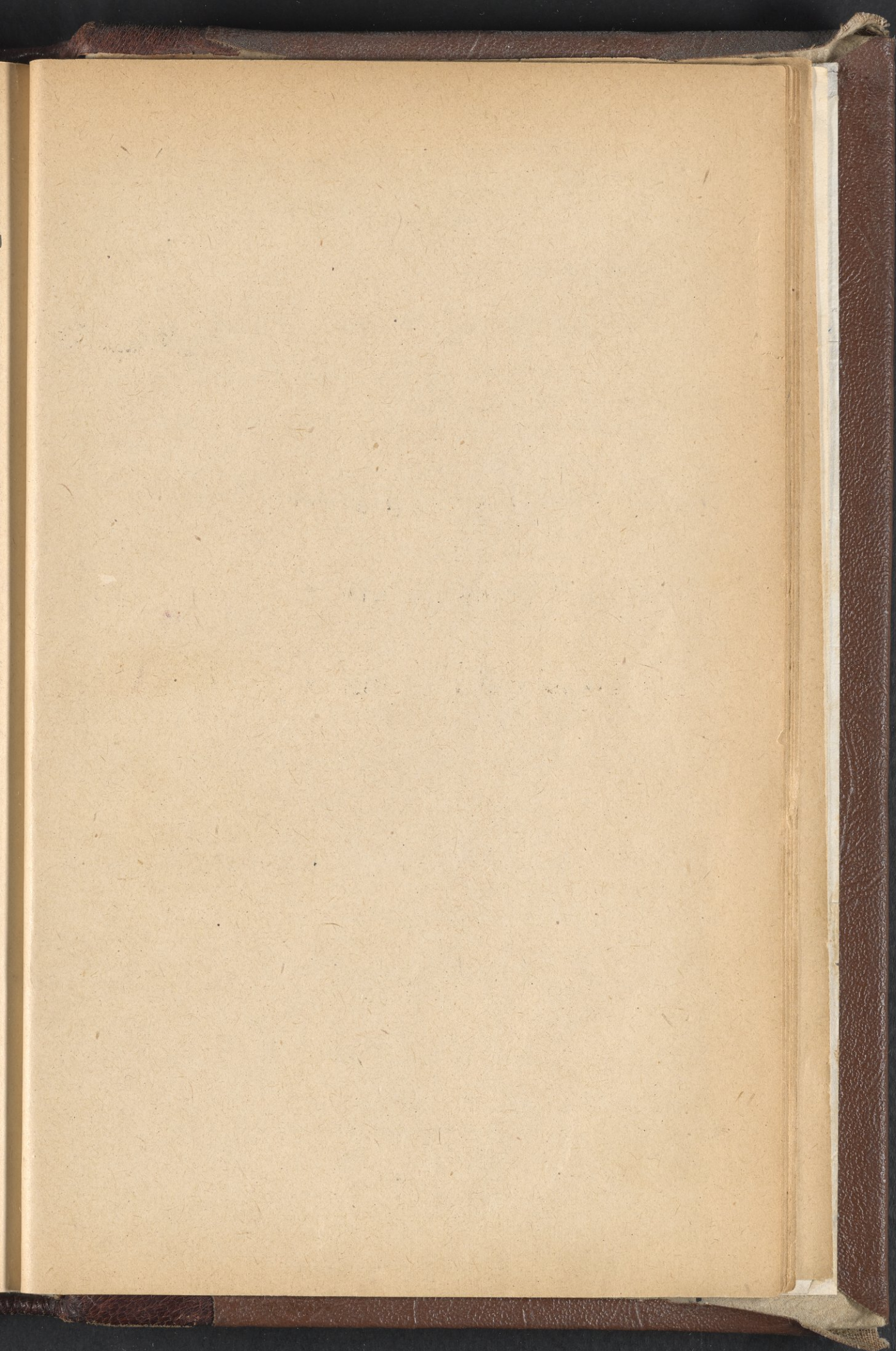
ولست أنسى فضل أستاذى الجليلين : الشيخ مصطفى عبد الرزاق باشا ،
والأستاذ أمين الخولى ، فقد لقيت من توجيههما وإرشادهما ما أعاننى وسدد خطاى .
فإليهم جميعاً ، أوجه أجمل الشكر وأصدق التقدير .

الكتاب الأول

المقالة الأولى : منهج أبي العلاء في التفكير

» الثانية : مكانه بين الشعر والفلسفة

» الثالثة : أبو العلاء أمام هذه الحياة



منهج أبي العلاء في التفكير

- (١) إيمانه بالعقل واعتباره أصلاً للمعرفة .
- (٢) قياس الحس والخبر بالعقل .
- (٣) كفره بالعقل واتهامه إياه .
- (٤) تعليل اضطرابه وتناقضه .
- (٥) اعترافه بإعجاز القدرة .

نحن اليوم نعرض تأملات أبي العلاء في حياة الإنسان . لم خلق ؟ وكيف يعيش ؟
وإلى أين المصير ؟ وهو بحث شائك متعب ، لا بد له من مدخل كما يقول المناطقة ،
فهو يقتضى منا أن نجلو الشخصية العقلية لأبي العلاء قدر استطاعتنا ، فنبحث في
نظريته في المعرفة والأصول المعتمدة لديه ، وطريقته في تناول الأشياء وعرضها .

أصول المعرفة :

ليس من العسير أن تحصى الأصول المعتمدة للمعرفة لدى أبي العلاء ، فهي قليلة جداً
يهون إحصاؤها ، ولكن من العسير أن تجد أصلاً منها قد سلم له فاطمأن إليه ، وبرئ
فيه من التناقض والاضطراب .

قال أبو العلاء في الفصول والغايات :

« يدرك العلم بثلاثة أشياء . بالقياس الثابت ، والعيان المدرك ، والخبر المتواتر - ٤٦٨ »
فلننظر الآن في هذه الأصول ، ولنحاول معرفة رأى أبي العلاء فيها ، ومدى
اطمئنانه إليها .

إيمانه بالعقل :

أما العقل فقد قال أبو العلاء إنه اعتمده أصلاً أول لمعرفة وصرح بإيمانه به ، وألح في الدعوة إلى الائتمام به والاهتداء بهديه .

واللزوميات بوجه خاص هي المجال الذي أعلنت فيه هذه الدعوة في إلحاح وتكرار ، فالعقل هو المرشد الهادي ، وهو المخلص من الخيرة والضلال ، وهو سبيل الحق وطريق المعرفة .

فكروا في الأمور يكشف لكم بعضُ الذي تجهلون بالتفكير لـ ١٨/١
فكرى أنت ربما هدى الإنسان للمشكلات بالتفكير ١٨/١
إذا تفكرت فكراً لا يمازجه فساد عقل صحيح ، هان ما صعبا ١٠٤/١
ولم يتناول درة الحق غائص من الناس إلا بالروية والفكر ٣٧٣/١
ولو صفا العقل ألقى الثقلَ حامله عنه ، ولم تر في الهيجاء معتركا ١٥١/٢
تحير مسترشد فوق لما استدل ٢٥١/٢
تفكر فقد حار هذا الدليل وما يكشف النهج غيرُ الفكر ٤٢٧/١
وحذر من ترك العقل ، وحمل على من لم يهتد بهديه ، ورأى ألا فضل للإنسان على النمل إذا جرد من العقل :

من اهتدى بسوى المعقول أورده من بات يهديه ، مساء طالما تبلا لـ ١٩٣/٢
فاحذر ولا تضع الأمور مضاعة وانظر بقلب مفكر متبصر ٣٩٨/١
تركت مصباح عقل ما اهتديت به والله أعطاك من نور الحجا قبسا ٢٢/٢
إذا الحيوان فض العقل منه فما فضل الأنيس على النمل ؟ ٢٢٧/٢

وأسرف أبو العلاء في تمجيد العقل ، وبلغ من اطمئنانه إليه وتمجيده إياه ، أن جعله أفضل نصير وخير مشير ، وأعلن إمامته ، وجعله نوراً هادياً ، ونبيّاً يأتي بالغيب .

اللب قطب والأمور له رحي _____ فيه تدبر كلها وتدار لزا/٣٣١

الفكر جبل متى يمسك على طرف _____ منه ، يُنط بالثريا ذلك الطرف ٢/٩٨

والعقل كالبحر ما غيضت غواربه _____ شيئاً ، ومنه بنو الأيام تغترف ٢/٩٨

خذوا سبيل العقل تهتدوا بهديه ولا يرجون غير المهيمن راج

ولا تطفئوا نور المليك فإنه _____ ممتع كل من حجب بسراج ١/٢١٤

وإنك إن تستعمل العقل لم يزل _____ مبيتك في ليل بعقلك مشمس ٢/٢٨

إذا قرن الظن المصيب من الفتى _____ بتجربة ، جاء بعلم غيوب ١/١٢٨

لأشرب الراح أشرى طيب نشوتها _____ بالعقل أفضل أنصاري وأعواني ٢/٢٧٢

عليك بالعقل واترك غيره هدرًا _____ فالعقل خير مشير ضمه النادى ١/٢٨٨

سأتبع من يدعو إلى الخير جاهداً _____ وأرحل عنها ما إمامى سوى عقلى ٢/٢١٠

كذب الناس لا إمام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء

فإذا ما أطعته جلب الرحمة _____ عند المسير والإرساء ١/٦٥

أيها الغر قد خصصت بعقل _____ فاسألنه فكل عقل نبى ٢/٢٨٨

وقال في رسالة الغفران :

« وإذا المعقول جعل هادياً نفع بربه صادياً ، ولكن أين من يصبر على أحكام

العقل ؟ ... هيهات ! — ١٥٥ »

وقال في الفصول والغايات :

« العقل نبيء ، والخاطر خبيء ، والنظر ربيء ، ونور الله لهذه الثلاثة

معين — ٢٨٠ » .

وكان من مظاهر اطمئنانه إلى العقل ، أن خاصم السفسطة في إنكار الحقائق فقال :

وقال أناس : ما لأمر حقيقة فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى ؟ ٢٨١/٢

هذا الفتى أوقع من صخرة يبهت من ناظره حيث كان

ويدعى الإخلاص في دينه وهو عن الإلحاد في القول كان

يزعم ، أن العشر ما نصفها خمس ، وأن الجسم لا في مكان ! ٢٩٤/٢

رأيه في الحس والخبر — قياسهما بالعقل :

نترك العقل الآن ونسأل عن الحس والخبر ، هل اعتمدهما أبو العلاء أصليين للمعرفة ؟
أقواله فيهما تختلف ، يطمئن إليهما حيناً ويرفضهما حيناً آخر . وتعليل هذا الاختلاف
واضح ، ذلك لأن أبا العلاء حينما اعتمد العقل أصلاً ، وأسرف في تمجيده والإيمان
به ، جعل ما سواه مقيساً عليه ، إن أقره العقل قبله ، وإن أنكره رفضه .

الحس يكذب أحياناً ، فأعرض الأمر على العقل :

وما تريك مرأى العين صادقة فاجعل لنفسك مرآة من الفكر لـ ٢٨٣/١

والخبر الصادق جدير بالاحترام والتقدير ، ولكن أين من يضمن صدق الخبر ،
وبرأته من زيف المغرضين ، وعبث الناقلين ؟ هيهات إذن فليقس الخبر
بالعقل وليوزن به .

وخبره صادق بالحديث فإن شك في ذلك فليختبر ٤٣٠/١

والحديث المسموع يوزن بالعقل فيضوى إليه عرف ونكر ٣٤٦/١

جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأنًا ، ولكن فيها ضعف إسناد
 فشاور العقل واترك غيره هذرا فالعقل خير مشير ضمه النادى ٢٨٨/١
 فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل ١٧١/١
 وينفر عقلى مغضبا إن تركته سدى ، واتبعت الشافعى ومالكا ١٥٠/١

صحة على الأضبار إذا لم يؤيدها العقل :

وأبو العلاء يحمل حملة منكرة على أقوال الرواة ، ويحمل على ما فيها من زيف
 وتقليد ، ويرفض الخبر فى إصرار إذا لم يؤيده العقل .

إذا رجع الحصيف إلى حجاج تهاون بالمذاهب وازدراها
 فخذ منها بما أداه لب ولا يغمسك جهل فى صراها ٤١٦/٢
 هل صح قول من الحاكي فتقبله أم كل ذاك أباطيل وأسمار ؟
 أما العقول فآلت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق آثار ٣٢٠/١
 يتلون أسفارهم والحق يخبرنى بأن آخرها مين وأولها
 صدقت يا عقل فليبعد أخوسفه صاغ الأحاديث إفكا أو تأولها ١٩٦/١
 قالوا ، فمانوا ، فلما أن حدودهم إلى القياس ، أبانوا العجز واعترفوا ١٠٠/٢
 أسهب الناس فى المقال وما يظفر إلا بركة مسهبوه
 وإذا ما سألت أصحاب دين غيروا بالقياس ما رتبوه
 لا يدينون بالعقول ولكن بأباطيل زخرف كذبوه ٤٠٩/٢
 لقد أتوا بحديث لا يثبت به عقل ، فقلنا عن أى الناس تحكونه ؟
 فأخبروا بأسانيد لهم كذب لم تخل من ذكر شيخ لا يزكونه ؟ ٣٤٦/٢

فخذ الذى قال اللبيب وعش به _____ ودع الغواة كذوبها وجهولها ٢٠٢/٢
تلوا باطلا وجلوا صارما وقالوا صدقنا ، قتلتم نعم
أفيقوا فإن أحاديثهم ضعاف القواعد والمدعم
زخارف ما ثبتت فى العقول _____ لعمى عليكم بهن المغم ٢٢٨/٢
أخبرتني بأحاديث مناقضة فرابنى منك قول غير متفق ١٣٧/٢
ومجمل الرأى فيما عرضنا من أقوال أبى العلاء ، أنه اعتمد العقل أصلاً للمعرفة ،
فأما ما سواه فمقيس عليه به ، إن أقره قبله ، وإن أنكره رفضه .

اضطراب أبى العلاء — اعترافه بقصور العقل ، وانتهامه إياه

والأمر إلى هنا هين يسير ، ولكنه يتجاوز هذا الحد فيتعقد ويصبح عسيراً . ذلك
أن أبا العلاء لا يمتضى فى اطمئنانه إلى العقل ، اطمئنانه بريئاً من الشك والتناقض ،
وإنما يدركه شيء من الشك يفسد عليه اطمئنانه العقلى ، فتراه يتهم العقل ، ويظن
به الصدأ ويعترف بقصوره ، ويسوى بين الجاهل والعالم :

أذهنى طال عهدك بالصقل وماج الناس فى قيل وقال لـ ٢٢٥/٢
هى الأفهام قد صدئت وكلت _____ ولم يظفر لها أحد بصقل ٢٢٩/٢
وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يغنهم طول إعمالها ٢٤٥/٢
فهم الناس كالجهول وما يظفر _____ إلا بالحسرة العلماء ٦١/١
وما العلماء والجهال إلا _____ قريب ، حين تنظر من قريب ١٤٩/١
وبصير الأقسام مثلى أعمى _____ فهموا فى حنـس تتصادم ٢٢٧/٢
وقد غابت نجوم الهدى عنا _____ فماج الناس فى ظلم دمسنه ٣٥٣/٢

خبط القوم في الضلال فهل تكشف الظلم؟
 في بلاد مضملة ليس في أرضها علم ٣٢٧/٢
 وأبعد أبو العلاء في ارتداده واتهامه العقل ، فأبطل القياس واندس ، إليه الشك
 وعز عليه اليقين :

قد نفضت السهام أبغى المقاييس فلم يثبت الرمية نفى ٦٣/٢
 لعمري قد أعى المقاييس أمرنا فخذسنا عند الظهيرة مظلم ٢٢٥/٢
 رموا فأشوا ولم يثبت قياسهم شيئاً سوى أن رمى الموت تسديد ٢٥٦/١
 تروم قياساً للحوادث ضلة وتلك أصول ليس يجمعها حصر ٣٠٨/١
 سألتوني فأعيتني إجابتيكم من ادعى أنه دار فقد كذبا ١٠٣/١
 أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهدى أن أضن وأحدسا ٢٣/٢
 إنما نحن في ضلال وتعليق فإن كنت ذا يقين فهاته ١٩٦/١
 وكيف يبين للأفهام معنى له من ربه قدر معنى ؟ ٣١٠/٢
 وقد عدم التيقن في زمان حصلنا من حجاه على التظني
 فقلنا للهزبر أنت ليث ؟ فشك ، وقال : على أو كائن ٣٧٥/٢

وقال في الفصول والغايات :

« أنت العالم ، (يا رب) وإنما المرء حالم — ٣٣٩ »

لم يستطع أبو العلاء أن يجنح إلى اليقين إلا في شيء واحد ، هو أننا نموت وتبلى أجسادنا .

قال في سقط الزند :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي يراد بنا والعلم لله ذي المن ١٩٥/١

وقال في الزوميات :

وجهلت أمرى غير أنى سالك طرقا وختها عاذا وثمرها ٢٦٢/١

أصبحت فى يومى أسائل عن غدى متحيراً عن حاله متندسا

أما اليقين فلا يقين وإنما أقصى اجتهدى أن أظن وأحدسا ٢٣/٢

أما الحقيقة فهى أنى ذاهب والله يعلم بالذى أنا لاقى ١٣٩/٢

دفناهم فى الأرض دفن تيقن ولا علم بالأرواح غير ظنون

وروم الفتى ما قد طوى الله علمه يعد جنوناً أو شبيهه جنون ٣٦٦/٢

تعليل اضطرابه فى مسألة المعرفة :

هذا رجل آمن حيناً بالعقل وأسرف فى الإيمان به ، فما باله يرتد حيناً آخر فينكر ،

العقل ويكفر به ويتهمه ، ويبطل القياس ويرفضه ؟

هذه مشكلة أثيرت فى الأمس القريب حين وقف أستاذنا الجليل «أمين الخولى»^(١)

يعرض أقوال أبى العلاء فى المعرفة ، وينبه إلى هذا التناقض فيها — وفى كل شىء —

ويوجه الأنظار إلى تردد الرجل وحيرته واضطرابه .

ونحن الآن نحاول أن نلتمس أسباب هذا التردد ، ومصدر ذلك التناقض ،

لعلنا نجو الشخصية العقلية لأبى العلاء قدر ما نستطيع .

لم آمن الرجل بالعقل حيناً وكفر به حيناً آخر ؟

مصدر هذا فيما يبدو لنا ، شعور أبى العلاء بقصور العقل ، العقل الذى مجده حيناً وجعله

نوراً وإماماً ونبياً . تأمل فرأى العقل يضل فى تيه الحياة ، ويعجز عن فهم ما يحفل به

(١) محاضرة الأستاذ الخولى (رأى فى أبى العلاء) ألقى فى الجمعية الجغرافية الملكية فى

الكون من أسرار . ماذا عرف العقل من أمور الخير والشر ، والجبر والاختيار ، وتوزيع الحظوظ والأرزاق ؟ لقد عجز عن إدراك اليقين في مشكلات الحياة ، وإنه لأعجز حين يتجاوز الأمر هذه المظاهر التي نراها بأعيننا ، إلى أمور الغيبيات ، وما يتصل منها بمصير الإنسان .

أمور يلتبس على البرايا كأن العقل منها في عقل لـ ٢٢٦/٢

والعقل زين ولكن فوقه قدر فما له في ابتغاء الرزق تأثير ٢٢٢/١

غنى زيد يكون لفقر عمرو وأحكام الحوادث لا يقسنه ٢٥١/٢

أما الجسوم فالتراب مآلها وعيت بالأرواح أنى تسلك ! ١٤٨/٢

تباركت يا رب العلا أنت صغتها فليتك في أرزائها لم تبارك ١٥٨/٢

والله يقدر أن يفنى بريته من غير سقم، ولكن جنده العلل ١٧٤/٢

قضى الله فينا بالذى هو كائن قتم ، وضاعت حكمة الحكماء ٦٣/١

وقد أعمل الناس أفكارهم فلم يغنهم طول إعمالها ٤٥/٢

وعقول ليست ترد فتىلا لقضاء في عالم الله بالغ ٩٦/٢

شاب علينا أمرنا شائب وقد وددنا أنه لم يشب ١٥٢/١

هذا الشعور بعجز العقل وقصوره ، كان يُلم بأبى العلاء من حين إلى حين ، فيرتد ، وينكر العقل ، ويبطل القياس .

ولعله في تلك اللحظات الكافرة اليأسية ، كان يلوذ بإيمانه بإعجاز القدرة فهو يعترف لله بقدرة « لا يعجزها ممتنع في العقول . الفصول — ٤٧ »

ولم يكن هذا الاعتراف تقليداً ، فأبو العلاء عدو التقليد ، كذلك لم يكن ارتجالاً ، وإنما أنتجه تأمله في الكون ، وحسه الدقيق لمظاهر القدرة المعجزة فيه . وهو يعرض صوراً شتى من هذه المظاهر ويستعمل في ذلك غالباً إحدى صيغتين :

لا يمتنع على الله القدير — لو شاء القادر

قال في اللزوميات :

يجوز بحكمه موتُ الثريا وأن تبقى السماء بلا نجوم ! ٣١٣/٢

يجوز أن تطفأ النار التي وقدت من عهد عاد وأذى نارها الملك ١٤٥/٢

لست أنفى عن قدرة الله أشبا ح ضياء بغير لحم ودم
وبصيرُ الأقوام مثلى أعمى فلهما في حنّس تتصادم ٣٢٧/٢

وقال في الفصول والغايات :

« لو شاء الله لرد اليفن إلى الشباب — ٤١ » .

« لو شاء ربنا ، سخر لنا وحوش البر ، فنقلتنا نقل النعم الذلل وركبنا النعائم بأزمة وأقتاب — ٤٦ » .

« إن شاء الملك قرب النازح وطواه ، حتى يطوف الرجل في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر ، طوفه بالكعبة ، ثم يثوب إلى فراشه ، والليلة ما همت بالإسحار . ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ، وبأخذ الجمرة من تهامة ، فيوقد بها ناره في يبرين وقاصية الرمال ، ويجاز (يغص) بأكيلته في قصور فرغان ، فيعتصر بماء المذنونة (زمزم) أو جراب » ^(١) .

(١) انظر الفصول والغايات صفحات ١٧٧ ، ١٩٨ ، ٢٢٧ ، ٢٦٢ ، ٣٢٨ ، ٣٩٤

والحديث عن القدرة الإلهية أمر غير مستغرب من أبي العلاء ، فهو واعظ يمجّد الله ، ولكنك تحس شيئاً من الغرابة ، حين تراه يمعن في عرض الصور الغريبة ، فيقول مثلاً في الفصول والغايات :

« يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظر بقدمه ، ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بنانه مجارى دمه ، ويمشى إلى الغرض على هامته ، وذلك من القدرة يسير — ٣١٠ »
 « لقد علمت — والله عليم — أن الله لا يمتنع عليه أن يجعل العتيل (الأجير) ، يبصق على قصار النخل فيسحق ، وأن يكون الريق راحاً ، والشفاه بإذنه عقيقاً ، والثغر حبياً أو جماناً — ١٦٠ » .

« من يخبرني عن فور طلين بالكافور ، ومجدل رفع في مخالب الأجلد ، وقصر منيف حمل في خفيف (منديل) ؟ والله على ذلك قدير — ١٥٤ » .

« أزعمت أن السعف لا ينبت إلا في الشعف (رءوس النخل) ؟ إن الله إذا حكم نبت في الجذوع — ٢٩١ » .

« أوعلّ منتعل ؟ أمسد في عنق الأسد ؟ أنجم وقع في هجم ؟ نعم إذا أمر مالك الملوك — ٣٧٧ » .

وأبو العلاء ، لم ينس — وهو يعرض هذه الصورة الغريبة للقدرة المعجزة — أننا نستعبد أن ينظر الإنسان بقدمه ، وأن ينبت السعف في الجذوع . أملى في رسالته إلى أبي نصر صدقة بن يوسف الفلاحى^(١) : « فإن بلغ سيدى الشيخ أن سارى الليل قبض على سهيل ، وأن الأرض أنبتت وشياً أو حريراً ، والسحاب أمطر مداً وعبيراً ، فهو أعلم برده على المبطلين . حسب الأرض أن تغنو بخلة وحمض — وعادة السحاب المرتفع في السماء أن يأتى برى الظماء . »

(١) رسائل أبي العلاء (مرجيلوث) الرسالة الرابعة والعشرون ص ٦١ .

وقال في الفصول والغايات :

« الشئ كما فطر حتى يأذن خالقه بالتغيير ، فإن قيل إن الديمة مطرت مداماً ، وإن الأرض أنبتت أهداماً ، وإن حضناً غار وتهامة أتت حجراً ، فقد كذب القائلون . إنما ينزل من السماء غريض الماء ، وتعتو الأرض بالنبات الغض ، ولا تنتقل تهامة أبداً ، ولا يوجد حضن إلا منجدا — ٣٣٩ » .

يعلم أبو العلاء ذلك حق العلم ، ولكنه يقول بإعجاز القدرة ، ويلقى الأمر بمشيئة الله :
« فرضوى لا يخاف أبداً من ضوى حتى يأذن رب الجبال -- والقرو لا يمتلىء من عصارة المرو إلا أن يجعله الله ذا ماء » .

« لا أصدق أن الدلى أخرجت من الجفر الحلى . ولا أن زارع البر احتصد أكمة تشتمل على الدر ، ولكن الله إذا شاء فعل ذاك » .

وقد يحس وهو يعرض هذه الصور الغريبة ويقول بإمكانها ، أن قوانين العقل قد تأبأها ، ولكن ما هذه القوانين ؟ أليست من صنع عقولنا ؟ كيف نلزم بها سوانا ؟ إنما تلزم العقل وحده ، ولا يجوز طردها في القدرة الإلهية .

« والله القادر على كل بعيد » الفصول ٦٨

« لا يعجزه ممتنع في العقول » » ٤٧

« وهو مكون المعجزات » » ٤٥

« لا يرد عليه عجب » » ١٦٩

« ولا عجب من أمر الله » » ٣٧٥

واسمع أبا العلاء يسخر بالقوانين التي نضعها بأنفسنا ، ثم ننزلها منزل التقديس ونأبى أن تمس أو تتخلف .

« كذبت النجاة أنها تعلم لم رفع الفاعل ونصب المفعول ، إنما القوم مرجون والعلم لعالم الغيوب ، خالق الأدب والأدباء . فصول ٧٨ »

« أنت وارث العلوم ، وإليك ضوئ الأمور ، لو عاش الدؤلى حتى يسمع كلام الفارسي في الحجة ، ما فهم فيما أحسب ، إلا فهم الأمة هدير السنداب . فصول ٧٩ »
ثم اسمعه يفرق بين إمكان العقل وإعجاز القدرة ، فيقول في الفصول والغايات :
« إن سمعت أن الرقيع أمطر جندلا ، وأنت البقيع مندلا ، فقل أما في المعقول فلا ، وأما في القدرة فبلى . العادات بإذن الله متغيرات — ١٠٩ »

فأبو العلاء ، يكفر بالعقل حين يشعر بقصوره وعجزه ، وفي هذه الحالة ، تراه يسلم بما يرفض العقل ويعترف بما يباه . ولكن من الناس من رأوا أن العقل لا يكسب حق الرفض ، إلا إذا أحاط بكل شيء ، وكشف لنا عن الحقائق كلها . وهذا ما لم يصل إليه العقل بعد .

قال الإمام الغزالي في كتابه المنقذ^(١) : « إن هناك أموراً تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حوالها أصلاً ، يكاد العقل يكذبها ويقضى باستحالتها .

« وأكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات مبني على هذا الجنس ، فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألوه قدروا استحالاته » .

وأكد الإمام الغزالي هذا المعنى في المضمون فقال : « ليس كل ما لا يدركه العقل ، محالاً في نفسه . . . » .

وقال أستاذنا الدكتور طه حسين بك يقدم (ألفريد كابو) كاتب المصادفة

إلى قراء العربية ^(١) : « المصادفة عدو القانون العلمى ، وخضم النظرية الفلسفية فالإيمان بها جحود للعلم . . . وهذا كله حق لو أن العلم قد أحاط بكل شىء وكشف عن الحقائق كلها ، لكن العلم بعيد جداً ، أو ما زال إلى الآن بعيداً جداً ، عن أن يحيط بكل شىء ، أو يكشف لنا عن كل شىء فليست هناك مصادفة فيما نعلم من أمور الكون ، ولكننا نجعل أكثر مما نعلم ، وإذن فالمصادفة ليست فى حقيقة الأمر إلا رمزاً لجهلنا وقصور عقلنا عن فهم الأشياء » .

على أن من الناس من لا يرون قصور العقل مدعاة إلى اليأس من غده ، وهم يرون أن من حق أبى العلاء ، ومن حق سواه ، أن يعلنوا عجز العقل فى ماضيه عن حل مشكلات الكون والحياة ، وقصوره عن اقتحام مجال الغيبات « وليس لأحد أن ينكر عليهم هذا الحق ، أو يعارضهم فيه إلا حين يتحدثون عن الغد ، ويحملون آثار هذا العجز فى نظرتهم إلى المستقبل . فعجز العقل فى ماضيه لا يقتضى أن يعير بذلك ، وتثبط همته ، ويحرم الأمل فى غده

« لقد جاهد العقل الإنسانى فى محاولة انتزاع الحقائق من بين الظلمات . ومن الحق أنه لم يصل إلى كثير ، ولكن جهوده الرائعة فى ماضيه الطويل ، تجعل هناك أملاً فى أن يبلغ غايته من كشف الحياة الإنسانية وتمزيق أستارها . وليس ما يدعو إلى اليأس ، ما دام العقل لم يعلن هزيمته ، ولم يكف عن الغزو لحظة » ^(٢) .

لو اطمأن أبو العلاء إلى هذا لسلم له إيمانه بالعقل ، ولكنه لم يفعل ، فاضطرب وحر ، ورأيناه يشعر بالمرارة لقصور العقل ويتحدث عن الغد حديث اليأس :

(١) قصص تمثيلية فرنسية ، للدكتور طه حسين بك طبعة الهلال - ألفريد كابو

(٢) من محاضرة للأستاذ أمين الخولى . على طلاب الماجستير بكلية الآداب سنة ١٩٤١ .

وروم الفتى ما قد طوى الله علمه يعد جنوناً أو شبيه جنون ٣٦٦/٢
وكيف يبين للأفهام معنى له من ربه قدر معى ٣١٠/٢
ورأيناه يضيق بالعقل ويتألم ألماً مرّاً لاذعاً ، فيهتف في تعب وحيرة :

فَهِمُ الناس كالجَهِول وما يظنفر إلا بالحسرة الفهماء ٦١/١
وزادك بعداً من بنيك وزادهم عليك حقوداً ، أنهم نجباء
يرون أبا ألقاهم في مؤرب من العقد ضلت حله الأرباء ٤٥٨/١
صاح ، إن جال في الحوادث فكرى صاح يا للأسى ينفر غمضى ٦٣/٢
طالت على ساهر دجنته والصبح ناء ، فمن لنا بغلس ! ٤٦/٢
طوفت في الآفاق عصراً فما أسفرت من حندسك المظلم
سألت أقواماً فلم تلف من يهديك من رشد إلى معلم ٣١٦/٢
أنا أعمى فكيف أهدي إلى المنهج والناس كلهم عميان ٣٣٢/٢
وبصير الأقوام مثلى أعمى فهموا في حندس تتصادم ٣٢٧/٢
وقد غابت نجوم الهدى عنا فهاج الناس في ظلم دمسنه ٣٥٣/٢
آليت ما أدرى ولا عالمى من كوكبي في الحندس الداجى ٢٢١/١
وأصبحت في تيه الحياة منادياً بأرفع صوتى ، أين أطلب صوتى ؟ ١٨٠/١

وقال في الفصول والغايات :

« وداء المسرة العقل ، ودواء الحزن الجهل — ٣٢٢ »

والخبر — أن أبا العلاء كان يؤمن بالعقل ويعتمده أصلاً للمعرفة ، ويسرف في تمجيده والإيمان به ، حتى يجعله إماماً ونبياً ، فإذا طلب إلى هذا النبي الهادى أن يفسر له ما يعرض له من مشكلات الحياة وأحاجى الكون ، وأسرار الغيبيات ، قصر العقل عن إدراك ذلك وإبداء الرأى فيه . هنالك يرتد أبو العلاء ويكفر بالعقل ، ويلوذ باعترافه بقدره إلهية قاهرة لا يعجزها ما يمتنع في العقول .

على أن الرجل لم يخلص من سلطان عقله ، كما لم يسلم له إيمانه به إيماناً خالصاً يريحه ، وبقى حائراً متردداً : يؤمن في لحظة ، ويكفر في لحظة أخرى ، من غير أن يسكن إلى إحدى راحتين .

هذا — فيما نرى — مصدر تناقض أقوال أبي العلاء في المعرفة . وهو قد يفسر لنا اضطراب أقواله وحيرته ، حين واجه مشكلات الحياة .

مكان أبي العلاء بين الشعر والفلسفة

- (١) إنكار فلسفته : لاضطرابه في مسألة المعرفة ،
وطريقته في عرض تأملاته .
(٢) إنكار شاعريته : لخروجه عن المألوف ،
وازدحام شعره بالمعاني .
(٣) مكانه بين الشعر والفلسفة .

الظروف في أبي العلاء :

لعل العربية لم تعرف في تاريخها الأدبي رجالاً اختلف فيه الناس كما اختلفوا في
أبي العلاء . فكانه بين الفلسفة والشعر حائز مبهم . اطمأن الناس حيناً من الدهر
إلى أنه فيلسوف ، ثم ظهر رأي^(١) حديث يرفض التسليم بهذا الذي اطمأن إليه الناس .
وعرفه الناس شاعراً أكثر ، فإل إنه نظم من الشعر مائة ألف بيت قبل أن يموت
بعشر سنوات « ولا ريب أنه قد نظم بعد ذلك الشيء الكثير »^(٢)

ولكن من شيوخ صناعة الشعر ونقاده من رفضوا التسليم بشاعريته ، وإنما هو
ناظم لا شاعر .

ونرى أن جلاء هذا الموقف المبهم الغامض أمر لا بد منه ، قبل التصدي
لبحث تأملاته . فقد طال عمر هذا الخلاف وأن لنا أن نعرف مكان الرجل بين
الشعر والفلسفة .

(١) هو رأي أستاذنا الكبير « أمين الخولي » — انظر الصفحة التالية .

(٢) ذكرى أبي العلاء (تجديد) ص ١٩١ .

هل هو فيلسوف ؟

أجاب البعض بالنفي ^(١) — ورفضوا التسليم بما اطمأن إليه الناس من اعتباره فيلسوفاً .

• أقوال من أنكروا فلسفته :

١ — وأظهر حجة لديهم ، أن الرجل كما رأيت في مسألة المعرفة ، لم يخضع في فهمه للحياة لأصل ثابت من أصول المعرفة ، فهو لا يثبت على إيمانه بالعقل ، ولا يطمئن إلى عجز العقل وقصوره . وإنما يقف متردداً بحيث لا تستطيع أن تضمه إلى أى فريق من المفكرين . فليس هو عقلياً لأنه لم يثبت على إيمانه بالعقل . وليس هو سوفسطائياً لأنه لم يطمئن إلى عجز العقل — وليس هو شكاً كما لا أدري ، لأنه تيقن حيناً ما واثم بالعقل .

٢ — وهو مع هذا متناقض ، لا يثبت على رأى في المسألة الواحدة ، بل تراه ينفى ثم يثبت ثم ينفي ثم يثبت ، ويقول بالشئ حيناً ثم يقول بضده حيناً آخر .

٣ — وهناك أمر ثالث قد يؤيد من ينكرون فلسفته . وهو لا يتصل بمنهجه في التفكير وإنما يتصل بطريقته في التعبير . فأبو العلاء قد طرق آفاقاً رحبة واسعة وتناول طائفة من المسائل ، هى إلى مجال الفلسفة أقرب ، ولكنه لم يعرض تأملاته على طريقة الفلاسفة والمتكلمين . فلم يكن يعنيه كثيراً أن يسوق أدلته وبراهينه — أو يرتب آراءه ترتيباً منطقيّاً فيه مقدمات وقضايا ونتائج ، ولم تكن الفكرة وحدها هى الغاية ، عنده ، كذلك لم تكن اللغة مجرد وسيلة توصل إلى الغاية ، وإنما كان شديد العناية بألفاظه ، وهو يسرف في ذلك ويبدل فيه جهداً يبدو مضنياً ، لولا ما نعرف من مرانة أبي العلاء عليه

(١) هذا الرأى أعلنه حضرة الأستاذ أمين الحولى في محاضرته « رأى في أبي العلاء » التى ألقاها في الجمعية الجغرافية الملكية في ابريل سنة ١٩٤٠

والتأنق في اللفظ على حساب المعنى — ليس من شأن الفلاسفة . نرى الفيلسوف يدقق في اختيار الألفاظ — لينتقى أقدرها على أداء المعنى الذي يريد — وأقربها إلى الدلالة على ما يعنى . أما أبو العلاء فشأنه غير ذلك ، هو يتأنق في الألفاظ ليختار أجملها إيقاعاً ، أو أقربها اتساقاً مع فنونه اللفظية التي لا تكاد تعد . وهو يضحى بالمعنى أحياناً ليخلص له فنه اللفظي الذي يريد . أو لتم له الملاءمة بين اللفظ المختار وبين بقية الألفاظ في البيت أو المقطع . على حين ترى الفيلسوف يضحى بأجل الألفاظ ليسلم له المعنى ويتم له أداء الفكرة صحيحة البناء .

والفيلسوف في تأملاته : يخطو في بطاء ، وهو يقص عليك خطوات انتقاله في دقة وتفصيل ، ويريك مراحل الطريق التي سار فيها ، ويعطيك الوسائل التي اهتدى بها إلى ما انتهى إليه من رأى . وليس هذا شأن أبي العلاء في عرض تأملاته : فهو فنان ، يقفز القفزة الفنية التي تنتهى بك إلى الآفاق العليا ، وإن كنت لا تعرف خطوات الانتقال ومراحل الطريق . وهو قد يلتقي مع الفيلسوف في النهاية ولكنه يأخذك إليها واثباً مسرعاً ، ولا حجة له أمامك إلا هذا الذي يجده في نفسه .

فهل هو شاعر ؟

لا أيضاً !

بهذا أجاب شيوخ صناعة الشعر في الأدب العربي — قالوا فيما نقل عنهم ابن خلدون^(١) : « إن نظم المعرى ليس من الشعر في شيء » . واعتبروا شعره^(٢) « كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر » .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٧٥

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٣

أقوال من أنكروا شاعريته :

١ — السبب الأول أنه خرج عن المألوف ، فتصدى بالشعر لمعالجة أمور عقلية ومسائل فلسفية لم يألوها في الشعراء من قبل ، وكانوا لا يسيغون تصدى الشعر لمعالجة هذه المسائل التي هي إلى مجال النثر أقرب . وأسرفوا في ذلك حتى استهجن بعضهم أن يتعرض الشعر للأمور الجدية . وقد حمل ابن خلدون على المنشور المقفى وأبى أن يخاطب به ذوى السلطان لما أدخل فيه من أساليب الشعر . قال : ^(١) « وهذا الفن المنشور المقفى أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر ، فوجب أن تنزه المحادثات السلطانية عنه ، إذ أساليب الشعر تنافيها اللوزعية . » إلى أن قال : « والحمد لله في المحادثات السلطانية الترسل ، وهو إطلاق الكلام ، وأما إجراء المحادثات السلطانية على هذا النحو الذى هو على أساليب الشعر فمذموم . »

هذا يريك أن من الأقدمين من ضاقوا بتصدى الشعر للأمور الجدية والمسائل العقلية ، وطال عمر هذا الانكار ، يتناقله النقاد ، طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل .

بل لا يأخذك العجب إذا قلت إن من كبار النقاد من لم يقف عند القول بأن التصدى للمسائل العقلية والأمور الجدية ليس من شأن الشعر ، بل رأى ^(٢) — فوق ذلك — أن اشتغال الإنسان بالعلوم والمسائل العقلية والفقهية يعطل ملكة الشعر فيه .

وقد قست حملة النقاد على أبى العلاء وأسقطوا اسمه من ديوان الشعراء ، لأنه أسرف في هذا الأسلوب الجديد وظهرت فيه شخصية لعل العربية لم تعرفها من قبل ، أو لم تظهر فيها واضحة كاملة .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٩

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٦٧

كان أول عهدا بذلك حين ظهر بعض الشعراء قبيل الإسلام ، يعالجون بالشعر بعض مذاهب خاصة — كطرفة الذي عالج مذهب اللذة يغرق فيها من لا يؤمن بشيء بعد الموت . ولكن الشخصية الجديدة ظهرت في طرفة وأمثلة — خافضة ضئيلة . فلم يطل العرب الوقوف عندها — ومرت بهم لم يكادوا يحسونها أو يكثرثون بها . وجاء المتنبي بعد بضعة قرون يعالج بعض أفكار فلسفية في شعره . فضاق به النقاد ولكنهم على أى حال لم ينكروه ، أولاً ، لأنه كان مقلا في هذه الناحية إذ شغل بالمدح والهجاء عن نفسه وعن الكون والحياة ، إلا في فترات قليلة كان يخلو فيها إلى التأمل ، حين يصدمه موت صديق عزيز ، أو حين ينفذ يديه من أمير يمدحه أو عدو يهجوّه . وثانياً لأن المتنبي كان لا يزال يجرى على الأساليب التي ألفوها ، وينظم شعره في المدح والهجاء والرثاء والوصف والغناء . فلم يبتدع جديداً في أغراض الشعر ، وكل ما في الأمر أنه كان يخرج أحياناً قليلة عما ألفوا ، فينظم بعض الأبيات في المعاني الفلسفية والمسائل العليا .

جاء أبو العلاء على أثر المتنبي ، فظهرت فيه الشخصية الجديدة واضحة ناضجة . فآل في النقاد أنفسهم أمام بدعة جديدة في الشعر . هذا رجل يتحدث بلسان الشعراء ، ولكنه لا يجاريهم فيما يتوخونه من أغراض . هذا رجل يتزيا بزى الشعراء ولكنه يخرج بالشعر عما ألفوه . ولما حاولوا أن يطردوا في شعره الضوابط التي حددها لهم شيوخهم ، عجزوا . وكانت نتيجة هذا العجز أن أنكروا ذلك البدع الجديد . كان من هذه الضوابط أن يكون الشعر جارياً على أساليب العرب المخصوصة به « لأن^(١) الشعر له أساليب تخصه ، لا تكون للمنشور فما كان من الكلام منظوماً وليس على تلك الأساليب فلا يكون شعراً » .

وقد كان

أنكر شعر أبي العلاء لأنه خرج على هذه الضوابط المقدسة ، وعالج بشعره المسائل العقلية والأمور الجدلية التي هي من أساليب المنشور .

ذلك الإنكار غير مستغرب من هؤلاء لأنها « شنشنة نعرفها من أخزم » . فقد كان دأب فريق من النقاد العرب ، أن ينكروا كل جديد ، ويرفضوا كل ما يخرج على الأوضاع التي تلقنوها عن شيوخهم ، وخلعوا عليها قداسة فأصبحت مصونة لا يجوز أن تمس .

ورواد الأدب العربي وتاريخه ، يعرفون هذا ، ويشعر أكثرهم بحزن له ، إذ هو معطل للابتكار ملغ لسنة التطور ، عاجز عن مسيرة الحياة ، وإن كان أحد زعماء المدرسة الحديثة في النقد ، يرى أن أحكامنا على هؤلاء المحافظين ، يعوزها شيء من الإنصاف ، لأن الاحتفاظ بالقديم سنة كونية ، تحفظ توازن العالم ، وتسدد خطأ انتقاله ^(١) .



ثار النقد ^(٢) على أبي نواس أن عاش في عصره وبيئته ، ولم يعيش مع الجاهليين في البادية ، ولكنه أصر على أن يفي لشاعريته فيجد نفسه ويعبر عنها ، ويعيش في بيئته ويتحدث بها . وبداله شاذاً منكراً أن يقف في شعره ، على النوى والأحجار بالفلاة ، وهو إلى جوار الأمين في أفخم قصور بغداد . هنالك مال إلى أظهر الأشياء في حياته

(١) هو رأى أستاذنا أمين الخولى ، ذكره أثناء مناقشته لهذا البحث .

(٢) انظر الخصومة بين القدماء والمحدثين ص ٩١ من كتاب « تاريخ النقد الأدبي عند العرب » للأستاذ طه ابراهيم .

الجديدة ، فاستمد منه ديباجة شعره ، وسخر برياء النقاد وكذبهم فصاح بأعلى صوته :
عاج الشقي على رسم يسائله وعجت أسأل عن خماره البلد
يبكى على طلل الماضين من أسد لا درّ درك ! قل لي : من بنو أسد ؟
لا جف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد !

ولكن هذه الديباجة الجديدة الحضرية التى بدت لأبى نواس طبيعية معقولة ،
بدت لكثير من النقاد شاذة منكرة ، فتنكروا لها وأعلنوا الحرب عليها لأنها تخرج
عما ألفوه ، وهم حريصون على تقديس هذا المألوف ، مصرون على أن يتكئ عليه
الشعراء جيلاً بعد جيل ، غير ملتفتين إلى ما يحسون فى أنفسهم وفى بيئاتهم .

كان أبو تمام فى منزل الحسين بن الضحاك وهو ينشد شعره ، وعنده إسحاق
الموصلى فقال له إسحاق : « يا فتى ، ما أشد ما تتكئ على نفسك ! » .

فهل كان غريباً أن ينكروا أبا العلاء ، وهو يورطهم ويتكئ على نفسه وبيئته العلمية ،
فيخرج على الأساليب المألوفة التى حددوها لما يعالج بالشعر من مسائل وأغراض ،
وينظم القصائد التى لا تتصل بمدح ولا ذم ولا وصف ولا غناء ؟

٢ — والسبب الثانى فى إنكار أبى العلاء أنه — لكثرة ما كان يعالج من
مسائل عقلية — قد ازدحم شعره بالمعاني . ويظهر أن الذوق العربى لا يهضم كثرة
المعاني فى الشعر ، وقد ضاق النقاد بآبن خفاجة لكثرة معانيه ، وعابوا شعر أبى تمام لهذا
السبب أيضاً . قال ابن خلدون : « كان ^(١) شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر أبى تمام
لكثرة معانيه وازدحامها فى البيت الواحد » .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٧٥

فهل كان عجبا أن يثوروا على أبي العلاء وقد بذ تلاميذ مدرسة المعاني في هذا الميدان ؟ .

هكذا أضاع الأقدمون أبا العلاء الشاعر وكان رأيهم فيه أنه ناظم لا شاعر .

رأى المحمدين : رأى

ولكن ما رأيطن نحن المحدثين ؟ أهو شاعر عندنا أم لا ؟

يجب أن تتفق أولاً على حد الشعر لكي نجيب عن السؤال :

أصل الشعر في اللغة : العلم والفطنة والإدراك . استعملت المادة أولاً لما لا بس الإنسان والتصق به من شعرو شعار . ثم أطلقت على الشعور بمعنى الحس والمشاعر أى الحواس التى بها يدرك الإنسان ويحس .

فهذا المعنى الملحوظ فى المادة ، من الالتصاق بالإنسان وملا بسته والحس والشعور ، هذا المعنى قد أغفل^(١) تماماً فى التحديد العربى القديم للشعر . جعله اللغويون والعروضيون الكلام الموزون المقفى ، وهو تعريف واسع يغفل الشعور ، ويدخل المتون وما إليها من المنظومات التى اصطنعها المعلمون ، ليهونوا على تلاميذهم حفظ القواعد ، واللغة والمنطق الخ . . . أو يدسوا إليهم ما يريدون من حكم ومواعظ .

وجاء « قدامة بن جعفر » فى صدر القرن الرابع ، فأحس أن ذلك التعريف غير مانع ، إلا أنه لما حاول تحديد الشعر قال : « إنه قول موزون مقفى ، يدل على معنى »

(١) يرى شيخى الجليل ، الأستاذ أمين الحولى « أن تعريفات الأقدمين للشعر — وإن خانها الحظ فى هذا الموضع الفنى — فانهم قد لاحظوا معنى الشعور والحس — أو قريباً منه — أثناء درسمهم للشعر ، فقالوا فى كتب المناطق « هو ما تألف من الخيلات التى تخيل للنفس ما تتأثر به قبضاً أو بسطاً فتفر منه أو ترغب الخ » والأدباء والنقاد الأقدمون ، كانوا ولا شك يقدررون تأثر النفس بالشعر وتأثيره فيها ، وإن خانهم الحظ فى التعريفات .

وهذا التعريف لا يختلف عن سابقه ، لأن الدلالة على معنى أمر مفروغ منه ، ولم يقصد أحد ممن سبق قدامة أن يكون الشعر لغواً لا معنى له .

وجاء بعده « ابن رشيق » في القرن الخامس فأضاف إلى حد الشعر شيئاً رابعاً قال : « بنية الشعر من أربعة أشياء : اللفظ والوزن والمعنى والقافية » وهو لا يختلف عن قول قدامة .

وجاء ابن خلدون في القرن الثامن ، فلاحظ أن الكلام الموزون المقفى ليس بحد للشعر ، وأورد تعريفاً للشعر جمع فيه ضوابط شيوخه فقال : « هو الكلام ^(١) البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل منها في غرضه ومقصده ، الجارى على أساليب العرب » .

وهذا التعريف يهمل الشعور وهو المعنى الأصيل في الشعر كما رأينا في المادة ، وهو بعد هذا تعريف ضيق كثير القيود ، يخرج شعر أبي العلاء وأمثاله ، ويخرج القصائد الطوال التي لا يستقل كل بيت فيها عما قبله وما بعده .

ولا يكتفى ابن خلدون بهذه القيود ، بل ينقل إليك عن شيوخه في هذه الصناعات الأدبية ، أنهم كانوا يضيّقون بازدحام المعاني في الشعر ويكرهون تصدى الشعر للمسائل العقلية والأمور الجدية .

هذه هي القيود والحدود التي وضعها الشيوخ القدماء للشعر العربي ، ومن ثم أنكروا أبا العلاء وجحدوا شاعريته .

ولكن قيودهم لا يجوز أنه تنزما ، فلسنا مقيدين بهذا المألوف عندهم لأنه معطل للابتكار ملغ لسنة التطور . والوقوف عنده ووقوف بالشعر حيث تركه الأقدمون من غير انتفاع بسير الزمان .

أبو العلاء شاعر ، لا يجوز لنا أن نتهم شاعريته إلا حين تشلنا القيود وتضيق آفاق تفكيرنا ، فلا نفهم من الشعر إلا ما يوافق الحدود والضوابط التي وضعوها منذ أكثر من عشرة قرون .

الشعر عندهما :

فأما إذا اتسعت آفاقنا فلم نقصر الشعر على اللفظ والمعنى ، ولم نقف به عند الأساليب التي عرفها القدماء ، وفهمنا الشعر كما يجب أن يفهم ، تعبيراً موسيقياً مؤثراً عما تجدد النفس ، وترجمة منعمة عما تنفعل به وتهتاج ، إذا فهمنا الشعر هكذا فأبو العلاء عندنا شاعر لا نتهم شاعريته .

اقرأ داليتيه في رثاء أبي حمزة الفقيه فهو بها عندنا — وعند الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك^(١) — أشعر راث في العربية .

واقراً قصائده الأخرى في الرثاء ، وفي الحنين إلى المعرة وإلى بغداد ، ثم قل أي شيء يكون الشعر إذا لم يكن هذه النفثات اللاذعة الوقع الفاتنة الإيقاع ؟ أي شيء يكون الشعر إذا لم يكن هذه النغمات التي تترجم عن عواطف مشبوبة ، وتلمس مواطن التأثير من النفس الحية ؟

وليس « سقط الزند » وحده هو الديوان الذي تتجلى فيه شاعرية أبي العلاء ، بل إن في اللزوميات — وهي موضع الاتهام — مقاطع من الشعر العالي قل أن تجد مثلها في الأدب العربي ، أصدق دلالة على ما تجد النفس ، وأقوى تأثيراً في العاطفة . ولسنا نسرده عليك بضعة أبيات من هذا الشعر لنأخذ منها الحكم ، فالأحكام النقدية في عصرنا لم تعد تتكىء على مثل تلك النظرة الجزئية التي كان العرب الأولون يحكمون بها فيقولون : — فلان أشعر العرب لأنه قال هذا البيت أو ذاك .

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢١٣ .

لسنا نسرد عليك بعض أبيات من هذا الشعر العالى ، بل يكفي أن نحيلك على الفصل الذى كتبناه عن « أبى العلاء ومصير الإنسان » فسترى فيه أشعاراً من أروع ما وعت العربية من الشعر المترجم عن دقة الحس وحدة العاطفة وصدق الشعور . إن الشعر ليس لفظاً ومعنى فحسب إنما هناك الشعور الذى تجده النفس ، والنفس الذى يسرى فى الأعاريض .

مآخذ النقاد المحمدين على شعر أبى العلاء :

والكثيرون من النقاد المحدثين لا يسيغون عرض المعرى ، ويكرهون « اهتمامه بمشكلة اللفظ أكثر من المعنى » ويضيقون بإسرافه فى القيود اللفظية ، وكان المرجو منه — وقد تحرر عقله وثار على الأساليب المألوفة ، أن يتحرر من القيود الشكلية ، لا أن يسرف فيها . كذلك عابوا عليه « إسرافه فى ^(١) التكلف والغموض ، والإكثار من المعانى والآراء إكثاراً يشبه أن يكون مجرد عرض منظوم لها » .

أبو العلاء يمتاز من حيث الشعور :

هذا بعض ما يأخذه النقاد المحدثون على أبى العلاء — وعذرهم واضح حين يضيقون بعرض المعرى ، ولكن مأخذهم كما ترى لا يتجاوز الناحية الشكلية للشعر . ويبقى بعد ذلك جانب الشعور والعاطفة وهو كما رأينا المعنى الأول الأصيل فى المادة .

وأبو العلاء يأتى فى المكان الأول من حيث وضوح الشعور وصفائوه وقوته ، وهو يمتاز من هذه الناحية ويأتى فى الذروة بين الشعراء .

قال أستاذنا الدكتور طه حسين بك ^(٢) : « شعره يمثل شخصه تمثيلاً صحيحاً

(١) هذا رأى فى أبى العلاء سمعته من حضرة الأستاذ أمين الحولى فى بعض حديث له . ومن باب تكلف أبى العلاء : ابن الأثير فى المثل السائر والإسكندرى فى تاريخ الآداب العباسية .

(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٢٠١

ومصدر ذلك أن غير أبي العلاء من الشعراء قلما يفكرون في أنفسهم أو يعترفون بها — فهم يفنونها فيما يحاولون أن ينظموا الشعر فيه . فإذا مدحوا فنيت قوتهم في المدح ، أما أبو العلاء فقد كان شديد الاعتراف بنفسه ، كثير التفكير فيها لا ينزل عنها ليتقن مدحاً أو يحسن وصفاً » .

أبو العلاء شاعر يجد فيعبر ، شاعر قد دق حسه وأرهفت عواطفه وقويت بصيرته فاستطاع أن يزيح الحجب عن نفسه ، وينفذ إليها فيراها كما هي ، ويحس ما تجيش به من عواطف ، وما يلم بها من أهواء ، وما يطيف بها من رؤى وأحلام .

ولعلنا لا نعرف في العربية شاعراً استطاع أن يجد نفسه ويعرضها بأهوائها وعواطفها وشكوكها وآلامها ، كما فعل أبو العلاء . وهذه الميزة لا تبدو في نظمه فقط ، بل تبدو في نثره أيضاً . أنصت إليه وهو يطيل التأمل في مصير الإنسان فيردد في مرارة وحزن . . . « وصيح بالأرض اقبلي رهنك وبالنزِيل فاغدرى ! وحيز المال ونسى العهد وانتوى عن الإنسان أنيسه ذو الود القديم » .

(الفصول والغايات ص ٣٤٢)

ويهتف بأهل القبور : « سلم الله عليكم أهل ديار لا يشعرون بتبلج الصبح ولا ترحل النهار ! أشتاق إليكم وإلى من أشتاق ؟ لا الأرواح متكلمة ، ولا الأجسام ملتئمة ، ولا المنازل برحاب . »

(الفصول والغايات ص ٥٢)

واسمعه يصيح بالدنيا : « أحب الدنيا وآلتها ليست في ! وقد يئست من بلوغها واليأس مريح ، فإلى م التشوف والضلال ؟ »

(الفصول والغايات — ٣١٦)

ثم ينطوى على جراحه مردداً في ألم واستسلام : « وإن الله خلقني لأمر حاولت سواء فألقيت المبهمة بغير انفراج » .

(الفصول والغايات ٢٣١)

أنصت إلى هذه العبارات وتلمس أثرها في قلبك وعواطفك ، فسترى ، أن لنثره

نقطة شعرية تخطيطها في كثير من القصائد المنظومة الموزونة المقفاة .

لقد أشرف في علمه على أهواء رديئة يحرص الناس على كتمانها ، ولكنه كان شاعراً شديداً للوفاء لشاعريته ، فأنشئ يحدث نفسه ويتحدث عنها ، وكان حديثه إلى نفسه صادقاً بريئاً من الغش والخداع . وكان حديثه عنها صادقاً بريئاً من النفاق والرياء .

نُبات المستوى ليس شرطاً في الشعاعية :

هذا هو الشاعر الذي أثرت الشبه حول شاعريته ، وقد بقيت شبهة أخرى تأخرنا في دفعها لأنها تبدو لنا هينة يسيرة . ذلك أن من الناس من يأخذون على أبي العلاء قصائد في الزوميات كثرت فيها المعاني والآراء ، كثرة تشبه أن تكون عرضاً منظوماً لهذه المعاني والآراء ، وهم يسوقون إليك هذه الأبيات ليدلوا على أن أبا العلاء

فناظم لا شاعر. و يبيوه عليه عدم شاعريته مستور شاعريته باين، مذكوره آيه
ولسنا نجادل في أن من شعر أبي العلاء طائفة من الأبيات يصدق عليها هذا المأخذ،

ولسنا نجادل في أن من شعر أبي العلاء طائفة من الأبيات يصدق عليها هذا المأخذ ،
ولسنا نجادل أيضاً في أن اهتمامه بالصنعة اللفظية وكلفه بإظهار تمكنه من اللغة وقدرته
عليها ، وإسرافه في التكلف والإغراب . لسنا نجادل في أن هذا كله يفسد عليه جملة
من شعره ، يبدو بعضها مسرفاً في التغالي الغامض الملتغز ، ويبدو بعضها الآخر مجرد نظم
لطائفة من الآراء والمعاني . كل هذا حق لا نجادل فيه ، ولكننا نقرر أنه ليس من شرط
الشاعرية ثبات المستوى للشاعر ،^(١) فالأعشى صناجة العرب هو القائل :

وقد غدوت إلى الخانوت يتبعني شأو مشل شول شلشل شول

« وبشار » الشاعر الفحل، هو نفسه صاحب « ربابة ربة البيت التي تصب الخل

(١) يرد أستاذي الكبير أمين الخولي على هذا ، بأن ما التمس من تغير المستوى عند الأعشى وبشار ، وأبي العتاهية ، ليس إلا النادر أو البيت المفرد ، على حين أن ما عند أبي العلاء من الشعر الحالي من العناية الأولى بالصنعة اللفظية ، هو النادر والقليل .

في الزيت » والتي « لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت » . وأبو الغتاهية شاعر
الرشيد المقرب هو نفسه القائل :

هو الله هو الله ولكن يغفر الله

فثبت المستوى يجب أن يستبعد في فهم الشاعر . وإذا استبعدناه فلا ضير علينا
أن يقال : إن لأبي العلاء أبياتاً رديئة ، بل نجيب : أجل ولكن يبقى له بعد ذلك
كثير من الشعر العالي المترجم عن شعور نقي صاف ، وهو في هذا شاعر ممتاز يجد
فيعبر ويؤثر .

٢

الفرق بين أبي العلاء والشعراء

قيمة تأملية :

والمسألة لا تنتهي عند هذا الحد ، فنحن مضطرون إلى أن نواجه اعتراض من
يقولون : إذا كان أبو العلاء شاعراً ، فقيم الوقوف عند آرائه ومعانيه ؟ إن
الشعر مجال الدراسات الفنية وليس مجال الأبحاث العقلية .

هل هي مخاطر شاعر برهيم في كل واد ؟

هؤلاء المعترضون يؤمنون بشاعرية أبي العلاء ، ولكنهم يرون أنه لم يتناول المسائل
العليا مفكراً متأملاً ، ولم يصدر في هذه التأملات عن تفكير ودرس وبحث ، وإنما
هي خطرات طائفة مرتجلة ، والشعراء في كل واد يهيمون .

شاعت هذه الفكرة من قديم ، ومن الذين قالوا بها الصفدي والسلفي ، واعتنقها
نفر من المحدثين نذكر منهم المرحوم أحمد تيمور باشا والميمنى . وكانت متكئاً للدفاع
عن عقيدة أبي العلاء .

قال الميمنى^(١) — : « إن حب الظرف والاستظراف هو الذى حدا به على أن أنشأ كل صنف من الشعر وولج فى كل باب منه . » وقال فى الدفاع عن معتقد أبى العلاء^(٢) « ولكن له والحق يقال كثيراً من الأشعار تجنح إلى التشكيك فقال بعضهم — ومنهم السلفى والصفدى — : وكان لا يستقر به قرار ولا يبقى على قانون بل يجرى مع القافية إذا حصلت كما تجبى لا كما يجب . ا . ه . وهذا رأى صحيح فى بعض شعره . » وقال المرحوم أحمد تيمور باشا^(٣) : « ولقائل أن يقول إن الرجل لم يقصد بياناً لمذهبه أو شرحاً لمعتقده بل جرى فيه مجرى الشعراء فى أفانينهم وهم — كما تعلم — يجوزون الكذب ويقولون ما لا يفعلون — » .

فهؤلاء يرون أن أبا العلاء كسائر الشعراء :

١ — يجوز الكذب ويقول ما لا يعنى .

٢ — يهيم فى كل واد ، ويلج فى كل باب ، ويجرى مع القافية كما تجبى .

لو صح هذان الزعمان لكان موضوع رسالتنا هذه عبثاً لا طائل فيه ولا معنى له . فهى رسالة تجمع أقوال أبى العلاء وتأملاته فى طائفة من المشكلات الإنسانية والمسائل العليا التى شغلت الفلاسفة والمتكلمين . فلو أن أبا العلاء يقول ما لا يفعل ويهيم فى كل واد ، فلا معنى للوقوف عند تأملاته وآرائه فى هذه المسائل العقلية والأبحاث الفلسفية .

أبو العلاء لا يكذب فى شعره ولا يقول ما لا يعنى :

ولكن الزعمين كليهما خاطئان ، فأبو العلاء شاعر ، ولكنه يختلف عن الشعراء فى كونه لا يكذب ولا يقول ما لا يعنى .

(١) أبو العلاء وما إليه ص ٢٩٢

(٢) أبو العلاء وما إليه ص ٢٩٨

(٣) أبو العلاء المعرى ص ١٥٧

والذين يتهمون أبا العلاء بالكذب والارتجال ، يجرون مع الفكرة الشائعة عن الشعراء ، من غير أن يعنوا بتحقيق التهمة من أقوال الرجل نفسه . فهو مأخوذ بتهمة زملائه ولكنه منها برى .

أبو العلاء نفسه يبرأ من كذب الشعراء . كان يضيق بشعر حدثه لما فيه من مبالغة وإسراف . ولما نظم « الزوميات » قدمها إلينا معلنا أنه ^(١) « توخى صدق الكلمة ونزهها عن الكذب » وأنه كان قد قال في كلام له قديم أنه هجر الشعر ، وإنما يقصد بذلك ^(٢) « ما استجيز فيه الكذب واستعين على نظمه بالشبهات » واعتذر أبو العلاء مما عسى أن يقع في ديوانه مما لا يوافق أساليب الشعراء ^(٣) « فقد وجدنا الشعراء توصلوا إلى تحسين المنطق بالكذب » .

وكتب إلى أبي القاسم المغربي في رسالة الإغريض ^(٤) « والشعر الأول وإن كان سبب الأثرة ، وصحيفة المأثرة ، فإنه كذوب القالة ، نوم الإطالة وإن « قفا نبك » على حسنها وقدم سنها لتقر بما يبطل شهادة العدل الرضى » .

شعره ترجمة صادقة عما يجرد :

أبو العلاء يبرأ من الكذب ويضيق به كما رأينا ، والذين اتصلوا به وأطالوا صحبته ، يعرفونه صادقاً فيما يقول . فشعره ترجمة صادقة عما يجرد ، وأقواله صدى صحيح لتأملاته . وقد قال الرجل كل ما أراد أن يقول ، غير متق ولا متهيب ، وإن غيره من الشعراء ليخفون نقائصهم ، ويكتمون أهواءهم ، ويحرصون على التقية في إعلان آرائهم إذا كانت تخالف شعور العامة أو تهاجم مصالح الخاصة .

(١) الزوميات ج ١ ص ٩ (٢) الزوميات ج ١ ص ٤١

(٣) الزوميات ج ١ ص ٤٢

(٤) رسائل أبي العلاء ، الرسالة الثانية ص ١٨

وتأملونه ليست خطرات شاعر يهيم في كل واد :

هذه تهمة الكذب نفيناها عن أبي العلاء وسمعناه يبرأ منها ، وبقيت التهمة الثانية وهي أن تأملاته لا تعدو أن تكون خطرات شاعر يهيم في كل واد ، فهو لا يتناول المسائل العليا مفكراً متأملاً ، وإنما هي خطرات تشبه ما نعرفه من أبيات الحكم التي يزدحم بها شعر أمثال زهير وعدي بن زيد وأبي العتاهية . وقد ردت ^(١) دائرة المعارف الإسلامية على هذا التشبيه فجعلت قياس أبي العلاء إلى مثل أبي العتاهية ظالماً وحيفاً ، إذ كان أبو العتاهية يستقي من الدين ويتقيد به ، وكان أبو العلاء يستقي من الفلسفة ولا يتقيد بالدين . وأضاف الدكتور طه بك إلى ذلك : « إن ^(٢) أبا العتاهية على كثرة ما استعان بالدين في زهده الذي ملأ به ديوانه ، كان فاسقاً مستهتراً بالمجون . بخلاف أبي العلاء الذي استكمل الفلسفة واتهمه الناس بالزندقة ، والإلحاد ، فإنه لم يمل إلى لهُو ولم يذهب مذهب مجنون . »

ولست مجرد نظم لحكم معروفة :

ونحب هنا أن نقرر أن شأن أبي العلاء غير شأن شعراء الحكم ، فهؤلاء لم يزيدوا على أن نظموا طائفة من الحكم الشائعة المعروفة بين الناس . من غير أن يتقيدوا بما يقولون ، فهم في الحث على الزهد مثلاً ، لا يصدرون عن مذهب يعتنقونه ويدعون إليه ، وإنما ينظمون حكماً شائعة في الناس ، على حين كان أبو العلاء يحث على الزهد وهو زاهد منصرف عن ملذات الحياة ، ويدعو إلى الرفق بالحيوان وهو ممتنع عن أكل اللحوم ، فهو يعنى ما يقول ، ويتقيد به ، ويصدر فيه عن إخلاص ، وذلك مظهر لا نراه في عامة الشعراء .

نحن لا نقول فقط إن أبا العلاء إنسان ، لا يجوز أن يهدر حظه الإنساني من التفكير

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة « أبو العلاء » .

(٢) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢٢٧ .

والمنطق ، وإنما نقول إنه إنسان ممتاز ، قد تأمل في الكون والحياة ومصير الإنسان .
وسمع أكثر ما قيل من رواد هذه الآفاق ، وأدارها في ذهنه ، ثم أملى قوله فيما عرض
له ، غير مصدر عن تقليد وارتجال ، وأعلنه صريحاً صادقاً مهما خالف العرف ،
فليس من الحق والإنصاف أن نأخذ تأملاته على أنها خطرات سريعة مرتجلة .

٣

أبو العلاء ليس جديداً على الإنسانية

وإن بدا جديداً على العربية

ولكنك رأيت أبا العلاء ضائعاً بين الشعر والفلسفة ، وهو الشاعر الممتاز الجدير
بالأضيق .

وإنما أضيق لأن الذوق العربي كان حريصاً — ولعله لا يزال — على أن يخلص
الشعر للعواطف . فتصدى أبي العلاء للمسائل العقلية بأسلوب شعري كان يبدو جديداً
على العربية ، وإن لم يكن جديداً على الإنسانية ، فقد أصغت الإنسانية قديماً إلى
قصيدة من أروع الشعر وأجمله ، يهتف بها لوكريس الشاعر الروماني الفيلسوف
في القرن الأول ق . م تلك هي قصيدته « طبيعية الأشياء De Rerum Natura »
التي عالج بها المسائل الكبرى للإنسانية ، وأذاب فيها قلبه وأعصابه ، لفرط تأثره
بأحزان الإنسانية ومتاعبها . قالوا ^(١) : « والصفة المميزة لقصيدة لوكريس التي
جعلتها فريدة في الآداب ، هي أنه عالج المسائل الفلسفية شعراً . »

وفي الأمس القريب في القرن التاسع عشر ، شهدت الإنسانية فيلسوفاً فرنسياً
هو « ألفريد دي فيني Alfred de Vigny » يطيل التأمل في الكون والحياة

(١) دائرة المعارف البريطانية ، مادة « Lucretius »

ومصير الإنسان . وقد أحزنه أن يرى الإنسان مخلوقاً تافهاً فانياً لا تتأثر به الطبيعة ولا تكثر له ، وأحزنه ضعف الإرادة وعجز الإنسان وقصور العقل ، والموت المسلط علينا . فلما بدا له أن يتحدث عن هذه المسائل العقلية الجافة الغامضة ، لم يشأ أن يعالجها بالأسلوب العقلي الجاف المعقد ، وإنما نقل حسه بها من العقل إلى القلب ثم تحدث من قلبه ، حديث شاعر يصدر عن شعوره وعواطفه ، لا حديث مفكر يصدر عن عقله وتفكيره . قال في كلمة له قدمت بها مجموعة قصائده (طبعة سنة ١٨٣٧) : « الميزة ^(١) الوحيدة التي لا يستطيع أحد أن يسلبني إياها ، هي أني كنت أول فرنسي عالج المسائل العقلية ، بهذا الأسلوب الذي ترى فيه الفكرة الفلسفية معروضة في قالب شعري . »

وتسمع ^(٢) اليوم شاعراً فذاً من شعراء فرنسا المعاصرين ، يقرر أن الفكرة الفلسفية لا تعالج بالشعر فحسب ، بل تعالج بأى فن آخر من الفنون الجميلة العليا . وفي العالم الشرقى ، سمعنا الخيام — وهو التلميذ الأول لأبى العلاء — يعالج في شعره أدق المسائل ، ويتناول مهزلة الوجود ومصير الإنسانية تناولاً شعرياً مؤثراً ، ومع ذلك فإن تصديه لمعالجة هذه المسائل العقلية ، لم يحرمه مكانه الممتاز بين حُلول الشعراء .

وقد شهدنا في عصرنا هذا « طاغور » شاعر الهند الأكبر يعالج المسائل الفلسفية بالشعر والقصص . ورأينا « إقبال » يختار طريقة الشعراء في شرح فلسفته . وفي كتابيه « أسرار خردى ، وأسرار بي خردى » قطع من أروع الشعر الفارسي ، تشرح فلسفة الذاتية وأسرارها ، في أسلوب من الشعر الرمزي العالى .

ولعلنا نلمح هذا النوع في صورة واضحة ، عند الشعراء المتصوفة الذين عالجوا

(١) B. Braunshvig - Notre Littérature Book II P. 472 Squ.

(٢) P. Valéry - Variétés II. Léonard et Les Philosophes.

بالشعر بعض المسائل الغامضة والآراء الفلسفية ، كالحلول والحب الإلهي ، والرمزية ، وفلسفة الإشراق .

أنت ترى إذن أن تصدى الشعر للمسائل العقلية والأمور الفلسفية الجافة ، ليس غريباً ولا منكرًا ، وإن^(١) ضاق به الذوق العربي وأنكره طويلاً .

وترى أن أبا العلاء ليس بدعاً في التاريخ الإنساني ، ولكنه « مبتدع^(٢) » هذا المذهب في الأدب العربي . وهو من هذه الناحية جدير بأن يكون موضع فخر العربية واعتزازها ، كما كان تلميذه الخيام موضع فخر الأدب الفارسي ، وكما كان لوكريس موضع فخر الأدب اللاتيني .

إن من الشذوذ المنكر أن نظل قيد ضوابط الأقدمين ، وأن تهيب ما خلعه عليهم من قداسة ، فقد كانت هذه الضوابط مفهومة في الماضي ، ولكن تقيدنا به يشل حركتنا ، وينبئ عن عجزنا عن الانتفاع بتجارب بضعة قرون أضيفت إلى عمر الإنسانية .

فإذا كان أبو العلاء قد أضيع من قبل ، فإننا نرجو ألا يضيع بيننا اليوم ، وألا ننكر عليه مكاناً كريماً بين شعرائنا المفكرين الممتازين ، أصحاب الوجدانات القوية والشخصية اليقظة .

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢٢٥

(٢) يقول أستاذنا أمين الخولي « إن للذوق العربي أن ينكر تصدى الشعر لمعالجة المسائل العقلية بما هي عقلية ، لكن النقاد لم ينكروا أن الفن والفلسفة ، لوان من التأمل الذي يواجه به الإنسان مشكلة الكون وألغاز الوجود ، ولكن فرق ما بين اللونين في تناول هو ما يتحدث فيه المتأدبون ، فليست الموضوعات محرمة على أحدهما محللة للآخر ، ولكن المنهجين مختلفان في الموضوعات نفسها » انظر ما نقله ابن خلدون عن النقاد في كراهة تصدى الشعر للأمور الجدية . وقد نقلناه في ص ٢٤ — ٢٩ .

أبو العلاء أمام الحياة الإنسانية

- ١ — تشاؤم أبي العلاء ورده إلى دواعيه
- ٢ — متاعبه في حياته الخاصة
- ٣ — نضاله مع الدنيا وهزيمته في هذا النضال
- ٤ — سوء الحياة العامة في زمانه ومكانه

١

خرج أبو العلاء يرتاد آفاق الحياة الإنسانية باحثاً متأملاً ، وتصدى لمواجهة مشكلات هذه الحياة على ما فيها من دقة وتعقيد وغموض .

لم خلق الإنسان ؟

وماذا يلقى من متاعب الحياة ؟

وماذا يقترب من الأخطاء ؟

وإلى أين المصير ؟

ومن الطبيعي أن تكون نظرتَه إلى الحياة الإنسانية العامة متأثرة بحياته الخاصة ، ومن ثم نرى أن نلم بهذه الحياة الخاصة ، ونرصد ما فيها من متاعب ، قبل أن نصحبه وهو يجتاز مراحل الحياة الإنسانية ، ويرصد متاعبها وأخطائها .

٨ محنة مبكرة :

— حياة أبي العلاء شاحبة عابسة ، استقبلته الدنيا والشمس تنحدر إلى مغربها ، والكون يتشح بغلالة شاحبة من أضواء غاربة ما لبثت أن ذابت في ظلام ليلة حالكة من ليالى الحاق ! قالوا ^(١) : « كانت ولادته يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ٣٦٣ هـ . »

وعجل القدر بمأساته ، فاعتل ^(٢) علة الجدري التي ذهب فيها بصره سنة ٣٦٧ هـ ، وهكذا شاع الظلام في دنياه وهو بعد طفل يستقبل الحياة ، وأسدل بينه وبين الدنيا ستار حالك السواد ، قبل أن يمضى من عمره أربع سنوات .

استقبلته الأيام عابسة وكشفت له عن أظلم جانب فيها ، وأخذته بالقسوة والعنف ، ولداته يعبثون ويلهون ، فارغى البال من هموم العيش ونكد الأيام .

وفاة أبيه :

ومضت أعوام عشرة ، أخذ الصبي نفسه خلالها بالجلد والاستسلام ، وتكلف الشجاعة والصبر ، لكنه لم يكديثب للمنحة ويعتادها ، حتى دهمته فاجعة أليمة أذهلته وهاجت أحزان ماضيه ، فنكأت الجرح وما كاد يندمل . رحل عنه أبوه إلى غير رجعة ، فولى معه الرفيق الكريم والنصير البار .

هنالك وقف الفتى في تيه الحياة يفتقد العصا التي كان يتوكأ عليها ويهتدى بها في الظلمات ، فألقى يده منها صفرأ ، وإذا به يخبط في التيه ضلأ جريحاً متعباً .

ولكن يدأ كريمة رفيقة امتدت إليه ، فردت إليه بعض الجلد وبعض العزاء ،

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤١ . تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ٤ ص ٢٤٢

بغية الوعاة للسيوطي ص ١٢٦ — شذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص ٢٨٠

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٦٢ — وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١

وانثت إلى كلومه تأسوها في حنان الأنوثة الرفيقة ، وحب الأمومة البارة . فصمد
الفتى لمآساته ، وتجلد مرة ثانية . وانبثقت فيه قوى جديدة تغريه بالنضال .
وأشرقت في دنياه المظلمة بارقة أمل ، فواجه الحياة متجلداً شجاعاً — واندس في دنيا
الناس يفرض نفسه عليها ، ويغتصب مكانه على مائدة الحياة وقد نحى عنه .
روى المؤرخون أنه « كان في أثناء شببته يجالس الظرفاء ، ويتصرف في فنون الهزل
والجد ، ويلعب النرد والشطرنج ، ويقول إنه يحمد الله على العمى ، كما يحمد غيره
على البصر . » وقد غادر قرينته بعد أن لزما خمس عشرة سنة ، لعله أمضاها في
النضال بينه وبين نفسه ، وجمع أمره ، والتزود بما يحتاج إليه من عدة وعزم للنضال
في دنيا الناس .

فروجه إلى بغداد :

خرج إلى بغداد آخر سنة ٣٩٨ هجرية^(١) — وإنها يومئذ لعروس الدنيا ، ومركز
الحضارة الشرقية وملقى الرواد والتجار ومقام الأشراف من العرب والعجم ، ومقصد
الشعراء والرواة والعلماء والفقهاء والطلاب من جميع الأنحاء .

لماذا خرج إلى بغداد ؟

سكت ياقوت فلم يزد على أن سجل الرحلة ، وكذلك فعل ابن خلكان وإن
كان قد جعل الرحلة اثنتين^(٢) ، ونقله عنه ابن العماد في شذرات الذهب^(٣) .
كذلك سكت الخطيب البغدادي فلم يذكر لنا فيم كانت الرحلة إلى بغداد^(٤) .
وردتها دائرة المعارف الإسلامية إلى (أسباب مجهولة) وإن لم تستبعد « أن

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٦٣

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤١

(٣) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٨١

(٤) تاريخ بغداد ج ٤ ص ٢٤٠

يكون في شبابه ، قد شعر بقيود الحياة الريفية ، ونزع إلى ميدان أوسع تقدر فيه مواهبه^(١) . »

وذكر الذهبي^(٢) أنه سافر إليها متظاهماً شاكياً : تعرض صاحب حلب لما في يده من الوقف الضئيل . وهو سبب شك فيه مرجليوث^(٣) ، وسلامون ، والدكتور طه حسين بك^(٤) ، لأسباب أوردها في كتابه « ذكرى أبي العلاء » .

ورد الدكتور طه حسين بك^(٥) ، تلك الرحلة إلى أسباب أخرى ، قال إنه « يعتقد أن حب العلم ، وطلب الشهرة ، وسعة العيش ، وبغض الحياة السياسية بحلب ، هي التي كونت في نفس أبي العلاء ، عزمه الرحلة من بلاد الشام إلى بلاد العراق . »

وقال مرجليوث « لقد يقبل أن يكون ضياع وقف الشاعر سبباً من أسباب رحيله عن المعرة ، ولكنه لا يجعلنا نفرض أنه رحل إلى بغداد لاسترداده . ورسائله وآثاره لا تذكر شيئاً عن هذا الوقف . وغير مستغرب ولا شاذ أن رجلاً ظفر بحظ من الشهرة ، يرغب في أن يجرب حظه في العاصمة »

أبو العلاء ينفي أنه سافر للثروة :

أما أن أبا العلاء كان يبغيض الحياة السياسية في حلب ، فأمر لا نشك فيه ، وأما هذه الثروة التي راح ينشدها في بغداد فأمر غير مستغرب ، لولا أن أبا العلاء نفسه قد

(١) دائره المعارف الإسلامية مادة (أبو العلاء)

(٢) ترجمة الذهبي — رسائل مرجليوث ص ١٢٩

(٣) Margoliouth - Biography of Abu'l Alà P. 20 ed. Oxford

(٤) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ١٢٨

(٥) » » » ص ١٢٨

ألح في إنكار أنه ذهب يستكثر من الغنى وهو يقول : « وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب^(١) » وهذه جملة أملاها مطمئناً رزينا منصرفاً إلى نفسه وخواطره ، أملاها في رسالته إلى أهل المعرة ، وهي رسالة لم تصدر عنه سريعة ، ولا مرتجلة ، وإنما صدرت عن روية وتفكير ، وكان رأيها فيها : « ليس بنتيج الساعة ، ولا ريب الشهر والسنة ، ولكنه سليل الفكر الطويل^(٢) » .

أبو العلاء كما رأيت ينبغي أن يكون قد سافر يستكثر من الغنى ، وهذا يبدو مخالفاً لرأي الدكتور طه حسين بك . ونحن لا نبريء أبا العلاء من الرغبة في سعة العيش ، وإن كنا نصدقه في قوله إنه لم يسافر استكثاراً من النشب ، فليس بعيد أن يكون قد رغب في الثروة ولكن الثروة لم تكن غايته بل كانت وسيلة إلى غاية أخرى كان يرجوها في بغداد . وإلا لبقى في بغداد حين عرض أهلها عليه أموالهم « عرض^(٣) الجدد ، فوجدوه غير جذل بالصفات ولا هاش إلى معروف الأتوام . »

فما هذه الغاية البعيدة التي راح ينسرها في بغداد ؟

حب العلم ، وطلب الشهرة ؟

نعم ، ولكننا نضيف إليهما غاية أخرى نلتصها من حالته النفسية في تلك الفترة الفاصلة بين طوري حياته .

كانت غايته تأييد نضاله مع الدنيا ، وإعلاءه الناس بتفوقه وامتنازه :

يبدو لنا من تفهم حالته النفسية ، وطول صحبته ، أنه خرج إلى بغداد يؤيد نضاله على الدنيا ، وانتصاره عليها ، هذا النضال الذي بدأه في شبابه وتمثل لنا فيه ، تحديه

(١) و (٢) رسائل أبي العلاء (مرجليوث) الرسالة الثامنة ص ٣٤

(٣) المصدر نفسه ص ٣٥

للدنيا وتظاهره بالاستخفاف بمتاعه . وقد سمعت ما رواه المؤرخون عن مجالسته
الظرفاء — وتصرفه في فنون الهزل والجد ، ولعبه النرد والشطرنج ، وحده الله
على العمى .

وظهر هذا النضال واضحاً في شعر الشباب . فقد قال في ذلك العهد ^(١) :

وقد سار ذكرى في البلاد فمن لهم بإخفاء شمس ضوءها متكامل
يهم الليالي بعض ما أنا مضمر ويثقل رضوى دون ما أنا حامل
وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل
ينافس يومى فى أمسى تشرفا وتحسد أسحارى على الأصائل
وطال اعترافى بالزمان وصرفه فلست أبالى من تقول الغوائل
فلو بان عضدى ما تأسف منكبي ولو مات زدى ما بكته الأنامل

(سقط الزند — شرح التنوير — ج ١ ص ١٠٩)

هذا هو حديث النفس التى تناضل عن حقها فى الحياة ، وتعلن عن امتيازها وتفوقها ،
وتتحدى الأيام بعجزها عن النيل منها ، مهما أكرت من مصائبها وأثقلت
من أحمالها .

مثل هذا خرج أبو العلاء إلى بغداد . خرج يؤيد نضاله على الدنيا وانتصاره
عليها . خرج يعلن الناس بمكانه ويفرض نفسه عليهم ، ويدفعهم إلى الاعتراف به
ويعرض طبيعته الممتازة وذكائه النادر ، ليثبت أن الأيام لم تهزمه ، وأن محنته لا تحول
دون تفوقه وامتيازته .

(١) لم يعين أبو العلاء — ولا المؤرخون — تاريخ هذه القصيدة ، كما لم يعينوا تاريخ
غيرها من آثاره ، ولكن الذى اطمأن إليه دارسو أبي العلاء ، هو أن شعر الفخر كان قبل
العزلة . انظر ص ٢٠٦ من تجديد ذكرى أبي العلاء .

واذكر هنا ما رواه ياقوت^(١) ، عن قصة الكلب .. قال : « إنه دخل على الشريف المرتضى وهو ببغداد ، فعثر برجل فقال : من هذا الكلب ؟ فأجاب أبو العلاء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً ! » .

تلك قصة أوردها ياقوت في معرض الحديث عن ذكائه ، ونقلها عنه السيوطي^(٢) ، ونقلها كذلك تيمور باشا فأوردها في فصل^(٣) « في مبلغ علمه وذكائه » .

ولكني أوردها هنا لشيء غير التندر بذكائه والإشادة بعلمه - إنني أقف عندها طويلاً فألمح وراءها معنى بعيداً . هي تكشف لي عن عزم أبي العلاء على النضال ، وتعلن عن تحديه للدنيا والناس ، وإصراره على أن يفرض نفسه عليهم ، إنه يقول : لقد امتحنتني الأيام ولكنها لم تهزمني ! أفسحوا لي مكاني بينكم ، فإن محنتي لا تحول دون تفوقي وامتيازي ! من شاء فليتقدم لمنافرتي ، والكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً .

فسر في النضال في بغداد :

خرج أبو العلاء إذن مناضلاً عن نفسه ، يطلب مكانه الجدير به ، فماذا لقي في بغداد وكيف كان النضال ؟

أما الناس فاعترفوا به وأفسحوا له مكانه بين الخاصة الممتازين^(٤) .

وأما الدنيا فتضدت له ساخرة بما اصطنع من جلد ، وما تكلف من شجاعة .. رأته يتحداها ، فسأقت إليه ما زهده في النضال وكفه عنه . وأنت تذكر كيف

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٦٩

(٢) بغية الوعاة للسيوطي ص ١٢٦

(٣) أبو العلاء المعري لأحمد تيمور باشا ص ٢٣

(٤) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٦٢ - تجديد ذكرى أبي العلاء ص ١٥٢

أخرج^(١) من مجلس الشريف المرتضى ذليلاً مهاناً . وتذكر قصته مع أبي الحسن على بن عيسى الرعي النحوي إذ استأذن^(٢) عليه فقال : « ليصعد الاصطبل » (الأعمى) « ولست في حاجة إلى أن تذكر لك أثر ذلك في نفس شاعرة دقيقة الحس ، قليلة التصبر ، شديدة الكبرياء كنفس أبي العلاء . »

كان هذا كفيلاً بأن يجعل مكانه في بغداد — في دنيا الناس — قلقاً غير مطمئن ، لكنه تجلد ليهيئ نفسه للعودة إلى دنياه ، وساعده على التجلد أن الحياة العلمية في بغداد ، في ذلك الحين ، كانت تهيب له غير قليل من المتاع ، وكانت حفاوة البغداديين به تربطه إليهم ، وتحببهم إليه . وقد أفسحوا له مكانه الجدير به فتأثر بتقديرهم ، ورأى في البقاء بينهم ، لوناً من ألوان الوفاء والاعتراف بالجميل .

رصيد عن بغداد :

وجاءه خبر من معرة النعمان أن أمه مريضة ، فأزعجه عن بغداد ، أو قل عجل بإخراجه منها . فقد يبدو لنا أنه كان على نية الرحيل مرضت أمه أو لم تمرض — ولست أنسى أنه قال يعلل رحيله عن بغداد . . . !

أثارني عنكم أمران : والدته لم ألقها وشرأ عاد مسفوتاً

ذانكم سببان ظاهران للسفر ، وهما ظاهرهما العذر كما يقول الفقهاء ، ولكنه إنما تعلل بهما . ووراءهما سبب بعيد ، هو ما قدمنا من قلق مكانه في بغداد ، ودقة حسه لما لقي فيها .

لو أنه ترك بغداد لمرض أمه حقاً ، لعاد إليها بعد أن ماتت . ولو أنه تركها لفشله

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٧٠ — شذرات الذهب لابن العماد ج ١ ص ١٨٣
بغية الوعاة للسيوطي ص ١٦٩

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٦٩ .

في طلب الثروة ، لردته إليها الأموال التي عرضها البغداديون عليه عرض الجديما يقول .
إنما هي تعلقة الرجل المتعب ، الذي أجمع أمره على الرحيل والعزلة . أجل ، لم يكن
رحيله عن بغداد فجأة حين أزجه مرض أمه ، ولم يكن إجماع أمره على العزلة
« نتيج الساعة ، ولكن سليل الفكر الطويل ^(١) » ثم كان مرض أمه وعجز ثروته
الضئيلة عن مواتاته على العيش في بغداد فعجل بالسفر . كان في نيته أن يرحل ، دون
أن يحدد متى وكيف ، فجاء خبر مرض أمه مؤذناً بموعد الرحيل .

وفاة أمه :

أخذ الطريق إلى أمه وإن نفسه لتنهو إلى ساعة يلقاها ، فيغرق آلامه في حنانها
الكبير ويستمد السلوى والعزاء . وعادته ذكرى ما لقي في بغداد لكنه اعتصم بذكرى
أمه ، وتمثل له ما سوف يليق عندها من نعيم . وإنه لغارق في تأملاته ، معتصم بأحلامه ، إذ
ماتت أمه ، فتداعى للمصائب وتمت المأساة . صح الرجل من غفوة أحلامه على صوت الفاجعة
الجديدة ، فأدرك في يقظة مباغتة أنه ضائع الحيلة أمام مصائب القدر وكوارث الأيام .
هنالك عزم على وضع حد للنضال الذي أرهقه ، ومضى يهيمهم بكلمات نائمة نادرة ، ويلهو
بأحزانه ويتفنن في تصويرها ، وكأنه يستمرىء طعامها : « يا قلب لعل أسودك زنجي
من ولد حام ... ألا تبتئس لأول من فعل معك الجليل ؟ ألا تجزع لتقوض الأقربين ؟
يا شمال ، ألم يحزنك شلل اليمين ؟ أقت وتحمل الناس ، وإن لحاقى بالظاعن لوشيك ،
عند الله أحسب ما رزئت من أهل ولقيت من هم كاد الغريب له يشيب ، وتعب
رسخ ألمه في الأعضاء ^(٢) . »

رحمك الله من ساكنة رمس ، أصبحت حياتك كأمس ^(٣)

(١) رسالته إلى أهل المعرة — رسائل أبي العلاء — الرسالة الثامنة ص ٣٤

(٢) الفصول والغايات ص ١٥

(٣) رسائل أبي العلاء . الرسالة السابعة ص ٢٨

فإن ينقطع منك الرجاء فإنه سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر
لا أمل بعدها خيراً ، ولا أزيد في الحزن إلا إيضاعاً وسيراً . يا سلوة الأيام
موعدك الحشر . موعد والله بعيد وحزنى لفقدائها ، كنعم أهل الجنة -- كلما
نفد جدد ، وشرحه إملال سامع وإفناء زمان .

هكذا انتهت الرحلة وأوى المتعب إلى بيته ، فإذا الظلام يكتنفه اختفت
منه الابتسامة الوحيدة التي أشرقت في أساه ، وتلاشى شعاع النور الذي أضاء في حياته
المظلمة . أب المسافر من سفره وحط رحاله بعد أن أتم التجربة . كانت الحياة كما رأيت
قد أخذته بأنواع من القيود فتار ، ولكن ثورته لم تفكها عنه ، وإنما تحطمت على
صخرة الأحزان . حاول أن يشغل عنها بالناس والدنيا لينساها في زحمة الحياة ، ولكنه
وجد هناك ما أزعجه عنها وملاً نفسه مللاً وتعباً .

وعاد يلتمس العزاء في أحضان أمه ، ولكن أمه قد مضت ومضى معها العزاء .

هنالك زهد في دنيا الناس ، وصدف عما تركت له من تافه الملمات .

« وانطوى على يأس ومجانبة للناس »^(١)

حياة بعد العزلة :

هذه حياة الرجل قبل العزلة ، وهذه هي متاعبه وآلامه ، فهل استراح في عزلته
وهذا إلى اليأس وكف عن النضال ؟ .

ظن^(٢) الكثيرون أن أبا العلاء حين اعتزل ، قد راض نفسه على الرضا بما قدر له

(١) من رسالة إلى بعض العلوية (رسائل أبي العلاء — الرسالة التاسعة ص ٣٥)

(٢) أبو العلاء وما إليه — للميمنى ص ١٧٤ .

والاستسلام لما أريد به ، ولكن الحقيقة أن أبا العلاء لم يذق لذة الصبر وإن تكلف الصبر . ولم يرض بمحتته وإن تظاهر بالرضا والاستسلام . إنما رأى الرجل أنه ضائع الحيلة ، لا يملك لنفسه شيئاً ، فانطوى على نفسه ، يعالج همومه ، ويتكلف الصبر والصبر عنه بعيد .

مربية عن مأساته :

ونحن نتركه الآن يحدث عن مأساته ، فسترى في حديثه مرارة مؤثرة وأنيباً مكتوماً وصراخاً أبج ، وشكاة موجعة بالكية . .

قال في اللزوميات :

ربّ متى أرحل عن هذه الدنيا فإني قد أطلت المقام
لم أدر ما نجمي ولكنه في النحس مذ كان ، جرى واستقام
فلا صديقي يترجى يدي ولا عدوي يتخشى انتقام
والعيش سقم للفتى منصب والموت يأتي بشفاء السقام ٣٢٤/٢

ويبكم إن رأيتموني يوماً حبة في الثرى فلا تلقطوني
بت كالواو بين ياء وكسر لا يلام الرجال إن يسقطوني ٣٨٥/٢

أجامل الناس ولو أني كشفت ما في السر أخزاني ٣٨٣/٢

أراني في قيد الحياة مكلفاً ثقال أمشي تحتها وأطابق ١١٨/٢

من عثرة القوم أن كانوا وليدهم أبا فلان ، ولم ينسل ولا بلغا
كالسيف سمي قطاعاً وما ضربت به الأكف ، ولا في هامة ولغا ٩٥/٢

عرفت صروفه فأزمت منها على سن ابن تجربة مُسن

وأفقرني إلى من ليس مثلي كما افتقر السنان إلى المسن ٢/٢٧٥
 إذا لم يكن خلفي كبير يضيغه حمامي ولا طفل ، فقيم حياتي ؟ ١/١٨٢
 إذا طفئت في الثرى أعين فقد أمنت من عمي أو رمد ١/٣٠٢
 فيا دار الخسار ألى خلاص فأذهب في الجنوب أو الشمال ؟
 وظلم أن أحاول فيك رجاء ولم أخرج إليك برأس مال ٢/٢٢٩
 وهون أرزاء الحوادث أنتى وحيد أعانيها بغير عيال
 فدعني وأهوالا أمارس ضنكها وإياك عنى لا تقف بحيالى ! ٢/٢١٥
 وأصبحت في الدنيا غيبنا مرزءاً فأعفيت نسلى من أذاة ومن غبن
 فإن تحمكى بالجور فى وفى أبى فلن تحمكه فى بناتى ولا فى ابنى ٢/٣٥٩

وقال فى الفصول والغايات :

ما أضيق على دنيائى ! وأنت المفزع إذا بطل كل احتيال . (٥٣)

يا نفس العبر ، لا تبقين على الغير ، أما أصلك فقد ذهب ، وأما الفرع فلا فرع
 لك ، إنما أنت كشباً ، عشى ماء مطحلباً . (٥٣)

إن جناحى لمهبط ، طرت فى الصعيد فوقعت غير بعيد ، والله منهض المنهاضين (٢١٤)
 أصبح وأبيت ، وأنا الضعيف الهيت ، ولو شاء خالقى لجعلنى القوى المزير (١٨٨)
 يا نفس ، كأنى بك وقد بنت ، عن غير ابن لك ولا بنت ، طالما رنت وأرنت ،
 فالآن خبت وخبنت ، أما عملك فشنت ، أردت الزين فما زنت ، فرحمك الله
 إذ حنت كأن الأيام تحذنى ، تأكلنى فتلذنى ، والله العالم بعبدته إذا جالت
 فيه الظنون . (٢١٩)

طلبني الزمن بوتر ، ورماني بالقتل ، وما ترك لي مسيو فتر ، غير ملقى جسد تحت
الصفاح . (٣٥٥)

الله ملك الملوك ، وأنا معترف مقر ، أن شهد الدنيا مقر ، وأن غنيها مفتقر ، أعوزني
فيه مسكن آرز إليه وأستكن ، وتبوات الناسجة بين المثاب . (٤٧)

أنحك فلا ضحكت ! وأنا بالبكاء حقيق مما كان ويكون ، فعلى بالأسف مادعت
الحمامة حماما !

إنما أنا كرجل بُلى بالصدى ، لا يجد ورداً ولا مورداً فهو ظمان أبداً . إن ورد
غروفا وجده مضفوفاً ، وإن صادف نزوعاً ، أعوزته الآلة والمعين . (٣١٦)

أرتفع والقدر يكبني ، يالبنى دائماً ويلبنى . كم أستنسر وأنا من البغاث ! (٢١٦)
كم بت وظللت ، فقد سئمت الحياة ومللت ! كم أبليت من المرض فما بليت . (٢٨٥)
أى صديق لي وأى نسيب ؟ إني في الوطن لغريب ! (٣٦٦)

لا أعتدل أبداً ولا أستقيم ! مغبون في الدنيا غبين . . . (٢٧٠)

أبو العلاء لم يزهر في المجمر :

والذين يظنون أبا العلاء زهد في المجد والشهرة مخطئون ، فقد كان الرجل شديد
الكبرياء والاعتداد بعلمه وذكائه ، حريصاً على أن يعرفهما الناس ، شاكراً من
يعرفهما ، ساخطاً على من ينكرهما .

كتب إلى أبي القاسم المغربي في رسالة الإغريض^(١) . « وجعل الله رتبته
لا تتخفص أبداً . فقد جعلني إن حضرت عُرِف شأني ، وإن غبت لم يجهل مكاني » .
وقد غضب حين تلى عليه كتاب أبي الحسن النكتي البصري ، إذ قصر اسمه

وحرفه فأسماء « محمد أبي العلاء » قال رداً عليه^(١) : « أما السمة فغيرها ، وأما الكنية فقصرها ، فإن الله وإنا إليه راجعون ! هذا أمر الله ! ليس هو من ضعف الشاعر ولا وهن القائل ، ولكنه من سوء الحظ لمن خوطب ، والاتفاق الرديء لمن سمى وذكر

« ولا يقل سيدي الشيخ — أدام الله عزه — قد قصرت الشعراء فإنه لو كان استعمل ضرورة غير تلك لقبلت حجته ، ولكنه ألغى الضرورات كلها ورفض العيوب فلم يستعملها . »

أرأيت كيف غضب المعري وتألم ، وثار واستسلم ؟ أرأيت كيف فزع لقصر اسمه ثم تماسك وظنها ضرورة شاعر . ثم أدركه الشك فمضى يفتقد ضرورة أخرى في رسالة صاحبه وأخذ يستعرضها في صبر عجيب حتى أتى عليها فإذا بها خلو من الضرورات ، بريئة من عيوب الشعر ، هنالك فزع أبو العلاء وارتاع ، بدأ يعاتب صاحبه في سخرية ، ولكن المرارة غلبته فهتف في حزن وشكوى^(٢) « وإنما تغوثت من ذلك لأنني قصير الهمة قصير اليد ، مقصور النظر مقصور في البيت ، فكأنني محبوس فيه فما كفاني ذلك مع قصر الجسم ، حتى يضاف إليه قصر الاسم ! لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . لو كنت أطول من ظل الرمح لصرت أقصر من سألقة الذباب قد كدت أمصح في الأرض كما تمصح الظلال . »

٢ — سوء الحياة العامة في زمانه ومكانه

تلك حياة الرجل الخاصة ، فإذا تجاوزتها إلى الحياة العامة في حلب وفي بغداد وفي البلاد الإسلامية بوجه عام ، ألفت شرّاً ونكراً . فقد ضمت الدولة شعوباً متنافرة شتى ، واندست إليها لوثات دينية واجتماعية شاذة من كل مكان .

(١) رسائل أبي العلاء — الرسالة السابعة والعشرون ص ٦٥

(٢) » » » السابعة والعشرون ص ٧٦

كانت الحياة السياسية على حال من السوء يدعو إلى التشاؤم . لم يظهر هذا السوء نجاة في ذلك العهد ، وإنما تقدمته أسباب وطلائع ، ظلت تعمل في جسم الدولة حتى صار هرمًا منخوبًا .

وكانت قوة شخصية الخلفاء في العهد العباسي الأول تؤخر المأساة ، حتى إذا كان العصر الثاني ، ضاعت هذه القوة .

لم يعد للخليفة هيبة ، فهو مراقب مسجون ، ينتظر القتل والعزل ، لا رأى له في اختياره أو عزله ، يثور به الخدم وتستبد به النساء ، ويلعب به الوزراء ويضحك منه الجند ، ويحوطه الأعداء من كل ناحية : من بيته وقومه وعدوه . وهو حائر يتردد بين الحرب والسلم ، بين الجهر بالعداء والكتمان والمداراة ، وهو ضعيف يقدر فلا يعفو ، ويملك فلا يرحم ، يصطنع الغدر والدس والخيانة ، بل والسلب المستتر .

والجند ماضون في طغيانهم . يظلمون ويستبدون ويسلبون ويتنافسون . حديثهم بالسلاح ، وتفاههم بالحراب .

والإدارة مكونة من خليط عجيب ، والدولة كالجثة تنهشها ذئاب الأطماع والعصبية والشهوات .

ولم يعد للدين حرمة ، فكثرت مدعو النبوة ، والزنادقة ، واندست إلى البلاد لوثات دينية وآراء غريبة شاذة . وأصبح التصريح بالسوأة شائعاً على ألسن العامة والخاصة ، وشاع الاتجار بالدين والتكسب به .

والجمهور يفتح عينيه على هذا كله وهو في ثورة فكرية لم يرها العرب من قبل ، فكانت ثقافته تزيد من ثورته وسخطه .

وارجع إلى ما تختار من كتب التاريخ الإسلامي لذلك العهد ، فسترى تلك

الصورة التي عرضناها له ، بريئة من الغلو والمبالغة والإسراف .

في هذه البيئة المنكرة عاش أبو العلاء ، ومن الحق أنها لم تنفرد به وحده ، وإنما كانت بيئة شائعة مشتركة ، شهدها عدد من الشعراء فلم تلذعهم المرارة كما لذعت أبا العلاء . ذلك لأنه كان متعباً ، وقد أوفت الحياة له كيل الموم ، وأثقلت كاهله بأعبائها ، وألقت بينه وبين الدنيا ستاراً أسود ، فبدت له مآسى الدنيا مظلمة شديدة الإظلام . وعاد الشاعر كتلة من الحس المرهف الدقيق ، فإذا به يحس أشياء ، يمر بها غيره سراعاً لا يلتفتون . ثم اعتزل الناس ، ولكن بقيت له نفسه الشاعرة وحسه المرهف ، وعقله الممتاز وروحه الحرة الطليقة ، فمضى يرصد مهازل الحياة في عصره ، ويحس شرورها وأخطاءها إحساساً عميقاً مؤلماً ، فتصدر عنه فيما يمليه ، قوية لاذعة مؤثرة .

قال في الزوميات يتحدث عن فساد الحياة في عصره :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها ٥٥/١

إنما هذه المذاهب أسبا ب جلب الدنيا إلى الرؤساء
غرض القوم متعة ولا يرقون لدمع السماء والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصرة والقرمطى بالأحساء ٦٥/١

ومن يفتقد حال الزمان وأهله يذم بهم غرباً من الأرض أو شرقاً
يجد قولهم مينا ، وودهم قلى وخيرهم شراً وصنعتهم خرقاً ١٢٦/٢

لقد تفكرت في الدنيا وساكنها فأحدث الفكر أشجاناً وتأريقاً

أعرق آدم هذا لا يمازجه سواء، أم مس من إبليس تعريفا ؟ ١٣١/٢

كل الديار ذميم لا مقام به وإن حلت ديار الوبل والرهمل
إن الحجاز عن الخيرات محتجز وما تهامة إلا معدن التهم
والشام شؤم وليس اليمن في يمن ويثرب الآن، تريب على الفهم ١٠٣/٢

ويقال الكرام قولاً وما في العصور إلا الشخصوس والأسماء
وأحاديث حبرتها غواة وافترتها للمكسب القدماء ٢٠٨/١

تلاوتكم ليست لرشد ولا هدى ولكن لكم فيها التكاثروالكبر ٣٠٥/١

فؤادك خفاق وبرقك خافق وأعيالك في الدنيا خليل موافق
تخير، فإما وحدة مثل ميتة وإما جليس في الحياة منافق ١١٨/٢

سأفعل خيراً ما استطعت فلا تقم على صلاة يوم أصبح هالكا
فما فيكم من خير يدعى به يفرج عنى في المضيق المسالك ١٤٩/٢

وكتب في رسالة الأخرسين يحمل على المتدينين وزيفهم :

« قال رجل من الصالحين . لأن يدعولى رجل أخرس ، أحب إلى من
أن يدعولى ألف خطيب على ألف منبر — لأن ذلك يوحىء إلى الله سبحانه بلسان
ما أفك ولا قال البهتان ، وأولئك جديرون أن يكونوا كما قال سبحانه : « يقولون
بألسنتهم ما ليس في قلوبهم » .

وقال في الفصول والغايات :

طُفَّت الآفاق فإذا الدنيا نفاق ، ومللت من مداراة العالم بما يضمّر غيره الفؤاد ،
فاخترت الوحدة على جليس السوء ! (٢٧٣)

بهذا الحس الدقيق المرفف ، وتلك النظرة القائمة المتشائمة ، تجاوز أبو العلاء دنياه
الخاصة وبيئته العامة ، ومضى يواجه مشكلات الحياة الإنسانية ويرصد متاعبها
وشرورها وأخطائها . فلنمض معه ولنصغ إلى تأملاته .

الكتاب الثاني

مراحل الحياة الانسانية

« مرحلة النشأة — مرحلة الحياة — مرحلة الموت والمصير »

المقالة الرابعة : العلة الغائية للخلق

« لم خلق الإنسان ؟ وهل خلق العالم لنا ؟ »

« الخامسة : متاعب الإنسان »

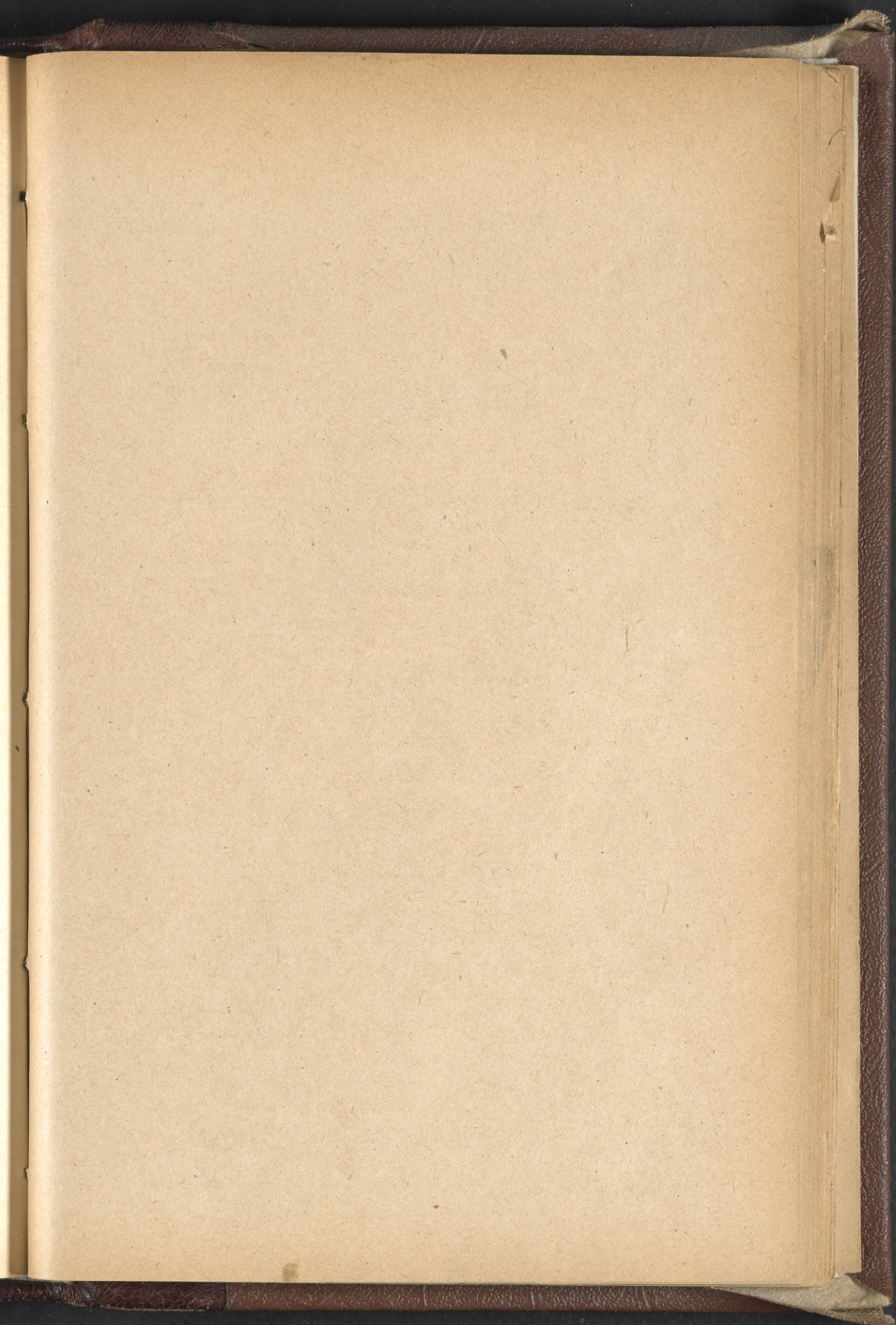
« مشكلة الخير والشر »

« السادسة : أخطاء الإنسان »

« مشكلة الجبر والاختيار »

« السابعة : الموت »

« الثامنة : مصير الإنسان »



مراحل الحياة الانسانية

المرحلة الأولى

العلة الغائية وحكمة الوجود

- ١ — لم خلق الإنسان ؟
- ٢ — وهل خلق العالم لنا ؟
- ٣ — وسخرت الكائنات لأجلنا ؟

١

البحث في حكمة خلق الإنسان يرجع إلى أصل عام هو الحكمة العامة للوجود .
هل للخلق حكمة معروفة ؟

أو أن ما نراه في الكون ، من مظاهر وكائنات ، نتيجة نظام آلى لا يقصد إلا غاية ؟ .
ظهر النضال بين الرأيين في البيئة اليونانية من قديم ، وكان في أول أمره عاماً يتجه
إلى المظاهر الكونية ، ويحاول فهمها وتعليلها . حتى جاء الدور السقراطى ، فلم يعد
البحث في حكمة الخلق مقصوراً على الظواهر الكونية ، وإنما تجاوزها إلى الكائنات
بوجه عام والإنسان بوجه خاص .

رد الظواهر الكونية إلى غضب الآلهة ورضائها :

ظهرت فكرة العلة الغائية ساذجة ، في (الميثولوجيا) اليونانية القديمة ، فكان
اليونان في شغل دائم بالآلهة وغضبها ورضائها ، كلما رأوا خيراً رددوه إلى رضى الآلهة ،

وكما أصابهم أذى رده إلى غضبها . فكان الآلهة في شغل دائم بهؤلاء البشر ، وهي تفعل ما تفعل ، وتخلق ما تخلق ، متأثرة بعواطفها نحوهم .

ولكن المدرسة الذرية الأولى ، حاربت هذه الفكرة ، فزعيمها ديمقريطس Démocrite يسأل : « هل المادة — وهي متحركة أبداً — تسير في حركتها ، وفقاً لخطة مقدورة وغاية مرسومة ، أو أنها تخبط خبط عشواء ؟ » ويحجب ديمقريطس عن السؤال ، فلا يتردد في القول ، بأن الضرورة الآلية العمياء وحدها ، هي التي تدفع الذرات هنا وهناك دون أن يكون لها قدر معلوم ، أو سبب مرسوم ، أو غاية تقصدها .

هذا قول جهرت به المدرسة الذرية الأولى قبيل القرن السادس ق. م. ولكن العهد لم يطل به ، فقد نهض أناكسا جوراس Anaxagore حوالي سنة ٥٠٠ ق. م. يبطله ، ويقول أرسطو عنه : « بدا كأنه الوحيد الذي احتفظ برشده إزاء هذيان سلفائه . »

بهره ما يشمل الكون من نظام وجمال وتناسق ، فأدرك على الفور أنه يستحيل على قوة عمياء أن تخرج هذا العالم الدقيق المتناغم ، فهو كما يظهر لا يخبط خبط عشواء بل يقصد إلى غرض محدود ، وكيف يسيع العقل أن يكون تناسق الكون من فعل قوة آلية عمياء ؟ وهل تنتج هذه القوة إذا أطلق لها الأمر إلا عماء وفوضى ؟^(١)

وقد بالغ أناكسا جوراس في تقدير القوة العاقلة حتى انقلبت عنده قوة آلية ، وكأنه انكفاً بذلك راجعاً إلى حيث كان أسلافه من قبل .

وجاءت مدرسة سقراط فقررت ألا شيء في العالم خلق عبثاً ، وأعلن أرسطو ، أن ما نرى في العالم ليس ضرباً من العبث لا يقصد إلى غاية معلومة ، بل لا بد أن يكون هناك غاية ، وكلُّ يسير إلى غايته ويعرف السبيل إليها . وحركات العالم ليست

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية للأستاذ يوسف كرم ص ٥٦

حركات آلية مجردة عن القصد ، إنما كل حركاته — حتى الآلية منها — موجه إلى غاية .

وضبطاً للفكرة ، مضى تلاميذ المدرسة يلتمسون غاية يرد إليها كل نوع من الكائنات . واقتضاهم هذا أن يضعوا ترتيباً ، عرف بسلسلة مراتب الوجود أو سلم العالم . فالعالم متدرج في الرق ، بعضه أرق من بعض في الوجود وفي القيمة .

البذور الأولى للوجود تبدأ بالحياة المعدنية ، وهي أحط درجات الوجود ، وما يوجد فيها بشكل ساذج أو دنيء ، يوجد على درجة أرق في الحياة النباتية ثم الحيوانية ، وتنتهي السلسلة بالإنسان وهو أرق الموجودات ، بما أنه حوى أنقى عنصر من هذه جميعاً .

قالوا : « وكل نوع من هذه الدرجات موضوع للدرجة التي تليه ، وله حق الاستيلاء على ما دونه وإلا كان وجود ما دونه عبثاً » . قال سقراط^(١) : « إن الخير هو النافع » ويقصد بالنافع أن يؤدي الغاية التي خلق من أجلها . وإذا فكل الكائنات مسخرة لهذا الإنسان إذ هو أعلاها وأسمها ، وإذا — فالاعتداء على الحيوان خير ، لأن ذلك هو غاية وجوده ، والمثل الأعلى له أن ينتفع به الإنسان . وكان أفلاطون يمجّد الإنسان ويقول عنه في طيماوس : « ألسنا^(٢) نبات السماء لا نبات الأرض ؟ » وأرسطو يقرر « أن لكل موجود وظيفة يؤديها ، وكل الموجود أو خيره ، يكون في تمام وظيفته^(٣) . »

وقد أخضع أصحاب المذهب ، كل الأمور لهذا التفسير الإنساني ، وقوموها بمقياس

(١) L. Robin-La Morale Antigue P.27—32 ed. 1938

(٢) الأخلاق لأرسطو — تعريب لطفي باشا السيد عن سننيلير . ص ٦٤

(٣) L. Robin-La Morale Antigue — (Aristote) P. 45—50

المصلحة البشرية ، فكل الكائنات موضوعة للإنسان (نبات السماء) ، وكل ما فى الكون من بحار وأنهار ونجوم ونبات وحيوان ، قصد به نفع البشر — حتى الزلازل وثوران البراكين والآفات والعاهات ، يقصد بها نفعهم أيضاً ، إذ فيها إعلان لهم بسخط الآلهة وردع لهم عن المعاصى .

ويظهر أن أرسطو قد لمح ما فى هذا من إسراف فتحفظ وقال : « يجب ألا نفهم من هذا أن كل موجود إنما يتحرك لخدمة الإنسان » . ولكنه يقول بعد هذا مباشرة : « كل ^(١) الأشياء التى هى أحط من الإنسان فى سلم الرقى ، تتجه نحوه ، وغايتها هو الإنسان بحكم أنه أعلى منها فى سلم الرقى » . .

وقد لقي القائلون بذلك ، خصومة حادة عنيفة أثارها الأباقة ^(٢) ، فقد أنكروا العلة الغائية إنكاراً صريحاً ، ورفضوا القول بأن يداً إلهية خلقت هذا الكون لنا . وسخروا بمن يردون الظواهر الكونية إلى حكمة معروفة من نفع البشر أو سواهم . فلم يخلق المطر والخصب والصحة جزاءً لطاعة الناس ، وإعلاناً برضى الآلهة ، وليست الصواعق والبراكين والزلازل والآفات إيذاناً بسخطها وردعاً للبشر . إنما الوجود كله ، خاضع لنظام آلى لا دخل لإرادة خارجية فيه ، والقرايين التى يقدمها الناس للآلهة عبث مزدوج ، لأنها لا تقبلها ولا ترد ثمنها لها ، كما أنها لا تزعج بالغضب منا ، فهذه عواطف بشرية ليس لمثلها مكان فى القوة الإلهية الكاملة ^(٣) .

والآلهة لم يخلقوا شيئاً لأجلنا ، لأنهم لم يكونوا ولن يكونوا فى حدود دنيانا .

(١) الكون الفساد لأرسطو — تعريب لطفى باشا السيد عن ستهلير . ص ٢٢٤

(٢) Zeller — Outlines of the History of Greek Philosophy — Baily — The Greek Atomisme.

(٣) Lucretius — The Nature of things (De Rerum Natura) Book II Para. 167 — 183

وليس ما دون الإنسان مسخراً لخدمته ، فالإنسان أكثر الكائنات أعباءً ، ولعله
انفرد دونها بالمتاعب والشقاء ، فالعالم لم يخلق للإنسان ، والكائنات لم تسخر له ،
وإنما لكل موجود حقه الذاتي في الوجود .

وقصيدة لوكريس « طبيعة الأشياء » إنكار ملح لمعرفة حكمة الوجود ، ورفض
صريح لها ، وفيها سخرية بغرور الإنسان وورثاء لمتاعبه وشقوته ، واعتراف بحق الوجود
الذاتي لكل الكائنات . قال : « هناك^(١) من يدعون أن يداً إلهية خلقت هذا
الكون كله لمصلحة البشر ، ولكن من الحق أن ندعى ذلك ونتصور ألا شيء خلق
إلا لخدمتنا ، فإن لكل موجود حقه الذاتي في الوجود » .

٢

في البيئة الإسلامية

القول بحكمة الخلق وردها إلى منفعة البشر :

وفي البيئة الإسلامية ، راج القول بحكمة الوجود وبخلق العالم لنا واعتنقه
المعتزلة ، فردوا كل شيء إلى منفعة الإنسان ، وردوا حكمة الوجود إلى نفع المكلفين
من عباد الله .

وقد ظهرت هذه المسألة في البيئة الإسلامية وأجمعت الفرق الدينية المختلفة — من
معتزلة وسنيين وغيرهم — على أن الله خلق الخلق لحكمة ، وإن اختلفوا وراء ذلك في
أن تكون هناك علة غائية بعثت الله تعالى على العمل ، كما تبعثنا نحن على أن نعمل

طلباً لتحقيق تلك الغاية التي يريدونها في قولهم : « أول الفكر آخر العمل » ،
فنفي بعضهم هذه العلة ، وهو نفي لا يلزم منه مطلقاً نفي أن الله يفعل لحكمة ، فالحكمة
هي مصلحة يراد تحقيقها ، والعلة هي ما يتوقف عليه وجود الشيء ، ويكون خارجاً
عنه مؤثراً فيه ، وقد راج القول بأن حكمة الخلق هي منفعة الإنسان فالمعتزلة^(١)
« أجمعوا على أن الله خالق عباده لعله ، وأنه إنما خلقهم لينفعهم لا يضرهم ، وأن
ما كان من الخلق غير مكلف فإنما خلقه لينتفع به المكلف من خلقه ، وليكون عبرة
لمن خلقه ودليلاً ، ولولا ذلك كان لا وجه لخلقهم ، لأن من خلق ما لا ينتفع به
ولا يزيل بخلقه عنه ضراً فهو عابث . » .

قيل لهم فلم خلق الحيات والعقارب وما أشبهها من الهوام ؟ قالوا لعلها تحشر يوم
القيامة فتكون عذاباً على أهل جهنم من الكافرين والفجار من غير أن ينالها من ألم
جهنم شيء ، كما لا ينال خزنة جهنم .^(٢) قيل وجهنم ؟ أخلقت لنفع الخلق ؟ قالوا نعم ،
فقد أخافت كثيرين فصلحت أعمالهم . قيل وإيلام الأطفال ؟ قالوا إنه يؤلمهم عبرة
للبالغين . وهكذا مضى المعتزلة في التأويل وردوا كل شيء إلى منفعة المكلفين .

والغزالي أيضاً في كتابه « الحكمة في مخلوقات الله » ، يخضع كل ما في الكون لهذا
التفسير الإنساني ، ويطرده في كل شيء ، قال : « إذا تأملت^(٣) هذا العالم بفكرك
وجدته كالبيت المعد فيه جميع ما يحتاج إليه ، فالسما مرفوعة كالسقف والأرض ممدودة
كالبساط ، والنجوم منصوبة كالمصابيح ، والجواهر مخزونة كالذخائر . وكل شيء
من ذلك معد مهياً لشأنه والإنسان كالمالك للبيت ، المخول لما فيه ، فضروب
النبات لما ربه ، وأصناف الحيوان مصروفة لمصالحه » .

(١) مقالات الإسلاميين للأشعري ص ٢٤٧ — ٢٥٢

(٢) مقالات الإسلاميين للأشعري من ص ٢٥٤

(٣) انظر مقدمة كتاب « الحكمة في مخلوقات الله » للغزالي

الإنسانية كذلك مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ، لرجحانها عليها بالمنطق والعقل . فهي مسخرة له بجمعها ، وإلا لكان موضوع الحيوان باطلا لا معنى له . »

رفض القول بالعلة الغائية :

ولكن القول بالعلة الغائية لقي في البيئة الإسلامية خصومة حادة تشبه تلك الخصومة التي لقيها في البيئة اليونانية . أعلن هذه الخصومة ابن حزم في المغرب ، وأبو العلاء في المشرق .

ولا ينفي أحدهما أن الله خلق الخلق لحكمة . ولكنه ينفي أن تكون هناك علة ما ، تبعث الله على العمل ، ونعرفها نحن .

فأما ابن حزم ، فيحتد في خصومته ، ويصطنع السب والتجريح . والجزء الثالث من الفصل ، جدال عنيف مع الفرق المختلفة ، وخصومة منكرة لأصحاب مذهب العلة الغائية ، ورفض صريح لها ^(١) .

ذهب ^(٢) ابن حزم إلى أن هذه العلة من صنع عقولنا ، وهي تلزمننا . ولكن الخالق بخلاف خلقه ، يفعل ما يفعل ، ويخلق ما يخلق ، لا لعلة تبعثه على الفعل ، سوى أنه شاء ذلك . وأكد هذا المعنى فقال : « قلنا ^(٣) في غير موضع ، إن الخلق لما كانوا لا يقع منهم فعل إلا لعلة ، ووجب بالبراهين الضرورية أن الباري تعالى بخلاف جميع خلقه من جميع الجهات ، وجب أن يكون فعله لا لعلة بخلاف أفعال جميع الخلق » .

وقد اعترف « ابن حزم » بعد هذا بحق الحيوان في الحياة ، ونبه إلى خطأ تنورط فيه في ترتيب الكائنات ، فنحن نأخذ الأمر على ظاهره ، ونرى أن كل درجة من

(١) الجزء الثالث من كتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزم

(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ١ ص ٧١

(٣) » » » » » » ج ١ ص ٧٠

الكائنات تمتاز على ما دونها في كل شيء وهذا أخذ بظواهر الأمور . والحق « أن كل واقعين تحت جنس ، فإن ذلك الجنس يعطيها اسمه عطاء مستويا ، فلما كان جنس الحى يجمعنا مع سائر الحيوان ، استوينا معها كلها استواء لا تفاضل فيه ، فيما اقتضاه اسم الحياة ، ونحن نعلم بالمشاهدة أن الحيوان يألم بالضرب والنخس ، ويحدث لهما من الصوت والقلق ما يحقق ألمه ، كما نفعل نحن ولا فرق ، فنحن نستوى معه في الحياة وما يتبعها استواء لا تفاضل فيه ، وإنما فضله فيما يتصل بالنطق ، من علم وتكليف ورسالة . »

أبو العلاء والعلة الغائية

وأما أبو العلاء فيعرض الرأى على طريقته — تأملات شعرية فيها إنكار للعلة الغائية ، وحزن لمتاعب الإنسان وسخرية مرة بغيره ومنطقه ، ورفض لمقاييسه في تقويم الأشياء .

هو يؤمن بأن الله تعالى خالقنا وخالق كل شيء ، وهو وحده الملك القوى القادر ، ونحن عبيده العجزة الضعفاء ، ويؤمن أن الله خلقنا لحكمة ، ولكن ما العلة الغائية لذلك ؟ وما حكمة الوجود ؟ فلنرقبه وهو يمضى في تأملاته يلتمس الجواب .

منظوم الانسائه :

نسمعه أولاً يردد منطق الإنسان فيقول :

لو سُلط البرام على الآرام ، والعلس على ذوات الطلس ، لاستراحت الرذية من

الأذية (الفصول والغايات ص ١٥٢)

ويصور إنكارنا حق الحياة على مالا ينفعنا فيقول في الفصول والغايات :
لو كان لي وقير فيه الحبشة الرعيان ، أعبط كل يوم ما اخترت من الفرار ، فجاء
خرس في الليل الدامس يكنى أبا جعدة ، وراءه عيال لا عهد لهم بالقوت منذ أيام ،
فاختلس فريراً أعجف ، لساءني ذاك ، وغدوت بالملامة على ولاية الزراب . (٥٦)
لا يذنب رب الأخطار عند نفسه إذا اعتبط مائة فرار ، ويرى الذئب باعتباط
الواحد مذنباً . (٤١٠)

ذلك منطق الإنسان ، ولم لا ؟ أليس الكون وما فيه مسخراً له موضوعاً لأجله ؟

متاعب الآدميين :

ولكن أبا العلاء يمضى في تأملاته ، فإذا هذا المنطق الإنساني لا يستقيم على
التحقيق ، لاحظ أبو العلاء أن الله قد ابتلى البشر بصنوف من المتاعب عجز عن
تأويلها لمنفعتهم ، فكيف يستقيم هذا مع القول بأن الله لم يخلق الخلق إلا لينفعهم ؟
في كل أرض صروف غير هازلة يلعبن بالناس أفراداً وأزواجاً لز ١٥٥/١
مهلاً ! أمن وبأفررت وهل ترى في الأرض إلا منزلاً موبوءاً ؟ ٦٢/١
وقال في الفصول والغايات :

والدهر يلعب بنا حالاً بعد حال (٢٩١)

وكل تطعم الكلب سنام الذعلب ، وتجلب إلى الغوى المترب ، ذات الحسن
المعرب ، والجذب يحشر إلى الأمصار أرباب الإصار ، ويوكل أهل الصرم
الحشرات . (٣٦٣/١١٤)

ومضى أبو العلاء في تأملاته فلاحظ أن الله قد سلط علينا الهوام ، وهياً للوحوش
قدرة على اقتراسنا واقتراس ما ينفعنا من ماشية ودواب ، فكيف يستقيم هذا مع القول
بأن الحيوان موضوع لأجلنا مسخر في منفعتنا ؟

بيننا امرؤ يتوقى الذئب عن عرض أتاه ليث على العلات يفترس لز ١٣/٢
ولو لم يقدر خالق الليث فرسه لمطعمه ، لم يعطه الناب والظفرا ٣٥٢/١
وقال في الفصول والغايات :

شبع السرحان من الطليح ، والله رزقه لحم الطلاح (١٨٩)

(البرغوث يمتص دماءنا) والله أذن له بذلك الغذاء (٥٤)

سقط فارس أسد ، على فارس أساد ، دارع لبد على دارع زرد ، والله مسلط
جنوده على من شاء . (١٩٨)

يغدو الحاطب نشيطا وفي يده الحلب ، وعلى عاتقه المسد ، فيكون أكيـل أسامة
مع الشروق . (٤٠٧)

أنت ربنا كافي الغافلين . بك أقرت شنعاء شنيعة (الحية) ، شربت
الذيفان جرعا ، ثم رفعت رأسها إلى واحد بأسة تغتزل العميت ، فأعجلته عن دعاء
الصحب . . . ويحه البأس ! لقد عثر منها بعثار فما تماسك في أيدي الرحضة ،
فكانت الكرامة له دفنه مع الرواح . (٤٧٣)

رب فار من إبرة ذات الفقار (العقرب) ، أتيح له ناب الصل (٣٦٥)

أوحى الله إلى الأسد أن كل فلانا ، فظلت النوائح بجأ من النواح عليه ، في
أيديهن خدم النعال . (٤٣٧)

٣ — لم يخلو الكون وما فيه لنا ، ولكل كائنه حقه في الحياة

ليس صحيحاً إذن أن كل ما في الكون خلق من أجلنا وسخر لنا ، وإنما
لكل كائن حقه الذاتي في الوجود . خلق الله الكائنات وهياً لها سبيل الحياة ،
ورعايته تعالى تشمل الحيوان كما تشمل الإنسان . . .

قال في سقط الزند :

دع الطير فوضى إنما هي كلها طوالب رزق لا تجيء بمفطع ١٠١/

وفي اللزوميات :

والرزق يهتف يا إنس اعملوا وكلوا يا أيها الطي رد ، يا طائر التقط ٧١/٢

ولو لم يقدر خالق الليث فرسه لم يعطه الناب والظفرا ٣٥٢/١

ولو لم يرد جور البزاة على القطا مكوئها ، ما صاغها بمناسر ٣٧٧/١

وفي الفصول والغايات :

غشيت رحمة الله كل الحيوان ، وتكفل بالرزق لكل المتغذيات (١٧٥)

ليس التعشير (صوت الغراب) بنعى ولا تبشير ، وإنما هو لغة طير تسأل الله المير ، وهو رازق كل الحيوان . (٥٤)

إن الوحشية أكلت القسور في رآد النهار ، وأكلها القسور في الأصيل ، والله بما كان منها عليم خير . (٢٣٧)

طلب الأذى الدفء فلقيه ذو نافض من الآساد ، والله جعل رزق الضيغم من الحيوان . (٢٤٢)

أجل ، للكائنات التي دوننا حقها الذائق في الحياة ، ولكننا ننكره عليها ، لأننا نقيس الأمور بمنفعتنا البشرية الخاصة ، ونرد كل ما في الكون إلى مصلحتنا . ومن يدري ؟ لعل من هذه الوحوش والحشرات من يخدعه الوهم والغرور مثلنا ، فيظن أننا لا نستحق الحياة ، أو أننا لم نخلق إلا لأجله .

وفي الفارسية القديمة قصة رمزية لا تخلو من عبرة وفكاهة .. زعموا أن رجلاً أشرف على الكون فلأه الزهو ، وشاع في نفسه الغرور ، وصاح قائلاً : « هذه الشمس تشرق من أجلى ، وهذا النبات ينبثق من التربة ليغذي ، وهذه الدواب التي ترعى فوق الروابي وتملأ الوديان مسخرة لى ، كل ما فى الكون قد خلق من أجلى ، ألا ما أعظم مكانتى عند الخالق ! » . وكانت بعوضة تسمع هذا الكلام فلم يعجبها . وقفت على أذنه تمتص دمه وتروى به ظمأها وهى تقول فى سخرية : « قد يكون زعمك صحيحاً ، ولكن لا تشك فى أنى أعظم منك مكانة وأرفع رتبة لدى الخالق — فهو إن كان قد خلق العالم لأجلك ، فقد خلقك أيها الإنسان العظيم لأجلى ! » .

واذكر هنا قصة البيت والمالك عند الغزالى .

ثم اذكر قول أبى العلاء فى البرغوث : والله قد أذن له بذلك الغذاء (٥٤)

وقوله : « أوحى الله إلى الأسد أن كل فلاناً ! فظلت النوائح بحماً من النواح عليه فى أيديهن خدماً النعال

الكوم لم يخلو لنا ، وظواهره لا تتأثر بنا

هنالك يرفض أبو العلاء أن يعترف بالعلة الغائية ، ويرفض أن يحدد حكمة الخلق ، ويشفق على الإنسان الذى يزعم الزاعمون أن الله خلق كل شىء لمنفعته ، وأن الكون قد سخر لأجله ، وقد مضى يسخر بمن يلتمسون علة إنسانية يردون إليها أنواع الكائنات وظواهر الكون .

لقد سلطت علينا الآفات والوحوش والأمراض والهوام ، ولو شاء الله لمانا منها وحى ضعاف الحيوان منا ، ولكن الله يسلط بعض خلقه على بعض لحكمة نجهلها ، ولعلها الحد من كبرياء المخلوقات ، وإفهامها — لو تفهم ، أن العالم لم يخلق لنوع

بعينه من الكائنات ، وإنما خلق كل موجود ، وله حقه الذاتي في الوجود ، وهيئت له أسباب الحياة ولو على حساب كائن آخر .

وظواهر الكونه لا تتأثر بنا — إنما الأمور مردودة إلى مشيئة الله .

قال في اللزوميات :

لم تجذبوا لقبيح من فعالكم ولم يجئكم لحسن التوبة المطر ٣١٩/١

قضى الله في وقت مضى أن عامكم يقل حياه أو يزيد به السهم
فقولكم : رب اسقنا ، غير ممطر ولكن بهذا دانت العرب والعجم ٢٥٢/٢

وفي الفصول والغايات :

إن أمر الله جل ، لا ينقصه غدر الغادرين ، ولا تزيد قدره صلاة المصلين ،
ولكن الصيام والصلاة ينفعان من فعلهما من الناسكين . (٤٣٨)

أبو العلاء يرفضه مقياسنا ويرافع عن صور الحيوان في الحياة :

لم يكن غريباً بعد ذلك أن يرفض أبو العلاء مقياسنا الإنساني في ترتيب الكائنات ،
ويعجب لنا : نفزع الوحش ونسطو على الطير والماشية ، فلا لوم ولا تثريب ، ويخطف
ذئب جائع دجاجة عجفاء أو حملاً هزيلة ، يهدىء به ثورة جوعه ، أو يطعم به عيالا
له جوعاً لا عهد لهم بالقوت منذ أيام ، فشور وندعو بالويل والثبور ، وهو ما اختار
أن يجوع ، وما خلق طبيعته إلا كلة للحوم . قال في اللزوميات :

لو حاورتك الضأن قال حصيفها الذئب يظلم ، وابن آدم أظلم
أطردت عنا فارساً ذا رجلة ساقته حاجته وليل مظلم

ويزيده عذراً لديننا أنه سدران ، ليس بعالم ما تعلم
تهوى سلامتنا ، وترعى سرحننا وحرابُ ضاربٍ من حرايبك أسلم ٢٧٤/٢

جرُّ يا غرابُ وأفسدْ ، لن ترى أحداً إلا مسيئاً وأى الناس لم يجر ؟
لو كنت حارسَ أثمارٍ لهم ينعت وصادفوك لما أخلوك من حَجَر ٣٨٥/١

وقال في الفصول والغايات :

في قدرة ربك أن تقول الممرية : إن المرء غصبنى ، خلبنى واحتلبنى ، جز وبرى
وشرب لبنى ، ونحر سقى فكربنى ، وإلى القاصية ركنى ، فلما رأى الكبر ثلبنى .
أبعدنى عنه وألبنى ، وعن حوض الواردة ضربنى ، لا يحسن ذلك أدباً ! (٤٢٣)

يا ظالمة ألا تنصفين ؟ لو كان لى وقير (قطع) فيه الحبشة الرعيان ، أعبط كل يوم
ما اخترت من الفرار ، فجاء خرس (جائع مقرور) فى الليل الدامس يكنى أبا جعدة ،
وراءه عيال لا عهد لهم بالقوت منذ أيام ، فاختلس فريراً أعجف ، لساءنى ذاك وغدوت
بالملامة على ولادة الزراب . (٧٥)

لا يذنب ربُّ الأخطار عند نفسه إذا اعتبط مائة فرار ، ويراه (يرى الذئب)
باعتباط الواحد مذنباً . (٤١٠)

وربما اشتاق الراعيان إلى الشواء فأكلا ونسبا إليه (إلى الذئب) ، خانا
— يعلم الله — وكذبا . (٤١٠)

هل أمن التعذيب حيوانٌ يعرف بالذيب ، يتبع الركاب فيرجع مخيباً ؟ يغدو مع
السفر الغادين ، لعل الركائب تلقى حوائل وأسقبا ! . الله رزقه فى البضيع ، فعلامٌ
يُقتل إذا احترس فريراً منزرباً ؟ (٤١٠)

وقف الصائد فى شماله قوس نبع ، فأفزع الوحوش بالطبع ، ورمى ضبعاً فى الضبع ،

فركبتُ لذلك الردع ، أنفعُ ما فعل أم ليس بنفع ؟ ألا تُفرِّق بين الحسنات والسيئات ؟

وقال في اللزوميات :

ولو علمتم بدء الذئب من سغب إذن لسلتم بالشاة للذئب
ما أغدر الإنسَ كم حشف تربهم فغادروه قتيلا بعد ترب ١٣٤/١

وقد تصدى أبو العلاء للدفاع عن حق الحيوان في الحياة ، واشتهرت في ذلك
قصيدته الحائية التي مطلعها .

غدوت مريض العقل والدين فالقنى لتسمع أنباء الأمور الصحاح ٢٣٢/١

وفي اللزوميات — غير هذه — قصائد أخرى كثيرة ، تنكر قسوتنا على الحيوان
وتدافع عن حقه في الحياة .

وســـــــــــــــــيان أم برة وحمامة غدت ولداً في مهده ، وغدت مُبجاً
فلا تبكرن يوماً بكفك مدية لتهلك فرخاً في موطنه دجا ٢٠٩/١

تسريحُ كفى برغوئاً ظفرتُ به أبرُّ من درهم أعطيه محتاجا ٢١٢/١

أرى حيوان الأرض يهرب حتفه ويفزعه رعدٌ ويطمعه برق
فيا طائرُ أمتى ، وياظبيُّ لا تخف شداى ، فما بينى وبينكما فرق ١١٦/٢

وما الظبياتُ منى خائفات وردن على الأصائل أو ربضنه
فلا تأخذُ ودائع ذات ريش فما لك أيها الإنسان بضنه ٣٤٨/٢

وقال في الفصول والغايات :

أيها المسكين ، ما أنت وحمامة قد رضيت من الأوطان بغصن في غينة واد ،
مشيفة على صغيرين عجزا عن المراد ، فهي تنقل الحبة إلى حبيبي الفؤاد . فامض
لحاجتك ولا ترمها . (٢٦٠)

واقرا رسالته^(١) إلى أبي منصور خازن دار العلم ببغداد ، وكيف يتمثل أبو العلاء
ألم الحيوان ، وكيف يضيف إليه اللوعة والحنين .

مناظرة لراعى الدعاة :

عرض أبو العلاء رأيه في ترتيب الكائنات ، وحق الحيوان في الحياة ، على
طريقة الشعراء ، وكان هذا جديراً بأن يعفيه من لم وكيف .

ولكن من معاصري أبي العلاء من لم تخدمهم طريقته ، فرأوا خلال تأملاته
الشعرية مذهباً يعتنقه الرجل ، ويخالف به جمهور المسلمين . فتصدوا لجداله . من
هؤلاء داعي الدعاة بمصر ، أبو نصر بن أبي عمران . وكان لبقاً ذكياً عنيد الخصومة .
رأى في الأمر شيئاً أكثر من خطرات شاعريهم في كل واد ، وأيقن أن أبا العلاء
يؤمن بما يقول ، ويعتنقه مذهباً له في حياته العملية ، فأحب أن يناقشه ويخرجه ،
لكن كيف يجره إلى المناظرة ، وهو المعتزل الزاهد الذي اختار طريقة الشعراء في
عرض تأملاته وآرائه ؟ .

الأمر يحتاج إلى الحيلة البارة .

وقد قال أبو العلاء :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى لتسمع أبناء الأمور الصحاح لز ٢٢٢/١

(١) رسائل أبي العلاء (مرجليوث) الرسالة التاسعة عشرة ص ٥٢

فليتأمر أبو نصر، وليذهب إلى طيب العقل والدين يرجو كشف المرض ! —
وقد كان .

ودارت بينهما رسائل نجح فيها داعي الدعاة في كشف الرجل وإظهار أن وراء
تأملاته الشعرية شيئاً أكثر وأخطر من خطرات شاعر يهيم في كل واد ويقول
مالاً يعني . وفطن أبو العلاء لمقصد الرجل فراوغ وداور ، ولكنه مع ذلك بقي
على موقفه في الدفاع عن حق الحيوان في الحياة ، وإنكار قسوتنا عليه ورفض
مقاييسنا الإنسانية .

سأله داعي الدعاة^(١) « عن العلة في تحريمه على نفسه اللحوم والألبان — سؤال
من يعرف بكونها مخلوقة للأشخاص البشرية . . . فإن القوة الإنسانية مستولية على
الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ، لرجحانها عليها بالنطق والعقل فهي مسخرة له
بجميعها ولو لم يكن ذلك كذلك لكان موضوع الحيوان باطلا . »
فأجاب أبو العلاء : « إن الحيوان كله حساس يقع به الألم — وحاله في ذلك يعلم . . .
وإن العرب لتضرب المثل بما يلحق الوحشية من الوجد إذا فقدت الفصيل ، وإن
السمك ليخرج من الماء كارها ، وإن النحل لتحارب الشائر عن العسل بما تقدر »
قال داعي الدعاة : « ولكن الله خالقها رؤوف رحيم وما أنت بأرأف بها منه » .
فمضى أبو العلاء يسخر بمنطقنا ويقول : « لو رأف بيني آدم ، لوجب أن يرأف بغيرهم
من أصناف الحيوان الذي يجد الألم بأدنى شيء ، ولم يخص الإنس بذلك وهم يجنون
الكبائر ويقدمون على إتيان الذنوب ؟ وقد علم أن الوحش الرائعة يدنو إليها الفارس
فيطعن العير والأتان وربما كانوا جماعة ، فصادوا الأتن والأعيار ، وهن ما أسدين أذاة
— فلائى حال استوجب الرأفة من يفعل بها ذلك ، وهي لم تشرب من المآثم بذنوب

(١) الرسالة الأولى من داعي الدعاة إلى أبي العلاء

ولم تحس ما يكتب من الذنوب . ثم أضاف : « وما الطير^(١) الراضية بلقط الحبة ،
الراجعة بها إلى الأحبة ، فسلط عليها بازى أو صقر . . . ؟ وإن القطاة لتدع
فراخها ظماء ، وتبتكر لترد ماء ، تحمله إليها فى القربة ، فيصادفها دون المدهن
(المستنقع) أجدل ، فينال الظفر بقوت ، ويهلك أفرأخها أواما . ؟ ألحقت الرأفة
بازياً أو كذرية ، فأخذت غصباً أو درية ؟ » .

قيل له ولكن الله سخر الحيوان للإنسان على ما تعرف من ترتيب المخلوقات ،
فأجاب ساخراً منكرأ : « فلم يسلط الأسد على افتراس إنسية ليست بالفسدة ولا
القسية ؟ ولم مات بلدغ الحيات جماعة مشهورة ، ما هى بالزلل ممهورة ؟ »
وقد بقى أبو العلاء على مذهبه ، وصرح فى رسالته الرابعة إلى داعى الدعاة بأنه
« قد رضى أن يلقي الله جلت قدرته ، وهو لا يطالب إلا بما فعل من اجتناب اللحوم ،
فإن وصل إلى هذه الرتبة فقد سعد » .

وتصدى أبى العلاء للدفاع عن حق الحيوان فى الحياة ، وامتناعه عن أكل اللحوم ،
مصدرهما ما رأيت من رفض الاعتراف بسيطرة الإنسان على الخليقة ، والتسليم بأن
الكون مخلوق لنا ، وكل ما فيه مسخر لمنفعتنا . ولكن الكثيرين يقفون عند
ظواهر الأشياء فيردون ذلك إلى مجرد « التأثر^(٢) بالفلسفة الهندية » أو الحكماء^(٣)
المتقدمين .

وآخرون يردون هذا الدفاع إلى مجرد الرأفة بالحيوان . ولذلك لم يفهموا فيم كان

(١) هذه القصة منظومة فى الزوميات أيضاً ج ٢ ص ٢٤٨

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة (أبو العلاء)

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٢

امتناعه عن أكل لحم ذبحه غيره؟ فهم يسألون في عجب: «قد^(١) كان يمكنه ألا يذبح الحيوان رحمة، وأما ما قد ذبحه غيره، فأى رحمة بقيت؟»

وزعم البعض «أنه^(٢) كان مدفوعاً في ذلك إلى حد ما بدافع الاقتصاد»، ولا ندري كيف يضطره الفقر إلى المذهب النباتي، وإن أفقر أعرابي، ليجد بلغته من اللبن والطيروما يخرج من الماء؟ وقد عرضت عليه الثروة كما رأيت عرض الجد عند رحيله عن بغداد، وعرضت عليه في الفترة الأخيرة من حياته عن طريق داعي الدعاة. عندنا أن تصديه للدفاع عن الحيوان. مصدره الاعتراف بحق الحيوان في الحياة، ورفض منطقنا الإنساني، في اعتبار الكون وما فيه مخلوقاً لأجلنا، مسخراً لنا.

الكون لا يكثر بنا :

هكذا رفض أبو العلاء القول بأن حكمة الخلق هي منفعة البشر، ومضى يسخر بغرورنا نحن الذين نزع من العالم خلق لمنفعتنا، وأن الظواهر الكونية تتأثر بنا، وإنما الأمر موكل إلى مشيئة الله، والكون لا يعنيه من شأننا قليل ولا كثير.

قال في اللزوميات :

تورعوا يا بني حواء عن كذب فما لكم عند رب صاغكم خطر ٣١٩/١

وهاتف على الفراق والثرثرا
وما حفلت حضار ولا سهيل
شخصاً في مضاجعها درسناه
بأبشارٍ يمانية يدسنه ٣٥٣/٢

وقال^(٣) :

وما درى يوم أحدٍ بالذين ثووا فيه ، ولا يوم بدر أنهم نُصروا

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٧٠

(٢) مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٠٢ ص ٣١٩ ، ٣٢٠

(٣) «أبو العلاء وما إليه للميمي» — انظر البيت رقم ٢٩ من فائت شعر أبي العلاء

وفي الفصول والغايات :

هل مازن وهوازن القبيلتان ، في مُلك الله ، إلا كمازن النملة ، والهوازن من الطير النافرة ؟ وكذلك كلب بن ربيعة ، وكلاب بن وبرة إنما هما كلب مفرد ، وكلاب مستنبحة . وقضاعة بن مالك كالدابة الخارجة من خضارة ، وقريش كذاك . (٤)
يا من نام على السنام ، إن النجم لا يُهاد من طول السهاد ، إن عرتك نافض فإن السماك لا يشعر بحمّاك ! (١٦٦)

لم تخلق عبثاً ، ولكننا نجرحل العلة :

هل خلقنا عبثاً ؟

كاد أبو العلاء يقول ذلك ، لولا إيمانه بأن الله حكيم غير عابث .

لولا بدائعُ دلت أن خالقنا أدري وأحكم ، قلنا خلقنا لم لز ٢٦٤/٢

وخلقك من ربنا حكمة لقد جل عن لعب أو عبث لز ٢٠٣/٢

وفي الفصول والغايات :

ما أمور العالم بمهملّة . (٨١)

ما أثنأك ربك لعبث . (٦)

والربُ يستجار ، لا يخرج مما يقضيه الجُمدُ ولا الحيوان ، ولا يفعل إلا ما رضى

وشاء ، وغيرُ متعلق به الزيفُ والخطأ ولا شيء من الدنيات (٣٣١)

هو تعالى حكيم ، سبحانه جل عن عبث وارتباب ، لم يخلقنا عبثاً ، ولكن ما هذه

الحكمة التي خلقنا لأجلها ؟

ذلك أمرٌ يجمله أبو العلاء .

ومن الخطأ والظلم أن يزعم أحد أن أبا العلاء اطمأن إلى هذا التسليم تقليداً أو ارتجالاً ، أو إراحة لذهنه من عناء التعليل ، فقد رأيت ، وسترى ، أنه قد أتعبه البحث

التمسها في خلقنا وخلق الكائنات فأضلها .

والتمسها في توزيع الحظوظ والأرزاق ؟ فأعجزه الاهتداء إليها .

والتمسها في الهداية والإضلال فما وجدها .

والتمسها في الموت فلم يعرف ماذا يراد بنا .

لم يكن غريباً بعد ذلك أن يرفض القول بالحكمة ، وأن يرد الأمر كله إلى مشيئة الله ، فهو تعالى يفعل ما يفعل ويخلق ما يخلق ، لا لعلة إلا لأنه أراد ذلك . أما ما عدا هذا فيجهله أبو العلاء . وهو يجهر بهذا الجهل في صراحة مرة أليمة .

أرى جوهرًا حل فيه العرض - تبارك خالقه ما الغرض ؟ لز ٦٣/٢

والله خالقنا لأمرٍ شاءه أبق العبيد ، وعبداه لا يابق ١٢٤/٢

خلقنا لشيء غير بادٍ ، وإنما نعيش قليلا ، ثم يدركنا الهلك ١٤٢/٢

نفارق الأرض لم نظفر بمعرفة أى المعانى بأهل الأرض مقصود ٢٥٤/١

المرحلة الثانية

من مراحل الحياة الإنسانية

مرحلة الحياة

أصغينا إلى تأملات أبي العلاء في مسألة العلة الغائية للوجود — وهي المرحلة الأولى من مراحل حياة الإنسان — ورأيناه حائراً متعباً لا يعرف علة واضحة يرد إليها خلق الإنسان .

والآن نرى أبا العلاء يواجه المرحلة الثانية من مراحل الحياة الإنسانية ، وتلك هي مرحلة الحياة .

اهتم أبو العلاء بهذه المرحلة اهتماماً كبيراً ، على أن عنايته اتجهت بوجه خاص إلى ناحيتين من نواحي الحياة :

(الأولى) متاعب الإنسان (مشكلة الخير والشر) .

(الثانية) أخطاء الإنسان (مشكلة الجبر والاختيار) .

واهتمامه بهاتين الناحيتين غير مستغرب ، فالناحية الأولى تبحث في متاعب الإنسان ، وأبو العلاء كما رأينا ، موفور الحظ من شقاء الدنيا ومتاعبها . والناحية الثانية تبحث في أخطاء الإنسان ، وأبو العلاء قد ضاق بأخطاء الإنسانية ورثى لها ، وحرص على أن يعرف نصيب الإنسان من المسؤولية عن هذه الأخطاء .

ونحن نصحبه في هذه الجولة مبتدئين بمشكلة الخير والشر .

متاعب الانسان

مشكلة الخير والشر

- ١ — تعذر ضبط مقاييس الخير والشر .
- ٢ — عالمنا الذى نعيش فيه ، أخير هو أم شر ؟
- ٣ — من خلق الشر ؟
- ٤ — علة خلق الشر .

١

الخـيـر والـشـر

تعذر ضبط مقاييسهما :

قبل أن نعرض لمشكلة الخير والشر ونصغى إلى أبى العلاء وهو يرصد شرور الدنيا ومتاعب الحياة ، نرى واجباً علينا أن نشير إلى تعذر ضبط معنى الخير والشر وتعذر الاتفاق على مقياس منضبط لتقويمهما .

ما الخير وما الشر :

واضح أن الشر هو نقيض الخير كما تقول معاجم اللغة ، وقد حاولوا تعريفهما من قديم فأحسوا صعوبة التعريف ولجأوا إلى المرونة يستعينون بها على ما فى الأمر من مشقة وعسر .

قالوا : ^(١) « إن الخير هو ما يجب أن يكون ، والشر هو ما يجب ألا يكون »

(١) دائرة معارف الأخلاق والديانات — مادة (الخير والشر)

ويرد عليه أنه لا توجد حدود ثابتة واضحة لكلمة (ما يجب) ، فمن الصعب تحديد ما صدق « ما » في قولهم (ما يجب وما لا يجب) .

وقالوا^(١) : « الخير هو المرغوب ، والشر هو المكروه » . « والخير^(٢) عندنا هو الذى نرحب به إذا جاء ، ونحاول أن نحفظ به ونبقيه ، وننظر إليه برضا — والشر فى تجار بنا هو كل ما يراد التخلص منه وإبعاده عن نظرنا وسمعنا وذا كرتنا » .

على أن الأمر أدق وأوسع من أن تضبطه قيود التعريف ، ولكل من الخير والشر — على أى حال — مفهوم ذهنى ليس من العسير إدراكه وتمثله ، وهو فى أبسط حالاته ، وبمعناه العام ، ينصرف إلى النفع والضرر ، فالخير هو النافع المفيد ، والشر هو المؤذى الضار .

مقاييس الخير والشر :

ولكن بم يقاس النفع والضرر ؟

كتب^(٣) الأخلاق تفصل الحديث عن تاريخ الحكم الخلقى وتطوره من عرف وعادة إلى قانون — وضعى أو سماوى — إلى بحث ونظر . وهى كذلك تعرض الخلاف فى ضبط الغاية التى يخضع لها السلوك الإنسانى ويوجه إليها . وتصور النضال بين من أرجعوا^(٤) هذه المقاييس الخلقية إلى معنى الواجب ، وبين من أرجعوها إلى معنى اللذة .

وليس هذا مكان التعرض لهذه الأبحاث الخلقية ، ولكن الذى يعيننا هنا هو الإشارة إلى الخلاف فى التقويم الاعتبارى للخير والشر . هل تقوم الأمور بالاعتبار الفردى ، أو باعتبار الجماعة على اختلاف صورها ؟ ..

(١) Sidgwick — Methods of Ethics P. 110 ed. London 1901

(٢) Royce — Studies of good & Evil P. 16

(٣) و (٤) Zeller — Outlines of the History of Greek Philosophy P. 237

L Robin — La Morale Antique P. 45 — 50

لم تهتد الإنسانية حتى اليوم ، إلى مقياس صحيح منضبط ، يتفق عليه الناس في تقويم الخيرية والشرية ، فلا يزال شيء من النضال قائماً بين أنصار الجماعة وأنصار الفردية . وإن كان صوت الفردية قد خفت قليلاً ، وبدا نوع من الاطمئنان إلى الجماعية .

هل يقاس بالفرد أو الجماعة ؟

يرى أنصار الجماعة أن القياس بالمصلحة الفردية قائم على الأثرة والأنانية معطل لمبادئ التضحية والإيثار والفداء ، والواجب أن تهدر المصلحة الفردية في سبيل مصلحة الجماعة ، وأن تكون هذه المصلحة هي التي تلون نواحي الحياة وتوجه السلوك والأخلاق ، فكل وسيلة تبررها مصلحة الجماعة ، خير وفضيلة مهما أبى العرف واثارت الأوضاع .

ويرى أنصار الفردية أن فناء الفرد في الجماعة إلغاء لسير الزمان ، وتعطيل للنهوض الإنساني ، ورجوع إلى عصور السذاجة والفطرة ، حين كان الفرد يفنى في جماعته ، ويرى بعينها ويردد صدى صوتها — وهذا الفناء لم يعد يساير رقى الفردية ، والتطور الاجتماعي والسياسي ، القائم على احترام الفرد وتقدير شخصيته ، والاعتراف بوجوده مستقلاً عن جماعته .

ونلاحظ أن تقويم الخير والشر بأى المقياسين ، عاجز عن ضبط الأمر ، فما أكثر ما تجد شيئاً ينفك ويؤذى سواك ، ومصلحة جماعة ما ، قد تضر جماعة أخرى .

أو يقاس بالمصلحة الإنسانية العامة ؟

ولقد وجد مبشرون ينادون بتقويم الأمور بالمصلحة الإنسانية العامة ، ويدعون إلى مقياس واسع لا ينظر إلى نفع فرد بعينه أو طائفة بذاتها ، وإنما ينظر في أفق أوسع ويهدر الاعتبارات الشخصية والطائفية والقومية جميعاً ، ليقس بمصلحة المجموع .

فما كان نافعاً للإنسانية خيراً وما كان مسيئاً إليها فشر « الخير هو أحسن ما يمكن
لأكبر عدد ممكن » .

ظهر هذا المقياس في أقوال الدعاة وتعاليم المصلحين المبشرين بعهد جديد يلغى
الفروق بين طوائف البشر وأجناسهم ، ويحطم الحدود والأسوار التي تقيمها كل أمة
حول نفسها . وهذا المقياس يبدو سامياً معقولاً في ظاهره ، ولكننا إذا حققناه وجدنا
أن ضبطه عسير إذ يصعب أن يتفق الجميع على تحديد ما ينفع المجموع وما يضره .

هذه الحرب الهدامة التي تدمر جهد الإنسانية وتراثها في ماضيها الطويل ، وجدت
من يقول إن فيها بعض الخير للبشرية ، وهذه المدنية التي أثمرها جهد الإنسانية
وكد فيها العقل الإنساني قروناً وأجيالاً ، وجدت من ينكرها ويرى فيها القضاء
على نعيم البساطة والفطرة .

جاء في دائرة المعارف للأخلاق والأديان : « نحن إذ ننظر إلى الخير والشر الخلقين ،
نجد خلافاً لانتهاء له في معتقدات الناس وتقويمهم لما هو خير وما هو شر — ولا يوجد
اتفاق عالمي بين الناس على تقويم السلوك ، خيراً كان أو شراً . فما هو فضيلة في مكان ما
يعد رذيلة في مكان آخر . وما يقدره بعض الناس أصدق تقدير ، يتعذر على آخرين
أن يجدوا ألفاظاً تعبر عن مدى كراحتهم له واحتقارهم إياه . قال بسكال : « ليس هناك
قط قانون عالمي واحد » . وقال ^(١) : « ما هو حق في هذا السفح من سفح البرنيه ،
باطل في ذلك السفح الآخر » .

والخلافاً في الخير والشر الطبيعيين physique يشبه الخلاف في الخير والشر
الخلقين ، فقد عجز الناس عن الاطمئنان إلى مقياس تقوم به الخيرية والشرية . فما
أكثر ما تجد مصائب قوم فوائده عند آخرين ؟ .

الموت الذى يراه البعض مأساة الإنسانية الكبرى ، وجد من يراه خيراً للإنسانية ومنفذاً للتضخم فى عدد الأفراد ، وإراحة من ذل الشيخوخة وضعفها . والريح التى تهدم بعض الدور الفقيرة ، تسوق السحب فتنزل الأمطار .

وهبنا اتفقنا على قدر ما من الأمور نراها خيراً للإنسانية أو شراً لها كالمرض والزلازل والجذب والصحة والخصب ، فقد بقى من يرى أن فى مقاييسنا خطأ جوهرياً ، فنحن فى تقويمنا ، للأشياء نقيسها بمصلحتنا معشر البشر ونسقط من حسابنا ما عدانا من المخلوقات ، مدفوعين فى ذلك باعتقادنا أن هذا الكون خلق لأجلنا وأن ما فيه مسخر لمصلحتنا ، فما نفعنا فهو خير ومن حقه أن يعيش ، وما لم ينفعنا فشر وليس من حقه أن يعيش . وإذا عاش بالرغم منا ، مضينا نسأل فى عجب وإنكار : كيف يخلق الله هذا الشر ؟ وتبدأ المشكلة .

الخلاف فى ذاتية الخير والشر :

هذه المقاييس المتقدمة — على ما فيها من صعوبة وخلاف — اعتبارية محضة ، فهى تستطيع أن تحكم على أمر ما حكماً اعتبارياً إضافياً ، فنقول هو خير بالنسبة إلى فلان ، شر بالنسبة إلى فلان — أو هو خير بالإضافة إلى بنى الإنسان ، شر بالإضافة إلى الحيوان .

ولكن أى شئ هو فى ذاته ؟ أخير هو أم شر ، ما رأى فى العمل الواحد يعمله زيد فيكون منه خيراً وفضيلة ، ويعمله عمرو فيكون شراً ورذيلة ؟ وما القول فى الشئ الواحد يكون شراً وخيراً لشخصين فى وقت واحد ؟ أو للشخص الواحد فى ظروف متغيرة ؟ ذلك أمر حير الناس من قديم وكان^(١) إحدى المقدمات التى استخرجت منها المدرسة السوفسطائية Sophiste نتائجها الخطرة فى إنكار الحقائق ، واتهام المعرفة الإنسانية .

(١) كناش فى الفلسفة وتاريخها لحضرة الأستاذ أمين الحولى

قررت المدرسة أنه لا حق ولا باطل ، ولا خير ولا شر ، بل كل ذلك مما تواطأ الناس عليه ليستقيم به معاشهم . قالوا^(١) : « مذهب كل قوم حق بالقياس إليهم وباطل بالقياس إلى خصومهم ، وقد يكون طرفا النقيض حقاً بالقياس إلى شخصين ، وليس في نفس الأمر شيء بحق » .

وقد خاصمهم سقراط وتلاميذه في إنكارهم للحقائق ، واتهامهم للمعرفة الإنسانية . وقالوا إن العقل عام مشترك بين الناس وهو أداة المعرفة ، وإذن فنحن نستطيع أن نصوغ للخير تعريفاً يقوم على أساس إدراكنا العقلي لصفاته المشتركة ، وبذلك نكون قد ظفرنا بمقياس يقره العقل ، وهو عنصر مشترك عند كل الأشخاص .

استطاع سقراط وتلاميذه ، أن يمحوا لوثة الشك التي بثها السوفسطائيون في نفوس الناس ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يلغوا الفروق الواضحة في وجهات النظر ، وأن يحددوا أن الشيء الواحد يكون فضيلة وخيراً في مكان ما ، ويكون رذيلة وشرّاً في مكان آخر .

لم يستطيعوا أن يحددوا ذلك ، وظلت المشكلة قائمة ونشأ عنها ما عرف بنظرية

النسبية الخلقية . Relativity of morality.

أصبح ما قال بسكال^(٢) : « إن ما هو حق في هذا السفح من البرنيه ، باطل في ذلك السفح الآخر » ؟ أيكون الشر والخير قرييين ؟

هذا ما يشغل الكثيرين من الفلاسفة المحدثين ، في بحثهم في نظرية القيم . هل^(٣) قيم الأشياء من جمال وقبح ، وخير وشر ، وحق وباطل ، صفات عينية في الأشياء ؟ هل لها وجود مستقل عن عقولنا ، أو هي من وضع العقل ؟ .

(١) محاضرات الأستاذ سلنتلانا ج ١ ص ٢٠

(٢) B. Pascal — (Pensées — 204 P. 405) ed. L. Braunschvicg.

(٣) انظر ملخص الخصومة في نظرية القيم في كتاب (فلسفة المحدثين والمعاصرين للأستاذ وولف) وقد عربه الدكتور أبو العلا عفيفي .

في البيئة الإسلامية :

ظهرت المشكلة في البيئة الإسلامية وأخذت لوناً إسلامياً . فذهب فريق إلى مثل ما ذهبت إليه السفسطة اليونانية ، وقالوا إن مذهب كل قوم حق عندهم باطل بالقياس إلى غيرهم ، وليس شيء حقاً في ذاته . وذهب فريق آخر إلى ألا حقائق متميزة إطلاقاً ، لا في نفسها ولا تبعاً للاعتقاد ، وقد ووجه هؤلاء وهؤلاء بخصومة منكرة ويقول الفخر الرازي في مناقشتهم^(١) : « إن الصواب ألا نشغل بالجواب عن هذه الشبهة لأن ذلك يحصل غرضهم . » وكان الطريق عنده « أن يعذبوا حتى يعترفوا بالحسيات » على أن النضال ظل حاداً في المدارس الكلامية ، وقام الجدل واشتدت الخصومة في الأمر . ذهب فريق إلى أن ليس في العالم شيء حسن لعينه ولا قبيح لعينه ، بل الحسن والقبح تابعان لأمر الشرع ونهيه ، فما سماه الله حسناً فهو حسن وفاعله محسن وما سماه قبيحاً فقبيح وفاعله مسيء .

وأشهر أدلتهم على ذلك :

أولاً — أن الحسن والقبح لو كانا ذاتيين لم يتخلفا ولم يتوقفا على شروط ، فإن ما بالذات لا يتخلف .

ثانياً — أن الله كان قبل الخلق ولا شيء معه ، فعلى أي شيء كانت صورة الحسن حسنة والقبيح قبيحة ، وليس هنالك عقل أصلاً ، ولا كانت هنالك نفس عاقلة فيقبح عندها القبيح ويحسن الحسن ، فبأي شيء قام تحسين الحسن وتقبيح القبيح^(٢) .
والتمسوا شواهدهم من الواقع والحس ، وقد فصل ابن حزم رأيهم^(٣) فهو يسأل .
« ما مقياس الخير والشر ؟ » ثم يتصدى للإجابة فيلاحظ أن كثيراً من الأعمال اعتبرت

(١) محصل أفكار المتقدمين للفخر الرازي ص ٢٣

(٢) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ١٠٣

(٣) هذا الرأي مفصل في الجزء الثالث من الفصل

شراً لأن الله نهى عنها ، وأن هناك أشياء تعتبر شراً حيناً وخيراً حيناً آخر . فقتل النفس في الانتحار شر ومعصية — وفي الحرب والجهاد خير وإيمان . وكانت الصلاة إلى بيت المقدس حركة حسنة وإيماناً قبل أن يولى الرسول قبلة يرضاه ، فلما أمر بأن يولى وجهه شطر المسجد الحرام أصبح استقبال بيت المقدس أمر قبيحاً منكراً — وهذه تلك ، الحركة نفسها . والخمر والخنازير والحجارة المعبودة ، كانت حسنة عند العرب ، ولكن الله تعالى سماها قبائح وأرجاساً وحراماً ونجساً ، فأصبحت شروراً وخبائث . ثم يقرر ابن حزم : « فصح أن العالم ليس في شيء حسن لعينه ، ولا شيء قبيح لعينه ، لكن ما سماه الله حسناً فهو حسن وفاعله محسن وما سماه قبيحاً فقبيح ، وفاعله مسيء . »

والغزالي في رده على من قال بتعدد الآلهة ، أحدهما خالق الخير ، والثاني خالق الخير ، قرر : « (١) أن الشر ليس شراً لذاته ، بل هو من حيث ذاته مساو للخير ومماثل له — والقدرة على الشيء قدرة على مثله ، فإن إحراق بدن المسلم بالنار شر وإحراق بدن الكافر خير ودفع شر . والشخص واحد ، إذا تكلم بكلمة الإسلام ، انقلب الإحراق في حقه شراً . »

ولكن المعتزلة رفضوا هذا المذهب وذهبوا إلى أن الحسن والقبح في الأشياء والأعمال عقليان ، رداً على من قالوا إنهما شرعيان ، فجميع الأعمال الحسنة فيها نفسها صفة جعلتها حسنة وجعلتنا نحكم عليها بالحسن إذا رأيناها ، والشرع بأمره بأشياء ونهيه عن أشياء إنما يتبع في ذلك ما في الأشياء من حسن وقبح ، وكذلك العقل يستحسن أشياء لإدراكه ما في الأشياء ذاتها من حسن ، ويستقبح أشياء لإدراكه ما فيها ذاتها من قبح ، فالشرع في تحسينه وتقبيلها مخبر عنها لا مثبت لها ، والعقل مدرك لها لا منشئ

(١) الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي

وأهم أدلتهم :

أولاً — أن الناس قبل ورود الشرائع ، كانت تتحاكم إلى العقل ، وتتجادل بالعقل ، وليسوا يرجعون في ذلك إلا إلى ما في الأشياء من حسن وقبح عقليين .

ثانياً — لو لم يكن في الأشياء حسن وقبح عقليان ، لأفحمت الرسل حين يقول الناس : لا يجب علينا النظر في معجزاتكم ونبوتكم إلا بالشرع ، ولا يستقر الشرع عندنا إلا بنظرنا في نبوتكم ومعجزاتكم .

وتسأل عن رأى أبى العلاء في هذا الصدد فلا تجده يعرض للمسألة عرضاً مباشراً كما فعل الفلاسفة وأهل الكلام . وإنما يعالجها عن طريقة الشعراء . فهو حيناً لا ينكر الحقائق كما فعلت السوفسطائية بل يقول رداً عليهم :

وقال أناس ما لأمر حقيقة فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى ؟ لز ٢٨٠/٢

ولكنك تلمح جنوحه إلى الاعتراف بتعذر ضبط القياس في الخير والشر حين يقول في اللزومات :

غنى زيد يكون لفقر عمرو وأحكام الحوادث لا يقسنه ٢٥١/٢

سقى الغمام بعض الإنس تفسده كالطرس يهلك إما مسه البلبل ١٧٥/٢

وسخط الأطباء بما نالها تولد منه رضى الحابل ٣٤٥/٢

ويقول في الفصول والغايات :

تصير بُرة الغادة عقداً ، وبرة الناقة في عنقها قدا . (١٨)

رُب صَعَقٍ في غمام منبعق ، يطردُ الجذبَ بخصب أدب ، وغريقتي ، في غمر

ينقع سالك الطريق . (٢٢)

عالمنا الذى نعيش فيه

أخير هو أم شر ؟

لم يكن أبو العلاء أول رائد لهذا الأفق الإنسانى الواسع ، وأول متأمل فى تلك المسائل الإنسانية العامة . فالناس من قديم يواجهون متاعب الحياة ، ويختلف رأيهم فيها باختلاف حظهم من التفاؤل والتشاؤم . فمن الناس من يستقبلون الحياة ضاحكين متفائلين ، يرون كل شىء فيها حسناً طيباً . ومنهم من يرى الشر فى كل مكان ويحس الحياة الإنسانية ملاءى بالمتاعب والآلام . وعلم النفس يحل هذه المشكلة ويرد الخلاف فيها إلى اختلاف الأمزجة وتفاوت حظوظ الناس من المتاعب والمسرات . ولكن المسألة تعقدت حين عرضت للبحث العقلى فى المدارس الفلسفية والكلامية ، وقام النضال بين المتفائلين والمتشاؤمين .

مذهب التفاؤل :

كانت مدرسة سقراط متفائلة ترى أن العالم — على ما فيه من نقص — هو خير العوالم الممكنة . وحجتها فى ذلك أن الله بنى العالم من المادة التى وجدها وقد خلقه كاملاً بقدر ما تسمح به هذه المادة (طيماوس — أفلاطون) .

ومدرسة الاسكندرية^(١) ، كانت تذهب إلى التفاؤل ، وترى أن الشر فى عالمنا قليل جزئى . وتقرر أنه لا يقع شر جزئى فى العالم ، لا تقتضى الحكمة أن يوجد بسببه خير كلى .

(١) محاضرات سانتيلا ج ١ ص ١١١

وقد اعتنق^(١) « لينتس 1716 : Leibnitz 1646 » مذهب القائلين : « إن عالمنا خير العوالم الممكنة » وفصله ودافع عنه . فهو يقرر « أن الحكمة السامية لا يمكنها إلا اختيار أصلح الأشياء » . ولكي يواجه بمذهبه شرور العالم ، كان يفرق بين الشر النظري والشر الطبيعي . ثم يعمد أحياناً إلى نفي الشر النظري فيضيف إليه وجوداً سلبياً محضاً ، مؤكداً « أنه شر بالقياس إلى الإنسان فحسب ، أما الأضرار الطبيعية فقد سمح الله بوجودها لأنه أدرك من قبل بحكمته السامية أن عالمنا — مع ما فيه من شر — خير من أى عالم ممكن ، فليس في الإمكان أبدع مما كان » .

وقد ووجه المتفائلون بشرور العالم ، فراحوا يلتمسون علة طيبة لها ، قال بعضهم : « إن^(٢) الشر يزيد قيمة الخير وبضدها تتميز الأشياء » . وقال آخرون^(٣) : « إن الشر الطبيعي physique هو الذي أبرز جهود العقل الإنساني ، وجعل تاريخ البشرية رائعاً ، والعقبات هي أم الاختراع ، بينا الحياة السهلة ذات المتاعب القليلة ، تجعل الإنسان حامل الجسم والعقل ، تافه الشخصية » .

وراج مذهب التفاؤل في العالم الإسلامي ، ومن القائلين به ابن رشد الذي ذهب إلى أن «^(٤) العالم قد بنى بترتيب ونظام لا يمكن أن يوجد أتقن منه (صنع الله الذي أتقن كل شيء) » .

وذهبت إليه كذلك المدرسة^(٥) الصوفية ، فقررت أن ليس في الامكان أبدع مما كان . وقد فصل هذا المذهب الإمام الغزالي .

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة لينتس

(٢) و (٣) دائرة معارف الأخلاق والأديان مادة « الخير والشر »

(٤) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ٨٧

(٥) محاضرات سانتيلانا ج ١ ص ١٠٩

وذهبت المعتزلة إلى القول بالأصلح ، فقالت : ^(١) « ليس عند الله تعالى شيء أصلح مما أعطاه الناس ، ولا يجوز أن يترك الله تعالى شيئاً يقدر عليه من الصلاح . ولو كان عنده تعالى أصلح وأفضل مما فعل ومنعه ، لكان بخيلاً ظالماً » .

وهذه الأقوال — على اختلاف مناهج البحث فيها في المدرسة الصوفية والمدرسة الكلامية — تنتهي إلى أن الشر الموجود في العالم شر جزئي لا بد منه ، وأن العالم — على حاله التي نراها — هو أفضل العوالم الممكنة .

مذهب التشاؤم :

ولكن أقوال المتفائلين وتأولاتهم ، لقيت خصومة منكراً أثارها المتشاؤمون ، والتشاؤم قديم ، فالבודהية كانت ترى أن الوجود نفسه شر ، وأن الحياة تعنى الحزن . والمهرب الوحيد من أحزانها هو الفرار من الحياة ، وذلك أمر مستطاع حين نسحب من الدنيا ، ونقهر الرغبة في الحياة . وكانت البوذية تعترف بالخير ، ولكن بمعنى سلبي فهو عندها : ألا ترغب ، ولا تتمتع .

والتشاؤم الغربي أو الحديث ، يعرضه « شوبنهاور 1788-1860 Schopenhaur » « وكان ^(٢) تلميذاً لفيلسوف شرقي ، فمذهبه متأثر — إن لم يكن مستعاراً — من البوذية مع خلاف في الألفاظ ، ففي البوذية « قانون خالق Karma » ولكن عند شوبنهاور نجد الإرادة The Will » .

يرى شوبنهاور أن الإرادة التي خلقت هذا العالم عمياء جهول ، إذ خلقت هذه الدنيا المملأ بالمتاعب والشورر والأحزان . وإذا كان الخلق والحياة ، كما نعرفهما ،

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٢ ص ١٦٤

(٢) دائرة معارف الأخلاق والأديان مادة الخير والشر

من عمل خالق مدرك ، فلا بد أنه شرير آثم ، لم يجد رياضة أفضل من هذه الدنيا التعسة البائسة .

ومثله « جون ستيوارت ميل J.S. Mill » الذى رصد متاعب الإنسانية وأحزانها وأمانيتها المحطمة وسجلها تسجيلاً مؤثراً^(١) . « فالطبيعة تنصب الفخاخ للناس ، ولديها المئات من الميئات المختفية الاحتياطية ، وهى تفعل ذلك فى قسوة وبلااكتراث » وقولتير^(٢) ، على طريقته التهمكية الساخرة اللاذعة ، يحشد فى قصته « كانديد » ألواناً من الشقاء الإنسانى ، ويعرض آلام الإنسانية ومتاعبها ، عرضاً مؤثراً ، فيه سخرية مرة بمن يزعمون أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان . وهؤلاء المتشائمون ، يرون أن نظرية التفاؤل ، هى سخرية مؤلمة قاسية بمتاعب الإنسانية وآلامها .

مثل هذا النضال ، عُرف — على صورةٍ ما — فى المدارس الإسلامية ، بين المعتزلة أصحاب القول بالأصلح ، وبين خصومهم ، وقد لجأ الأولون إلى التأويل ومضوا يلتمسون غاية طيبة لكل ما يبدو لنا شراً . ولكن خصومهم واجهوهم بالشرور التى تملأ العالم ، والمتاعب التى تصيب الإنسانية ، والحن التى تصب عليها ، وأرهقوهم^(٣) بالسؤال عما وراء ذلك من خير ، وسوف ترى هذا النضال فى الحديث عن حكمة خلق الشر .

أبو العلاء يرصد شرور العالم :

الآن نقف لنسمع رأى أبى العلاء فى عالمنا الذى نعيش فيه .

J. S. Mill — Essay on Nature (١)

Voltaire — Candide (٢)

(٣) الجزء الثالث من الفصل فى الملل والنحل لابن حزم .

واضح أن أبا العلاء كان متشائماً يرى الكون حافلاً بألوان الشر والأذى ، وقد فصلنا في المقالة الثالثة كيف كانت حياته العملية ، ومزاجه العقلي ، وظروف زمانه ومكانه ، تأبى عليه أن يريح نفسه ، فيزعم الشر خيراً ، أو يطمئن إلى أن ليس في الإمكان أبدع مما كان . بل كان مغرقاً في التشاؤم ، دقيق الحس لما في الكون من شر وأذى ، صادق الحزن لما يصيب المخلوقات من ألم وضرر .

وقد سمعنا أبا العلاء في المقالة الثالثة يتحدث عن متاعبه الخاصة ، ويتحدث عن سوء الحياة في زمانه ومكانه . والآن نسمعه يتحدث عن متاعب الحياة الإنسانية . قال في سقط الزند :

يا دهر يا منجز إيعاده ومخلف المأمول من وعده
أرى ذوى الفضل وأضدادهم يجمعهم سـيـلـك ، في مده ٥/٢
وقال في اللزوميات :

مهلاً أمن وبأ فررت وهل ترى في الدهر إلا منزلاً موبوءاً ؟ ٦٢/١
ما الظافرون بعزها ويسارها إلا قريبو الحال من خيالها ١٤٣/١
أرى دنياك خالطها قذاها وأعيت أن يهذبها مصفى ١٠٨/٢
وإذا رجعت إلى الحقائق لم يكن في العالم البشري إلا بائس ٢٠/٢
أما إساءتها فقـد كانت ، وحسبـناها وعود ٣٠٦/١
في كل أرض صروف غير هائلة يلعبن بالناس أفراداً وأزواجا ٢١٣/١
ومن لم تبيته الخطوب فإنه سيصـبـحه من حادث الدهر صائح ٢٤٤/١
ضحك الدهر في محياك مكر ماله غير أن يسوءك فكر ! ٣٤٥/١

وما في الأرض من أحد غني ولكن كلنا فقراء عاله ٢٠٠/٢

تباركت^(١) يارب العلا أنت صغتها فليتك في أرزائها لم تبارك ! ١٥٨/٢
وقال في الفصول والغايات :

كل الدنيا مكاره إلا ما شاء الله . (١٥٤)

والدهر يلعب بنا حالا بعد حال . (٢٩١)

إن المرء السيد ، ربما أذلت النكبات حتى يحسبه اللبيب أحد ضعاف العامة (٣١٨، ٤٣٠)
صروف الأيام تريك الجدى على الثدى ، وذا الأمور يخدم المأمور ، والعربية
تنصف السبية ، والصقر يسأل الدخلاء معونته على الفقر ، والطباء تصاول قروما . (٤٧٣)
الزمان لا يجوز عنه الضمان ، إنما يضمن ما يعرف ويؤمن . (٤٤٩)
كفاك من حوادث الدهر ، أن ولد الغنى يفتقر ، وأن ابن الفارس يرجل فيحضر ،
وتدعى الوشائظ صميا . (٤٣٠)

الله ملك الملوك ، وأنا معترف مقر ، أن شهد الدنيا مقر ، وأن غنيها مفتقر . (٤٧)

إن داء الدنيا عرف قديماً ، والحياة كثيرة الصاب . (٣٢٤)

والدنيا دار حسرات . (١٠٥) ودار شقاء (١٦٠)

ألم تر ناراً بالأمس متأججة ، ومررت بها اليوم هابية كأنها لم تغد ضراماً ؟ . .

الدنيا كالنمام ، أجدر بالهم فيها أن يكون فرحاً بعدها .

ما أقل العالم وأقلنى فيه ! (١٢٢)

أحسنوا أملاءكم جماعة الملاء ، فسوف ينفد العدد ولو أنكم الرمال ، وتخبو النار ،

ولو هجم لهبها على النجوم ، وتخف بكم النوب ولو أنكم الجبال حلوما !

والدنيا غير وافية ، ليست الحياة فيها بصافية ، إن الكدر لكأس العيش

مزاج . (٤٣٦)

ولكل خير بالشر انتساخ (٤٧٠، ٢٩٤)

ما البقاء إلا طول شقاء ، والحياة ظلمة ليس فيها إياة ، ومن السعادة أن يموت
القوم كراما . (٤٤٣)

٣

من خلق الشر

لم يقف أبو العلاء في تأملاته عند رصد شرور الدنيا ، بل مضى متأملاً يبحث
وراء هذه الظواهر عن خلق الشر وتعليل خلقه ، ويلقى آراءه على طريقة الشعراء .
وخلق الشر مشكلة ذات أهمية وخطر ، وأهميتها تأتي من اتصالها الوثيق ،
بالإرادة الإلهية ومدى خيريتها وشمولها .

من خلق الشر ؟

مسألة حيرت الناس من قديم ، وبدأت فيها حلول تنحدر من أصل واحد هو
تعظيم الله .

وكان أسبق هذه الحلول ظهوراً ، فكرتين :

١ — ظهرت أولاهما عند الفرس القدماء ، وكانت تتجه إلى تعظيم الله بتنزيهه
عن خلق الشر ، وإنما يخلق الشر خالقٌ غيره . وهو مذهب الثنوية الذي راج
في فارس والهند .

عرف هذا المذهب في عهد مبكر ، وكان ديناً شعبياً اعتنقه الفرس من غير أن
يعنوا بتحليله وتعليله ، إنما كان شعوراً ساذجاً بأن للخير والشر مصدرين . فلما
ظهرت الفلسفة أخذ الفرس يدافعون عن الثنوية ويجادلون بالحجة والبرهان . أحالوا

أن يكون خالق الخير هو خالق الشر ، وأحالوا أن يوجد الشر في الدنيا من غير أن يخلقه خالق ، فذهبوا إلى الثنوية ؛ جعلوا للخير إلهاً وللشر إلهاً .

قالوا ^(١) : « وجدنا الحكيم لا يفعل الشر ، ولا يخلق خلقاً ثم يسلط عليه غيره ، ووجدنا العالم كله ينقسم إلى قسمين ، كل قسم منهما ضد الآخر ، كالخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والحياة والموت ، فعلمنا أن الحكيم لا يفعل إلا الخير وما يليق فعله به ، وعلمنا أن الشرور لها فاعل غيره ، وهو شر مثلهما » . وقالوا ^(٢) : « من خلق خلقاً ، ثم خلق من يضل ذلك الخلق فهو ظالم عاث ، ومن خلق خلقاً ، ثم سلط بعضهم على بعض ، وأغرى بين طبائع خلقه ، فهو ظالم عاث ، فعلمنا أن خالق الشر وفاعله غير خالق الخير » .

٢ — الفكرة الثانية اتجهت إلى تعظيم الله بتعميم الإرادة الإلهية في كل الأمور خيراً وشرها ، فهو تعالى خالق الخير والشر . وقد ظهرت هذه الفكرة عند اليونان ، وكانت هي الشائعة في الميثولوجيا القديمة ، فلما جاءت الفلسفة أيديتها في الأطوار الأولى ، وظلت غالبية عند الفلاسفة الإغريق حتى جاءت المدرسة الذرية الأولى ، فحاولت أن تهدمها ، وترد أمور الخير والشر إلى حركات الذرات في الفضاء ، ولكن فكرة التعميم استردت قوتها في الدور السقراطي (القرن الرابع قبل الميلاد) وظلت غالبية على اليونان ، حتى ظهرت مدرسة أبيقور تحاربها في قوة وعنف وترد كل الظواهر الكونية إلى القوانين الطبيعية .

٣ — هنا ظهر حل ثالث في مشكلة خلق الشر ، وهو يتجه إلى تعظيم الآلهة بتنزيهها عن التدخل في أمور دنيانا خيراً وشرها ، ويرد الأمور والظواهر الكونية

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ١ ص ٣٧

(٢) » » » » » » ج ١ ص ٣٨

كلها إلى قوانين الطبيعة وهذه هي فكرة الأباقة. قالوا^(١) : « إن الآلهة يعيشون بعيداً عن العالم في سلام وأمن وسعادة خالدة ، لا يزعمهم التفكير فينا ، ولا ترهقهم هموم دنيانا ، ولا تنفعل طبيعتهم الإلهية بغضب أو رضا ، لأن هذه العواطف ألوان من الضعف الإنساني ومظاهر للطبيعة البشرية ، وليس يجوز في حقهم أن نزعهم أنهم يخلقون خيراً أو شراً ، أو نضيف إليهم عواطف السخط والغضب والرضا ، فنقول إنهم يرضون عنا حيناً فتستقيم أمورنا وتكثر خيراتنا ، ويغضبون أحياناً فيثور بهم الحقد والسخط ويصبون على خلقهم ألواناً من الشر والعذاب ، حقدًا عليهم وانتقاماً منهم » : « إن^(٢) الآلهة متمتعة بالحياة الخالدة في سلام تام ، بعيدين عن مشاغل دنيانا ، برآء من الخطر والأحزان ، وليسوا في حاجة أبداً إلى أى شىء منا . لسنا نكسبهم بفضيلتنا ، ولسنا نثير سخطهم بأخطائنا . إنما الخير والشر وأمور الكون كلها خاضعة لنظام آلى ، لا دخل لإرادة خارجية فيه ، ومن الخرافة الزائفة التى أرهقت الإنسانية ، الظن بأن الظواهر الكونية من عمل الآلهة ، أو أن الدنيا محكومة بإرادتهم » .

وقصيدة لوكريس (طبيعة الأشياء) تفصل مذهب المدرسة أجمل تفصيل .

في البيئة الإسلامية :

وفي البيئة الإسلامية ، عرفت المذاهب الثلاثة ، ولكنها ملونة بالصبغة الإسلامية
١ — فأما مذهب أبيقور فيظهر^(٣) في مذهب الطبيعيين من الأشاعرة ، وجم غفير من الملاحدة الذين أنكروا الباري ووحدته الوجود .
وقال به بعض المعتزلة — وفيهم الجاحظ — حين أنكروا أن يخلق الله الشر

(١) دائرة المعارف الفرنسية مادة أبيقور .

(٢) Zeller—(Outlines of the History of Greek Philos. P. 237—squ)

(٣) محاضرات سانتيلانا ج ١ ص ١٨ وفي عبارته غموض .

وذهبوا إلى أن « الآلام والأمراض من فعل الطبيعة . » وقامت الخصومة بينهم وبين جمهرة المسلمين ، وإليك مثلاً من الجدل الإسلامي في تلك المسألة : « سئلوا^(١) هل الله قادر على معارضة هذه الطبيعة المعذبة للطفل ، بقوة من عنده تعالى ، أو هو غير قادر ؟ فإن قالوا ، هو غير قادر ، فما في العالم أعجز من تغلبه طبيعة هو خلقها وطبعها ووضعها فيمن هي فيه ، وربما غلبها طبيب ضعيف من خلقه ، بعقار ضعيف من خلقه . وإن قالوا هو قادر على صرف الطبيعة ، ولكنه لم يفعل ، أقرؤا على ربهم بالظلم والعبث ، وبالضرورة ندرى أن من رأى طفلاً في نار أو ماء ، وهو قادر على استنقاذه بلامؤنة ولم يفعل ، فهو ظالم عاث . »

٢ — ومذهب الثنوية ، عرض في ثوب إسلامي على أيدي المعتزلة ، فهي لا تقول بالثنوية ، ولكنها تلتقي معها في القول بأن الله لا يفعل الشر .

أنكر المعتزلة^(٢) أن يقال إن الله يفعل شراً ، لأنه تعالى لا يريد إلا مصلحة خلقه ، ونزهوا الله تعالى عن أن يضاف إليه شر وظلم ، وفعل هو كفر ومعصية ، وكان منهم من يقول^(٣) : « إن الله تعالى لم يفعل شراً بوجه من الوجوه ، وإذا قلتم إن الله فعل فعلاً هو شر على وجه من الوجوه ، فما أنكرتم أن يكون شريراً . »

ودليلهم النقلي : « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » — « وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشداً » .

٣ — وفكرة التعميم : قال بها أهل السنة وأصحاب الحديث وأكثر الخوارج . إذ

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ١٢٠

(٢) الملل والنحل للشهرستاني (على هامش ابن حزم) ج ٢ ص ٥٥٠

(٣) مقالات الإسلاميين للأشعري ج ٢ ص ٥٣٧

يَمْتَنِعُ عَنْهُمْ أَنْ يَقَعَ فِي مَلَكِهِ تَعَالَى مَا لَا يَرِيدُ . وَدَلِيلُهُمُ النُّقْلَى : « مَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا . إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ »

رَأَى أَبِي الْعَلَاءِ

هَذِهِ هِيَ خِلَاصَةُ الْأَرَاءِ فِي خَلْقِ الشَّرِّ ، فَأَيْنَ يَقَعَ رَأَى أَبِي الْعَلَاءِ مِنْهَا ؟ . كَانَ يَذْهَبُ مَذْهَبَ الْقَائِلِينَ بِشُمُولِ إِرَادَةِ اللَّهِ فَهُوَ تَعَالَى خَالِقُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

مِنْ وَسخ صَاغَ الْفَتَى رَبُّهُ فَلَا يَقُولَنَّ تَوَسَّخْتُ لَزْ ١٧٣/١

تَرُومَ تَهْذِيبَ هَذَا الْخَلْقِ مِنْ دَنْسِ وَاللَّهُ مَا شَاءَ لِلْأَقْوَامِ تَهْذِيبًا ١١٠/١

وَاللَّهُ يَقْدَرُ أَنْ يَفْنَى بَرِيَّتَهُ مِنْ غَيْرِ سَقَمٍ وَلَكِنْ جُنْدَهُ الْعَلَلُ ١٨٤/٢

تَبَارَكَتَ يَا رَبَّ الْعَالَمِ أَنْتَ صَعْتَهَا فَلَيْتَكَ فِي أَرْزَائِهَا لَمْ تَبَارَكَ ١٥٨/٢

وَقَالَ فِي الْفُصُولِ وَالْغَايَاتِ :

أَنْعَمَ رَبَّنَا كُلَّ حِينٍ ، وَجَاءَ فَعَلَهُ بِالْبَرْحِينَ (الدَّوَاهِي) . (١١)

غَفَرَانِكَ رَبَّنَا الْقَدِيمَ ، خَلَقْتَ الْخَيْرَ إِلَى جَنْبِ الضَّيْرِ . (٢٢)

خَضَعْتَ قَحْطَانَ لَكَ وَمَعَدَ ، وَجَرَى بِقَدْرِكَ النُّجُوسَ وَالسَّعْدَ . (٢٩)

أَنَا إِلَى رَحْمَتِكَ فَقِيرٌ ، وَمَنْ الْغَنَى عَنْكَ ؟ يَنْبَغِي أَنْ يَدْعَى ذَلِكَ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ

يَنْفَعُ وَيُضِرَّ ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَنْفَعَةِ وَالضَّرَرِ سِوَاكَ . (٣١)

مَوْقِي الْمَلِكِ مُلْكَهُ ، قَاصِرُ الصُّعْلُوْكِ عَلَى عَدَمِهِ ، وَكَاسِي الْجَمِيلِ حُلَّةَ الْجَمَالِ ، هُوَ

سَالِبُهَا الْقَبِيحِ ، فَبِيدَ اللَّهُ الْعَطِيَّةَ وَالْحَرَمَانَ . (٣٩)

وَالرِّزْقَ بِيَدِ اللَّهِ مَنْ أَرَادَ حَرَمَ ، وَمَنْ أَرَادَ أَكْرَمَ . (٣٣٢)

وَاللَّهُ خَالِقُ السَّهْدِ وَالرَّقَادِ (٤٩٤) . وَيَأْذَنُ اللَّهُ سَالَتِ الدَّمَاءَ . (٢٧٥)

إِنْ الزَّعِيمَ بِالشَّقَاءِ وَالنَّعِيمَ ، حَكَمَ إِلَّا يَخْلُدُ سِوَاهُ حَكِيمٍ . (٢٩٤)

وربك يولد ويعقم ، ويعز من يشاء ويقم (٣١٣)

فهو خالق النفع والضرر (٣٥٣) وكلُّ بقدر الله كان . (٢٩٦)

وأملى أبو العلاء في رسالته الأولى إلى داعي الدعاة « يقول قائل : (الله لا يفعل إلا خيراً) أفهذه القضية كاذبة أم صادقة ؟ فإن قيل إنها صادقة رأينا الشرور غوالب وقد روى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا أراد السفر قال : « اللهم إنا نعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر في الأهل والمال والولد » . أفهذه الأشياء التي تعوذ منها خيرات أم شرور ؟ فإن قال قائل هي مخوفة منكورة ، فقد أبطل القضية المتقدمة . وإن قال القضية منعكسة ، فقد لزمه أن يقول : إن الله سبحانه يفعل الخير والشر . فإن أبي ذلك ، رجع إلى ما يقوله الجوس من أن للعالم خالقين ، أحدهما بردان وهو فاعل الخير ، والآخر أهرمز وهو فاعل الشر ، ومعاذ الله أن نقول هذه المقالة » (١)

ثم قال أبو العلاء في مكان آخر من هذه الرسالة : « وللسائل أن يقول : إن كان الخير لا يريد ربنا عزت قدرته سواء ، فالشر لا يخلو من أحد أمرين ، إما أن يكون قد علم به ، وإما أن يكون غير عالم به ، ونعوذ بالله من هذه المقالة .

« فإن كان عالماً به فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون مريداً له أو غير مريد ، فإن كان مريداً فكأنه الفاعل ، كما أن القائل يقول : قطع الأمير يد السارق ، فالأمير قطعها إلا أنه لم يل ذلك بنفسه . وإن كان غير مريد له ، فقد جاز عليه ما لا يجوز مثله على أمير ، له في الأرض نظراء كثير . لأنه إذا فعل في ولايته شيء لا يرضاه ، نكره أشد النكير » .

وهذا المعنى هو الذي نظمه أبو العلاء في اللزوميات فقال :

إذا قيل غال الدهر شيئاً فإنما يراد إله الدهر ، والدهر خادم ٣٦١/١

فأنت ترى أن أبا العلاء أنكر قول المعتزلة في نفي فعل الشر عن الله ، ورأى فيه شبهاً بالثنوية المجوسية ، التي يستعيز بالله منها .
ورأيه صريح في أنه تعالى خالق للخير والشر ، عالم بهما ، مريد لهما .

٤

تعليل خلق الشر

والبحث في خلق الشر ، جر إلى مشكلة من أعقد المشكلات ، فقد اقتضى البحث في تعليل خلق الشر ، وأخذت المسألة وضعاً خطيراً هو :
إذا كان الله قد أراد الشر ، فكيف اتجهت إرادته إلى الشر ، وهو — تعالى — خير محض ؟

وإن لم يكن الله قد أراد الشر ، فكيف وقع في ملكه ما لم يرده ، وهو المريد المختار ؟
والوضع الأول يضيف إرادة الشر إلى الله ويهتم بالتماس علة لذلك .
والوضع الثاني يحد من قدرة الله ، ويجعل في الدنيا ما ليس من خلقه .

مشكلة قديمة

هذه المشكلة شغلت اليونان والعرب ، ولا تزال تشغل الفلاسفة المحدثين . على أن المسألة أقدم من هؤلاء جميعاً : لقد حيرت إبليس نفسه عند بدء الخليقة — فيما يروون — وقد أورد « الشهرستاني » في مقدمة كتابه الملل والنحل ، قصة تلك المناظرة التي قيل إنها قامت بين إبليس والملائكة ، ويعدها الشهرستاني أول شبهة وقعت في الخليقة .

قال^(١) إبليس ، كما نقل عنه :

إني سلمت أن البارئ تعالى إلهي وإله الخلق ، عالم قادر ، ولا يسأل عن قدرته ومشيتته ، فإنه مهما أراد شيئاً قال له كن فيكون . وهو حكيم ، إلا أنه يتوجه على مساق حكمته أسئلة . قالت الملائكة : ما هي ؟ وم هي ؟ فمضى اللعين يسأل : « إنه علم قبل خلقى ، أى شىء يصدر عني ويحصل مني ، فلم خلقني ؟ وما الحكمة في خلقه إياي ؟ وإذ قد فعل ، فلم طرقتني إلى آدم حتى دخلت الجنة ثانياً وغررته بوسوستي ، فأكل من الشجرة المنهى عنها وأخرجه من الجنة معي ؟ وما الحكمة في ذلك بعد أن لو منعني من دخول الجنة ، لاستراح مني آدم ؟ وإذ فعل وكانت الخصومة بيني وبين آدم ، فلم سلطني على أولاده حتى أراهم من حيث لا يرونني ، وتوثر فيهم وسوستي ولا يؤثر في حولهم وقوتهم ، وما الحكمة في ذلك بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يختالهم عنها فيعيشون طاهرين سامعين مطيعين ؟ وإذ قد فعل ، فلم إذ استمهلتهم أمهاني . فقلت أنظرني إلى يوم يبعثون » قال إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . وما الحكمة في ذلك بعد أن لو أهلكني في الحال ، استراح آدم والخلق مني وما بقي شر ما في العالم ؟ أليس بقاء العالم على نظام الخير ، خيراً من امتزاجه بالشر . ؟ »

قيل^(٢) فأوحى الله تعالى إلى الملائكة عليهم السلام ، فقالوا له : « إنك في تسليمك الأول أني إلهك وإله الخلق ، غير صادق ولا مخلص ، إذ لو صدقت أني إله العالمين ، ما احتكمت على بلم : فأنا الله الذي لا أسأل عما أفعل والخلق مسئولون . »

في البيئة اليونانية :

بدأت الخصومة في البيئة اليونانية بين الطبيعيين وخصومهم . الأولون يصرون على نفى تدخل الآلهة ، ويردون الأمر إلى قوانين الطبيعة ، ويخضعون الظواهر الكونية

(١) الملل والنحل للشهرستاني — على هامش الفصل لابن حزم — ج ١ ص ٩ .

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ١٣ .

لنظام آلى لا دخل لإرادة خارجة فيه . ولكن أنصار شمول القدرة الإلهية يخاصمونهم ويصرون على شمول القدرة ويردون إليها كل ظواهر الكون خيراً وشرها . أخذ الطبيعيون يهاجمون خصومهم في عنف فيسألونهم ساخرين ^(١) : « ما بال آلهتكم تخلق العالم ثم تصب الويلات على ما تخلق ؟ ما بالها تلهو بسهامها فتخطىء الأشرار وتصيب الكرام ؟ ما بالها تسخط على العالم ، فتهدم ما بنته بنفسها ؟ ما بالها ترسل شواظ غضبها صواعق مدمرة وزلازل هدامة وبراكين ثائرة ، فتصيب حممها المعابد ، وكان جديراً بها أن تحمى هذه المعابد لأنها بيوتها ؟ »

إلا أن مدرسة سقراط ومن تبعها من القائلين بتدخل الآلهة لم تسكت عند إضافة خلق الشر إلى الآلهة ، وإنما أعلنت إيمانها بأن الله خير حكيم . ومضت تلتمس عللاً ترد إليها وجود الشر في العالم .

واختلفوا في التعليل :

١ — فذهب أفلاطون ومن تبعه إلى أن الله بنى العالم من المادة التي وجدها — وقد خلقه كاملاً بقدر ما تسمح له هذه المادة . فالتقص راجع إلى المادة وليس إلى الصانع . ويشبهه ^(٢) قول أرسطو في قدم المادة وله أنصار محدثون ، وخلاصة رأيهم أن الأرواح غير مخلوقة وإنما هي قديمة أبدية ، والله يجاهد في تخليصها من الشر ، وهو على أى حال غير مسئول عن هذا الشر من قريب أو بعيد .

٢ — وذهب فريق إلى التأويل ، فراحوا يلتمسون علة طيبة يردون إليها كل ما يظهر لنا شراً ، وهم في تأويلهم خاضعون لفكرة المنفعة الإنسانية ، فالله لا يخلق شراً إلا ويقصد به منفعة عامة لبنى الإنسان .

(١) Lucretius — The Nature of things — Book II

(٢) دائرة معارف الأخلاق والأديان (مادة الخير والشر)

وأظهر تأويلاتهم أن الحكمة الإلهية تبيح وجود الشر — لا لذات الشر — وإنما لأجل خير يقتزن به . فمدرسة الإسكندرية تعلل خلق الشر بأنه يسبب خيراً كلياً «^(١) ولا يقع شر جزئى فى العالم لا تقتضى الحكمة أن يوجد بسببه خير كلى . » فليس من الحكمة مثلاً ترك المطر الذى به حياة العالم ، لئلا تنهدم به دور معدودة ، أو يتألم به سائح فى البر والبحر . وقد اعتنق هذا المذهب لبينيتس فقرر : « أن ^(٢) الله لم يرد الشرور . وإنما سمح بوجودها ، وهو قد سمح بذلك لأنه أدرك من قبل أن هذا العالم مع ما فيه من شر ، خير على أى حال من أى عالم ممكن . »

٣ — وظهرت محاولة ثالثة فى تعليل خلق الشر ، وهو أن الخير والشر يختلفان بالإضافة إلى الله عنهما بالإضافة إلينا . ومن الذين قالوا بهذا فى صور مختلفة : برادلى ^(٣) وتايلور ^(٤) . وقد صار هذا ، أسلوب المحدثين من رواد هذه الآفاق العليا . وخلاصة الرأى أن هذه الأوضاع يقتصر تطبيقها على البشر ولا تجوز على الله . فنحن وضعناها فى حدود بشريتنا ، وهناك أفعال وظواهر ، تبدو لنا شراً ، ولكن لا يبعد أن تكون خيراً كاملاً ، لأن النظر الإلهى للخير والشر ، يختلف عن مقاييسنا وضوابطنا .

فى البيئة الإسلامية :

أخذ تعليل خلق الشر فى البيئة الإسلامية ، شكل جدال عنيف بين المعتزلة الذين نفوا فعل الشر عن الله ، وبين خصومهم . وكان الدين عنصراً أساسياً فى ذلك النضال . كان المعتزلة يقولون بالأصلح ، ويصرون على أن الله لا يخلق شراً ، فهو لم يخلق عباده إلا لينفعهم . فكان على المعتزلة إذ قالوا ذلك ، أن يعللوا وجود الشر فى العالم

(١) محاضرات سانتيلانا ج ١ ص ١١١

(٢) دائرة المعارف الانجليزية مادة — لبينيتس

(٣) F. H. Bradley — Appearance & Reality — London 1897

(٤) A. M. Taylor — Problem of Conduct — London 1901

وأن يجيبوا عن سؤال خصومهم : (إن كان الله لا يريد الشر ، فكيف يوجد في ملكه ما لا يريد ؟) . ولم يكن موقف خصومهم أسهل من موقفهم . فقد كان عليهم — إذ قالوا إن الله فاعل الخير والشر — أن يجيبوا عن سؤال المعتزلة : (وكيف تتجه إرادته تعالى إلى الشر ؟ إنكم إذا ما أنكرتم أن يكون شريراً) .

أما المعتزلة فاستعانوا على النضال بالتأويل . سئلوا^(١) : من خلق الكفر والمعصية؟ قالوا : خلقها العباد . قيل : وما الرأي في جهنم ، أو خلقها العباد ؟ قالوا : لسنا نقول إنها شر ؟ فقد أخافت كثيرين فصلحت أعمالهم .

قيل : والحيات والعقارب والهوام ، أتستقيم مع قولكم بالأصلح ؟ . قالوا : لعلها تحشر يوم القيامة فتكون عذاباً على أهل جهنم من الكافرين والفجار من غير أن ينالها من ألم جهنم شيء ، كما لا ينال خزنة جهنم .

أما خصومهم ، فأروا في نفي خلق الشر عن الله تحديداً لإرادته تعالى ، ولكن كان على هؤلاء أن يعللوا وجود الشر في العالم .

١ — قال فريق منهم : «^(٢) إن الشر خلقه الله فيجب أن ينسب إليه ، كما ينسب إليه خلق الخير . لكن ليس ينبغي أن يفهم هذا على الإطلاق ، وإنما على أنه تعالى خالق الخير لذات الخير ، وخالق الشر لأجل ما يقترب به من الخير » .

٢ — وقالت^(٣) الصوفية ؛ إن وجود الشر في العالم كان ضرورة لا بد منها لكي

(١) هذا النضال مفصل في (مقالات الإسلاميين للأشعري) وفي (الفصل لابن حزم)

(٢) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ١١٦

(٣) محاضرات الأستاذ سانتلانا ج ١ ص ١٠٩ — ويعلق أستاذنا الجليل أمين الخولي على هذا قائلا : « لعل هذا في أصله ليس قول الصوفية ، بل هو قول الأفلاطونية الحديثة تأثرت به الصوفية . والنزعة الفلسفية بادية في شرح الفكرة — ١ هـ . انظر قول مدرسة الإسكندرية ، وقد نقلناه في ص ١١١ .

يوجد العالم ، فهو شر أحيز ليكون منه خير عام . فإذا قيل : ولم أوجدت العلة الأولى هذا العالم إذا كان لا بد فيه من عدم الكمال والشر ، قلنا إنه لما كان من المستحيل أن يوجد الإله عالماً يساويه في الكمال ، فلا يخلو الأمر من حالين . إما أن لا يوجد العالم رأساً ، وإما أن يوجد على ما هو عليه من مداخله الشرفيه . وظاهر أن وجود العالم أولى من عدم وجوده .

٣ — وفريق أنكروا على خصومهم ذلك المنطق الإنساني الذي يزعم أن خلق الله للشر يقتضى أن يسمى شريراً . قالوا^(١) : « لقد وافقونا على أن الله خلق الخير ولا يسمى خيراً ، وبني السماء والأرض ولا يسمى بناءً ، وسقانا الغيث ولا يسمى سقاء ولا ساقياً ، وخلق إبليس ومردة الشياطين ولا يسمى خبيثاً ، فأى فرق بين هذا وبين أن يخلق الشر ولا يسمى شريراً ؟ » .

هم إذا يرفضون أن يسمى الله شريراً لأنه خلق الشر ، وكان عليهم بعد ذلك أن يعللوا خلق الله للشر ، فاتكئوا على أصل لهم ثبتوا عنده ، ذلك هو أن الله لا يحكم عليه تعالى بالحكم الجارى على خلقه . ولا يجوز أن نقيس أفعاله بالمقاييس التى وضعها عقولنا ، فإن^(٢) فى هذا تشبيها مجرداً لله تعالى بخلقته : « ثم كيف^(٣) يجوز الحكم عليه بقوانيننا وقد كان تعالى وحده ولا شىء موجود معه قبل الخلق ؟ ترى فى أى شىء كانت صورة الخير خيراً وصورة الشر شراً ، حين لم يكن هناك عقل أصلاً ولا كانت هناك نفس عاقلة أو غير عاقلة ، فيقبح عندها القبيح ويحسن الحسن ؟ فبأى شىء قام تحسين الحسن وتقبيح القبيح ؟ بطل إذاً أن تكون أفعال الله جارية على أحكام المربوبين ، وأن تطرد القوانين التى صنعتها عقولنا — وهى محدثة — فى أفعال الله وهو تعالى لا يجوز عليه الحدوث » .

(١) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٧٣

(٢) المصدر نفسه ص ٧٣ / ٩٨

(٣) » » ص ١٠٣

أبو العلاء يرد الأمر إلى مشيئة الله :

وأبو العلاء كما رأيت خاصم المعتزلة في قولهم : إن الله لا يخلق شراً . وصرح بأنه تعالى خالق الخير والشر . ولما عرض لتعليل خلق الشر ، لم يستطع أن يتأول الشر خيراً ، وإنما ذهب مع القائلين بأن الله لا يحكم عليه ، بما يحكم علينا به . وأنه تعالى خلق الشر لأنه أراد ذلك ، ونحن نجهل الحكمة فيه لأننا لا نملك إلا مقاييسنا الإنسانية التي صنعتها عقولنا المحدثه .

رأى أبو العلاء في علمنا ألواناً من الشر عجز عن تأويلها ، ووقف أمامها حائراً يجهل الحكمة في خلقها .

قال في اللزوميات :

والله يقدر أن يفنى بريته من غير سقم ، ولكن جندُه العلل ١٧٤/٢

ليب القوم تألفه الرزايا ويأمر بالرشاد فلا يطاع
فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذي لا يستطاع ١٨٤/٢

والله إذ خلق المعادن عالم أن الحديد البيض منها تجعل
سفك الدماء بها رجال أعصموا بالخليل تلجهم بالحديد وتنعل ١٨١/٢

وقد يُرزق المجدودُ أقوات أمة ويُجرمُ قوتاً واحداً وهو أحوج ٢٠٤/١

وما زالت الأقدارُ تتركُ ذا النهى عديماً ، وتعطى منية النفس غمرها ٣٥٦/٢

والله ما اختار البقاء وطوله إلا لشر عباده إبليس ٢٤/١

وقال في الفصول والغايات :

رب فار من إبرة ذات الفقار ، أتيح له ناب الصل ٣٦٥

(لص قاطع طريق) ، فرع مناكب جبل يرقبُ وُراد الماء — والله بمكانه عليم —
فهرت رقة من التجر في أعقابهم طالبُ رزق يقوم الليل ويصوم النهار ، فوثب الداعر
فضرب عنق جارمة عيال ، فما تطعم عيونهم من حثا . ١٧١

رُبَّ نَخِيلٍ جَعَلَهَا (يَارَب) فِي مُلْكٍ بَخِيلٍ ، الْفَقِيرُ عِنْدَهُ حَقِيرٌ ، لَوْ قَدَّرَ لَمُنْعِ
الصَّعْوِ (العصفور) مِنْ نَقْرِ الْمَعْوِ (الرُّطْبِ) ، وَالْمَهَاتِفَ ذَا الشَّغْفِ مِنَ الْوَقُوفِ بِالسَّعْفِ ،
وَصَانَ الْجَرِيدَ صَيَانَةَ الْخُودِ الْخَرِيدِ . يَطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ ، وَيَنْعَمُ وَهُوَ غَيْرُ مُنْعَمٍ . إِنْ
كَرَّمَكْ لِعَظِيمِ (٢٠)

رُبَّ هَجْمَةٍ وَهَبَتْهَا لَذَى نَفْسٍ وَجَمَةٍ ، مَخْلُبُهُ دُونَ مَحْلَبِهِ ، وَأُبْنُهُ تَمْنَعُ مِنْ لَبْنِهِ (٢٠)
رَبِّ لَا تَجْعَلْنِي رَابَ عُرُوجٍ ، جَعَلَهَا الْوَسْمَى كَالْبُرُوجِ ، خُلِقَهُ نَابٍ أَنْ يَحْمِلَ عَلَى
النَّابِ ، وَرَزَقَكَ رَبَّنَا عَلَيْهِ مَدْرَارٌ . (٢٣)

يُأْذَنُ اللَّهُ تَصُولَ الضُّبْعَانِ ، وَبِقُدْرَتِهِ أَقْبَلَ الْمَدُّ بَعْدَ الْأَمْدِ ، يَحْمِلُ ذَوَاتِ الرَّبْدِ
بَيْنَ الْغَنَاءِ وَالزُّبْدِ ، كُلُّ حَامِلَةٍ سَمٍّ مُؤَبَّدٍ . (٣٣٦)
الْفَاضِلُ مُوجَّبٌ ، وَالْفَاجِرُ مُنْتَخَبٌ . (٤)
مَا أَكْثَرَ مَا تَلْقَى الْفَاضِلَ عَدِيمًا ! (٤٣٠)
وَاللَّهُ أَرْسَلَ الْمِحْنَ أَجُورًا لِلْمُتَعَبِّدِينَ (١٧٥)

مَا حِكْمَةُ خَلْقِ الشَّرِّ؟ سَوْأَلُ حَيْرِ أَبَا الْعَلَاءِ وَأَرْهَقُهُ . كَانَ يَتَأَمَّلُ فَيَرَى الْكُونَ
حَافِلًا بِأَلْوَانِ مِنَ الشَّرِّ وَالْأَذَى . وَهُوَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ أَرَادَ هَذِهِ الشُّرُورَ . إِذْ يَمْتَنِعُ فِي
حَقِّهِ تَعَالَى أَنْ يَقَعَ فِي مَلَكِهِ مَا لَا يَرِيدُ ، وَلَكِنْ لَمْ أَرَادِ اللَّهُ الشَّرَّ !
لَمْ يَخْلُقِ الْخَلْقَ ثُمَّ يَسْلُطُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَإِنَّهُ لِقَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْقُذَ الْقَوَى مِنَ
الضَّعِيفِ ؟

لَمْ يَبْتَلِ بِرَيْتِهِ بِالْعَلَلِ وَالْأَسْقَامِ وَإِنَّهُ لِقَادِرٌ عَلَى أَنْ يَفْنِيَهُمْ مِنْ غَيْرِ سَقَمٍ
وَلَا تَعْذِيبٍ ؟ .

لَمْ يَخْلُقِ الشَّيَاطِينَ وَاخْتَارَ لَهَا طَوْلَ الْبَقَاءِ ، وَإِنَّهُ لِقَادِرٌ عَلَى أَنْ يَرْحِمَ عِبَادَهُ فَيَفْنِي
إِبْلِيسَ وَشَيْعَتَهُ ؟ .

لم خلق في الإنسان طبائع شريرة تقهره وتغلبه على أمره ، وإنه لقادر على أن يهدي عباده ويجعل رغبتهم زهداً وضلالهم هدى ؟ .
لم تُصب المحن على الصالحين ويدركهم الموت ، وكانوا أولى من إبليس بالبقاء الطويل ؟ .

لم يسوق الله الرزق مدراراً للأشرار البخلاء ، ويحرمه الأخيار ، وإنه لقادر على أن يجعل الغنى للكريم والفقر للبخل ؟ .

أَتَعْلَمُ الْأَرْضَ وَهِيَ أَمَّ خَفَ زَمَانٌ فَمَا أَزْدَهَاها
بَأَى جُرْمٍ وَأَى حَكْمٍ سُلِّطَ لَيْثٌ عَلَى مَهَاها ؟
وَعُدَّتْ حَاجَةً بَعْسَرٍ عَلَى عَلِيلٍ قَدْ اشْتَهَاها ؟
وِظَالَمَ عَنْدَهُ كَنْوَزٌ مِنْ أَمِّ دَفَرٍ ، وَمِنْ لَهَاها ؟ لز ١٤/٢

أَسْئَلُهُ عَرَضْتُ لِأَبِي الْعَلَاءِ فَلَمْ يَعْرِفْ لَهَا جَوَاباً . عَجَزَ عَنْ إِدْرَاكِ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي خَلْقِ الشَّرِّ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَطْمِئِنَّ إِلَى عِلَّةٍ وَاضِحَةٍ يَرُدُّ إِلَيْهَا مَا يَرَى مِنْ أَذَى وَشَرٍّ .
هَنَالِكَ تَرَاهُ يَصْرَحُ بِهَذَا الْعَجْزِ ، وَيَرْفُضُ أَنْ نَقِيسَ أَفْعَالُ اللَّهِ بِقَوَانِينِنَا ، فَهُوَ تَعَالَى خَالِقُ الشَّرِّ ، لَكِنَّهُ غَيْرُ عَابَثٍ وَلَا شَرِيرٍ إِنَّمَا هُوَ عَادِلٌ حَكِيمٌ ، لَا شَبَهَ لَهُ وَلَا نَدِيدٌ ،
قَالَ فِي الزُّوْمِيَّاتِ .

مَا قِيلَ فِي عَظَمِ الْمَلِكِ وَعِزِّهِ فَاللَّهُ أَعْظَمُ فِي الْقِيَاسِ وَأَكْبَرُ ٣٢٦/١
لَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ حَقٌّ فَلْتَعُدْ بِاللَّوْمِ أَنْفُسَكُمْ عَلَى مَرَاتِبِهَا ١٤١/١
فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي هُوَ قَادِرٌ تَعْيَا وَتَقْصُرُ دُونَهُ الْأَوْصَافُ ١٠٣/٢

وَقَالَ فِي الْفُصُولِ وَالْغَايَاتِ :

(٦١) هُوَ تَعَالَى فَوْقَ التَّشْبِيهِ وَالْقِيَاسِ

(٤٧) لَا يَعْجِزُهُ مَمْتَنَعٌ فِي الْعُقُولِ

- والحكم لله في العاقبة والمبتدأ ، لا يرد عليه عجب ، وكيف يعجب من شيء
 خالق العجائب ومبتدع الآزال ؟ (١٩٦)
- لا امتراء في أن الله حكيم . (٤٧)
- جل القادر عن ارتياب . (٣٨)
- شرّف عن الأكفاء . (٢٦)
- ودونه مواقع الفكر . (٢٩)
- تعالى أن يدركه الواصفون . (٢٨٩)
- وكيف يوصف بشيء خالق الصفات ؟ (٨٨)
- سبحانك ما فاتك ، ولا أحاط بك علم ولا ظن ، خشعت لك الإنس والجن ،
 وحكمت على خلقك بالفناء . (١٦٧)



وأبو العلاء هنا — في تعليل خلق الشر — ينجح إلى ما جنح إليه في تعليل خلق
 الكون والإنسان ، من إنكار العلة الغائية . فلسنا نعلم علة نرد إليها خلق الله للشر ،
 وإنما الذي يدريه أبو العلاء ، هو أن الله يفعل ما يفعل ويخلق ما يخلق ، لا لعلّة إلا
 أنه أراد ذلك . وهو تعالى الملك وله الحكم على خلقه ، ولا شيء لنا من الأمر .

قال في اللزوميات :

تبارك رب الناس ليس لما أبي مريد ، ولا دون الذي شاء حابس ٥/٢

قضى الله فينا بالذي هو كائن قتم ، وضاعت حكمة الحكماء

وهل يابق الإنسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسما ؟ ٦٣/١

وقال في الفصول والغايات :

أَعْدِلْ بِالْحَاكِمِ عَلَى خَلْقِهِ بِالْمَنِيَّةِ ، يَحِيدُونَ مِنْ خُطْبِ إِلَى سِوَاهُ . ١٦٩

ولو شاء لَأَنْقَذَ مِنَ الْقَوَى الضَّعِيفِ . ١٨٢/١٦٩

إِنَّ اللَّهَ — وَلَهُ عُلُوُّ الْمَكَانِ — جَعَلَ الشَّرَّ غَرِيزَةً فِي الْحَيَوَانِ ، وَلَوْ شَاءَ تَعَالَى جَعَلَ زَهْدًا رَغْبَةً الرَّاعِبِينَ . ٢٠٦

إِنَّ الزَّعِيمَ بِالشَّقَاءِ وَالنَّعِيمِ ، حَكَمَ إِلَّا يَخْلَدَ سِوَاهُ حَكِيمٍ . ٢٩٤

(سبحانه) ، لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا رَضِيَ وَشَاءَ ، وَغَيْرُ مُتَعَلِّقٍ بِهِ الزَّيْغُ وَالْخَطَأُ وَلَا شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا . ٣٣١

وأبو العلاء في رسالته^(١) الأولى إلى داعي الدعاة ، يجمل رأيه في تعليل خلق الشر ، فيذكر أن العالم حافل بألوان من الشر ، لا يمكن أن تكون وجدت عبثاً ، وأن من هذه الشرور ما يصيب الإنسان ، ويستحيل تأويلها بالخير . قال رداً على من قالوا (إن الله لا يخلق إلا خيراً) : « لقد رأينا الشرور غوالب . وفي الكتاب الكريم (وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ، قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً !) »

ولما توفي إبراهيم عليه السلام ، بكى عليه السلام . فقيل يا رسول الله ، أنت تنهانا عن البكاء . فقال : « تدمع العين ، ويخشع القلب ، ولا نقول ما يسيخط الرب . وإنا عليك يا إبراهيم لحزونون . وإنا لله وإنا إليه راجعون » . أموته

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١ ص ١٩٧

يراه خيراً أم شراً؟ ويقول القائل المجترى: أفما كان من قتل الحسين وسم الحسن،
أخيراً أم شراً؟ إن قيل إنه خير، فعلام نلعن القاتل في صبح ومساء؟ وكذلك
الذين قتلوا يوم أحد، شأنهم مشكل، والنظر في حديثهم يشكل، أقتل حمزة حُسب
مما يُحمد أم هو عبرة للعين ورمد؟ والحديث المشهور، إن الغزاة لما رجعوا إلى المدينة
بكت النساء على قتلاها، فقال النبي (ص): «لكن حمزة لا بواكى له!؟» فصار
النساء يبذلن بيكاء حمزة ثم ينتقلن إلى من فارقهن. والبكاء إنما يحدث من الحزن،
وإن الأيام كثيرة الحزن.

ورأينا أبا العلاء بعد أن فرغ من عرض بعض الشرور والمتاعب التي لا سبيل إلى
إنكارها، يقرر علم الله بالشر، وينكر أن يقال إنه غير مرید له.

وانتهى إلى رفض أقوال المتكلمين وإعلان العجز عن إدراك العلة خلقة تعالى
وأفعاله قال: «هذه العقد قد جهد في حلها المتكلمون فلم يجدوا لها انحلالاً، وأصبح
مقالم ضلالاً. وللبارى عزت قدرته أسرار وقف دونها الأبرار؟ ولعل هذه الأشياء
مخفأة إلى أن تقبض الحى وفاة.»

والمحرومة: أن أبا العلاء كان دقيق الحس لما في الكون من شرور وما في الحياة
من متاعب وآلام، وقد أعجزته طبيعته وظروفه عن التفاؤل، فرفض تأويلات من
يردون الشر إلى الخير.

أما رأيه في خلق الشر فقد رأيت أنه خاصم المعتزلة، في نفى خلق الشر عن الله،
ورأى في مقالم شبهاً بالثنوية المجوسية، وصرح بأنه تعالى خالق الخير والشر، سبحانه
لا يقع في ملكه ما لا يريد.

ولما عرض لتعليل إرادة الشر، أعجزه إدراك حكمة الله في ذلك، فذهب مع القائلين
إن الله لا يحكم عليه بما يحكم علينا به، وإنه تعالى خلق الشر لا لعله إلا أنه أراد ذلك
ونحن نجهل الحكمة فيه، لأننا لا نملك إلا مقاييسنا التي صنعتها عقولنا المحدثه، وهو
تعالى خالق حكيم قديم، جل عن التشبيه والقياس.

أخطاء الإنسان

مشكلة الجبر والاختيار

- ١ — حرية الإرادة
- ٢ — بحث المشكلة في البيئة اليونانية
- ٣ — بحث المشكلة في البيئة الإسلامية
- ٤ — اضطراب أقوال أبي العلاء
- أ — قوله بالجبر — وقوله بالاختيار — وتردده
- ب — تردده في الثواب والعقاب
- ج — إيمانه بعدل الله

حرية الإرادة :

الحيرة في الجبر والاختيار أمر قديم ، يقول الشهرستاني إنها أول شبهة وقعت في الخليفة ، وقد عرت بك في المقالة السابقة ، تلك^(١) المناظرة التي روى أنها قامت بين إبليس والملائكة ، والتي يسأل إبليس فيها ، لم خلقه الله وإنه تعالى ليعلم أى شيء يصدر عنه ؟ ولم كلفه بطاعته ومعرفته ، وهو الذي خلقه على مقتضى إرادته ومشئته ؟ ولم طرقه إلى آدم في الجنة وسلطه على أولاده ، وهياً له القدرة على التأثير فيهم ؟

(١) الملل والنحل للشهرستاني (على هامش الفصل لابن حزم) ج ١ ص ٩ .

كان (١) البحث في حرية الإرادة مشكلة الأمس وهو مشكلة اليوم ، وقد يظل مشكلة الغد فليس للعلم فيه حتى اليوم كلمة فاصلة .

الفلاسفة حائرون : رجال الأخلاق منهم يناضلون عن مبدأ حرية الإرادة ليكون لهم منه متكاً حين يتحدثون عن الفضيلة والمثل ، وعن المسؤولية بوجه خاص . ورجال الفلسفة المادية الواقعية ، يقولون بالجبر ، ويردون أفعال الإنسان — ككل شيء في الكون — إلى قوانين الطبيعة التي تحكم العالم في رأيهم .

ورجال الدين كذلك مضطربون : يؤيدون الجبر حيناً اعترافاً بشمول القدرة الإلهية التي تثبت الأديان أنها تدبر العالم وتقوده ، فالله عالم بكل شيء وكل ما علم أنه سيقع ، لا بد واقع كما علم . وما علم أنه لا يقع فهو لا محالة غير واقع . فعمل الإنسان إنما يجري على وفق علم الله تعالى السابق وهو إذ ذاك مجبر لا مختار . لكنهم يرجعون فيجدون الإنسان محاسباً مسؤولاً على ما عمل ، فعلام الحساب إذا لم يكن حراً ؟ لا بد من القول باختيار ، لتستقيم أمور التكليف وإرسال الرسل والثواب والعقاب . وليس لهم مبدؤهم في عدل الله .

ونحن نحاول الآن أن نلم بخلاصة الأقوال في هذه المشكلة .

١ — في البيئة اليونانية :

كان البحث فيها ينحوي فلسفياً أخلاقياً . وقد احتلت مسألة الإرادة مكاناً ظاهراً في مدرسة سقراط ، وكانت أظهر الأبحاث في فلسفتها الأخلاقية .

المدرسة تعلن إيمانها بحرية الإرادة ، فأفلاطون يقرر في (القوانين) « أن الله قد ترك إلى تصرف إرادتنا ، الأسباب التي تتعلق بها صفات كل منا . وإن كل إنسان هو كما يرضى أن يكون ، تبعاً للميول التي يترك نفسه لها » .

(١) كتاب الخير (خط) للأستاذ أمين الحولى .

وأرسطو^(١) يقرر الاختيار ويرى « أن الفضيلة والرذيلة ليستا مما أوتى الإنسان بالطبع ، فإن الطبع لم يؤت إلا الأصول . »

ولكن هذا الرأي لا يسلم للمدرسة ، فهي لا تبرأ من تناقض واضطراب ، سقراط وأفلاطون يعلنان حرية الإرادة ثم ينقضانها ويهدمانها . حين يقرران ، في إلحاح وتكرار ، وعلى صور شتى ، أن الخطيئة لا إرادية ، فلا أحد يأتي الشر بمحض اختياره ، ذلك لأن الإنسان لا يريد لنفسه شراً ، فإذا أذنب ، فإنما يكون ذلك على رغبة دائماً . وتسمع سقراط يعلم تلميذه (مينون الشاب) . « أن الفضيلة هبة محضة من عند الله » .

وقد لاحظ أرسطو اضطراب صاحبيه ، فرفض رأيهما في لا إرادية الإثم ، وقال بالحرية ، وأشهد عليها وجدان الإنسان الذي تجده في كثير من الأحوال علة ما يصدره من الأفعال . وأشهد عليها الذوق العام الذي يحترم بعض الأفعال ويحتقر بعضها . وأشهد عليها كذلك سنة المشرعين الذين يعاقبون أو يعفون تبعاً لإرادة المذنب فيما يفعل .

كذلك لاحظ « ستهيلير »^(٢) التناقض الذي وقع فيه سقراط وأفلاطون ، حين قررا حرية الإرادة ثم أكدا أن المرء لا يأتي الإثم مختاراً وإنما يأتيه مرغماً لجهله أو لسوء الاستعداد أو سوء التربية . حمل ستهيلير على هذا التناقض والاضطراب . لكنه يتورط في إسرافه في الإيمان بحرية النفس وجبروتها . فيقع في صورة أخرى من الجبر الذي أنكره .^(٣) إذ يقرر بشكل واضح أن الإنسان عبد شهوته وأنه يناضلها فيفشل . فكل الفرق بينه وبين سقراط وأفلاطون ، أنهما يريان الإنسان يفعل الشر مرغماً لجهله ، وهو يراه يأتي الإثم والخطيئة مدفوعاً بقوة قاهرة « تهزم عقله وتسكت صوت

(١) الأخلاق لأرسطو (تعريب الأستاذ لطفى السيد باشا) ص ٨٥

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٤

(٣) » » ج ١ ص ٤٩

الضمير والحكمة وكل شيء . تلك هي الشهوة التي يناضلها الإنسان فيفشل . »

ترى مثل هذا الاضطراب والتناقض ، في المدرسة الرواقية (القرن الرابع والثالث ق . م) فتلاميذها يقررون أن الإنسان حر الإرادة مختار ، ويسرفون في الإشادة بتلك الحرية ، ولكنهم — مع تطرفهم في الحرية — يسامون بالقضاء والقدر ويقررون خضوع الإنسان في كل شيء للقوة الإلهية .

أما المدرسة الذرية — والأباقة بوجه خاص — فيقولون بالجبر — ويمنعون الحرية ، ويعلنون في صراحة أن الإنسان مغلوب على أمره لأنه ككل شيء في الكون — خاضع لنظام آلي لا دخل للإرادة فيه ، محكوم بقوانين طبيعية لا تتخلف .

٢ — في البيئة الإسلامية :

اتجه البحث في المشكلة نحو المنحى الديني ، الذي يدور حول علاقة الإرادة الإنسانية بالقوة الإلهية التي يثبت الإسلام — والأديان جميعا — أنها تدبر العالم وتقوده . وقد أخذت المسألة نقطة ابتداء عند الخلاف في خلق الله تعالى لأفعال خلقه ، ثم اتسعت وتشعبت ، حتى أخذت شكل جدل حاد ، وخصومة من أعنف الخصومات التي شهدتها البيئة الإسلامية . ذلك لأنها لم تعد قاصرة على خلق الله تعالى لأفعال خلقه ، أو خلق الناس لأفعالهم ، بل تفرعت منها مسائل شتى ، كل منها كان مثار الجدل والمناظرة . فتكلموا في الهدى والإضلال والتعديل والتجوير ، وإرادة الله كون الفسق والكفر ، والكلام في اللطف والأصلح .

ولنرجع إلى حيث بدءوا ، فنراهم يواجهون المشكلة داخل الدائرة الدينية ، وجدوا أن الأدلة العقلية — في حدود الدين — تتعارض ، إذ القول بحرية الإنسان يستلزم القول بأن هناك خالقا غير الله ، مع أنهم مجمعون على ألا خالق إلا هو . والقول بالجبر يستلزم

البحث في التكاليف ويجعل السعي والجهد ودفع الضرر ، هراء باطلا غير مُجد ، وهو ما لا يعقله إنسان .

ونظروا في الأدلة النقلية السمعية ، يبتغون فيها فيصلا ، فوجدوها كذلك متعارضة فانقسموا^(١) شيعا ثلاثا :

١ — طائفة تقول بالجبر المطلق ، وترى أن جميع أفعال العباد مخلوقة ، خلقها الله عز وجل في الفاعلين لها . وأصحاب هذا القول هم أهل السنة كلهم والجهمية ، وطوائف من الخوارج والمرجئة والشيعة .

٢ - طائفة تقول بأن أفعال العباد محدثة ، فعلها فاعلوها ولم يخلقها الله عز وجل : « فالعبد^(٢) قادر خالق لأفعاله مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً » : وأصحاب هذا القول هم سائر المعتزلة ، ومن وافقهم من الخوارج والمرجئة والشيعة .

٣ — طائفة تذهب بين هذين وسطا ، ويسميها الشهرستاني ^(٣) الجبرية المتوسطة ، وهي لا تقول بالجبر المطلق . ولا تقول بالاختيار المطلق ، ولكنها تثبت العبد قدرة غير مؤثرة .

وفى هذا المكان الوسط ، وقف ابن حزم ، يهاجم الجبرية والاختيارية جميعاً ،
 ويفند حججهم فى قسوة وعنف ، وإمّا لنا مشيئة ، إلا أنها لا تكون إلا أن يشاء
 الله كونها .

واختاره ابن رشد وإن لم يقل بالكسب كالأشاعرة، وإنما ذهب إلى تقدير الجبر بالعوامل الخارجية، مضيفاً إليها الأحوال النفسية، فهو^(٤) يرى أن الإنسان حر في نفسه، إلا أن حريته تلك محدودة بالأسباب الخارجية. فالإرادة هي شوق يثيره شيء

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٥٤ ،

مقالات الإسلاميين للأشعري ج ١ ص ١٤٠ .

(۲) الملل والنحل للشهرستاني (على هامش الفصل) ج ۱ ص ۵۵

(۲) » » » » » » » ص ۱۰۸

(٤) الكشف عن مناهج الأدلة لابن رشد ص ١٠٧

يعرض لنا من الأمور التي من خارج ، ومن ثم كانت إرادتنا محفوظة بالأمور التي من خارج ومربوطة بها « فكون الأشياء الموجودة عن إرادتنا ، يتم وجودها بالأمرين جميعاً ، أعني بإرادتنا وبالسبب التي من خارج وهذا الارتباط بين أفعالنا والأسباب التي من خارج ، نجد مثله بين أفعالنا وبين الأسباب التي خلقها الله تعالى في داخل أبداننا » .

ولكل طائفة من الطوائف الثلاث أدلتها وبراهينها :
فحجة^(١) الإجماع :

١ — أنه لما كان الله تعالى فعالاً وكان لا يشبهه شيء من خلقه ، وجب ألا يكون أحد فعالاً غيره .

٢ — أن الله عالم بكل شيء ، فعمل الإنسان يجري على وفق علم الله تعالى السابق ، وهو إذ ذاك مجبر لا مختار .

٣ — أن شمول القدرة الإلهية ، يقتضي ألا يقع في ملك الله إلا ما يريد .
ومن أدلتهم النقلية :

« وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله »

« فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم »

« وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى »

« ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ؛ ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

وتأولوا الآيات التي أضيف الفعل فيها إلى الإنسان ، فقالوا إنما هي كما تقول : مات زيد وإنما أماته الله تعالى .

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٢٣٩ ، ٣٠٠

الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٥٨

وفال أصحاب الاختيار :

١ - القول بالجبر^(١) يبطل التكليف وإلا فقد نسبت إلى الله تكليف ما لا يستطيع . ولزمكم أن تميزوا تكليف المقعد أن يجرى وهذا ظلم وجور ، وهما منفيان عن الله تعالى .

ورد بأن هذا تشبيه لله بخلقه ، وهو تعالى يفعل ما يشاء لا يسأل عما يفعل .

٢ - تكليف ما لا يطاق ثم التعذيب عليه قبيح في العقول جملة ، فلا يحسن من البارئ تعالى أصلاً .

ورد^(٢) بأن الله فوق القياس وفوق أحكامنا ، وإن أحدنا ليقول مثلاً اعبدوني ، فينكر قوله . ويقول الله اعبدوني فيكون ذلك حسناً وحقاً ، وإنما قبح ذلك منا لأننا لا نستحقه ، وكذلك قبح منا تكليف ما لا يطاق والتعذيب عليه ، لأننا لا نستحق هذه الصفة .

٣ - إن كان الله^(٣) خلق الكفر والمعاصي ، فهو إذن يغضب مما فعل وخلق ، ولا يرضى ما صنع .

ورد عليهم ، ولكنكم تعلمون أنه تعالى خلق إبليس وفرعون والأصنام والكفار . هذا نفس ما أنكرتم من أنه تعالى غضب من فعله وكره ما خلق .

٤ - إذا كان^(٤) تعالى خلق الظلم والكفر وجب أن يسمى تعالى ظالماً . لأن من فعل شيئاً وجب أن ينسب إليه . ورد عليهم بأن الله تعالى يفعل الأشياء ولا تنسب إليه كخلق الخمر وإبليس ، وبناء السماء والأرض (انظر رده في ص ١١٤)

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٢٥

(٢) المصدر نفسه ص ١١٢

(٣) » » ص ٦٩

(٤) » » ص ٧٣

٥ — إذا كان ^(١) فعلنا خلقاً لله ، فكيف يعذبنا على خلقه ؟

ورد عليهم بأنه تعالى لا يسأل عما يفعل ، ولو أخبرنا تعالى أنه يعذبنا على ما خلق في غيرنا لقلنا به ولصدقناه . كما نقر أنه يعذب أقواما على ما لم يفعلوه قط ولا أمروا به . لكن على ما يفعله غيرهم . قال تعالى :

« وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم . »

« إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار . »

« ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم — ألا ساء ما يزرون . »

ومن آيات الاختيار :

« وأما ثمود فهديناهم ، فاستحبوا العمى على الهدى »

« إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً »

هذا شيء من النضال الذي قام بين المجبرة وخصومهم ، وبقى أن نسمع أقوال الطائفة الثالثة أصحاب المذهب الوسط أو الجبرية المتوسطة كما يسميهم الشهرستاني ^(٢) قالوا إن الحقيقة أن لنا مشيئة ، إلا أنها لا تكون إلا أن يشاء الله .

« لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين . »

وساق المجبرة إليهم أدلتهم العقلية والنقلية ، وكذلك فعل أصحاب الاختيار ، فقالوا إن الاختيار الذي توحيد الله به ، هو أن يفعل ما يشاء وكيف شاء وإذا شاء . وأما الاختيار الذي أضافه الله تعالى إلى خلقه ، فهو ما خلق فيهم من الميل إلى شيء ما ، والإيثار له على غيره وقد ووجهوا بالاعتراضات التي ووجه بها المجبرة والاختيارية جميعاً ، ونوقشوا

(١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٩١

(٢) مقالات الإسلاميين للاشعري ج ٣ ص ٢٣ — الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٥٥

فى إرادة الله للفسق والكفر ، وفى التكليف والعدل والثواب ، ولكنهم اتخذوا لأنفسهم مبدأ يتكئون عليه ويردون به على خصومهم .

ومبدؤهم واضح ، فهم يقولون إن المعتزلة تورطت فيما زعمته من الاختيار ليسلم لها مبدؤها فى عدل الله فيصح التكليف ، ويجوز الثواب والعقاب . وإن المجبرة نفت الاختيار ليسلم لها مبدؤها فى شمول القدرة الإلهية ، والواقع أننا نخطئ فى قياس أفعال الله بأحكام عقولنا ، إذ أن هذا تشبيه مجرد لله تعالى بخلقته .

« والقول الصحيح هو أن العقل الصحيح يعرف بصحته ضرورة ، أن الله تعالى حاكم على كل ما دونه وأنه تعالى غير محكوم عليه ، ولا يلزم لأحد على الله تعالى حق ولا حجة لله تعالى على كل من دونه ، الحق الواجب والحجة البالغة . ^(١) »

^(٢) وأبطالوا العلة الغائية فالله تعالى يفعل ما يفعل لالعة إلا أنه شاء ذلك فليس لأحد أن يقول لم وكيف ؟ لم حبا فلاناً بالسعد ؟ ولم خلق إبليس ومردة الشياطين ؟ ولم لم يمنع قتل أنبيائه ؟ تعالى الله الذى « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون »

وهذا كما ترى جنوح مقنع إلى الجبر وانتهاء إليه . ويظهر هذا فى قول ابن حزم « كل ^(٣) ما فعله الله من تكليف ما لا يطاق ، وتعذيبه عليه ، وخلق الكفر والظلم فى الكافر والظالم ثم تعذيبهما ، وخلق الكفر وغضبه منه ، كل ذلك من الله تعالى حكمة وعدل وحق ، ومن دونه تعالى سفه وظلم وباطل ، لا يسأل تعالى عما يفعل وهم يسألون » .

(١) الفصل لابن حزم ج ٣ ص ٩٨

(٢) « » ج ١ ص ١٢ — الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٥ — مقالات الإسلاميين للاشعرى ج ١ ص ٤٠

(٣) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ج ٣ ص ٧١

أبو العلاء ومشكلة الجبر والاختيار :

والآن إلى أبي العلاء .

الفكرة الشائعة عنه أنه رجل جبرى ، وهى فكرة لها ما يؤيدها من أقوال
أبي العلاء نفسه . فاللزوميات بوجه خاص حافلة بالشعر الجبرى ، وقد أورد أستاذنا
الدكتور طه حسين بك طائفة من هذا الشعر ورأها « كافية لإثبات الروح الجبرى
لأبي العلاء واضحاً جلياً » .^(١)

ومن الحق أن أبا العلاء يقول بالجبر ، ولكنه لا يثبت عليه . على أنا لا نتعجل
القول ، بل نصحب أبا العلاء لنسمع أقواله فى الجبر والاختيار .

١ — قوله بالجبر :

أبو العلاء يقول بالجبر صراحة ، وإذا مضيت تلمس هذا ، رأيته فى كثير
من قصائده وفصوله .

قال فى اللزوميات :

حوتنا شرور لا صلاح لمثلها	فإن شذّ منا صالح فهو نادر
وما فسدت أخلاقنا باختيارنا	ولكن بأمر سببته المقادر ٣١١/١
ولست بفاتح للرزق بابا	إذا أيدى الحوادث أغلقته
ومن يظفر بأمر يبتغيه	فأقضية المهيمن وفقته ٤٠٢/٢
ما باختيارى ميلادى ولا هرمى	ولا حياتى ، فهل لى بعد تخيير ٣٢٢/١
تتخيرنّ الأمر كى تحظى به	هيهات ، ليس على الزمان تخير ٣٢٥/١
تقفون والفلك المسخر دائر	وتقدرون فتضحك الأقدار ٣٣٣/١

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢٨٢

لو ينطق السيف نادى ليس لى عمل إذا قضى مالك الأفلاك أنضانى
وإن كهمت فأمر الله أكهمنى وإن مضيت فأمر الله أمضانى ٣/٣٧٣
تبارك رب الناس ليس لما أبى مريد ، ولا دون الذى شاء حابس ٥/٢
ما حُركت قدم ولا بُسُطت يد إلا لها سبب من المقـدار ٢/٤٠٦
وقال فى الفصول والغايات :

لو ترك القطا ليلا لنام ، والأقر لما هام ، والعرفج لما اضطرم أشد اضطرام . (١٥)
المرء يُقدر ولغيره الأمور . (٣٧٤) ، ولن تقضى أمراً إلا بالقضاء (٢٧١-٢٩٦)
وإذا رأيت الملاً يرمون أمراً ، فقل لعب الولدان خراج . (٢٩٧)
وربك خص بالفضيلة من اختار . (١٨٢)
(يطعن الطاعن) والله مالك أيدي الطاعنين . (٢٣٧-١٧٧)
دع الأقدار وما تريد فإنها لا تصرف على اختيار الخلقين .. (٣٦٩-١٧٤-٢٣٩)
تعالى من خار لعباده وهم للخيرة كارهون . (١٧٤)
وتخيرُ العبد على مولاه شقاق . (٣٤٨)
أنت (ربنا) مجرى القدر على رغم الكارهين ، والخيرة لك لا للمختارين . (٢٣٩)
وأبو العلاء يبعد فى الجبر فيقرر أن الشر غريزة فى الإنسان . وإذا فهو مغلوب
على أمره ، يغلبه طبعه ، وتقهره غريزته ولا يملك الخير لنفسه ، كما لا يملك دفع شرها
فأى هكذا خلقت .

قال فى اللزوميات :

جسمى أنجاس فما سرنى أنى بمسك القول ضمخت
من وسخ صاغ الفتى ربه فلا يقولن توسخت ١/١٧٣

وإن لأجسام الأنام غرائزا إذا حركت للشر طالبه لجأ ٢١٠/١

فكيف لا تختبئ النفس التي جعلت من جسمها ، في وعاء كله دنس ١١/٢

يظهر الجسد المغرور صاحبه وإنما صيغ أقداراً وأنجاساً ٢٣/٢

نبغى الطهارة في الحياة وإنما أجسادنا حمل من الأنجاس ٤٠/٢

نهانى عقلى عن أمور كثيرة وطبعى إليها بالغريزة جاذب ١٣١/١

والشر فى الجسد القديم غريزة فى كل نفس منه عرق ضارب ٩٤/١

إن الضلالة كالغريزة فيكم يأوى إليها كهلكم وفتاكم ٢٧٥/٢

فلا تعذلينا ، كلنا ابن لثيمة وهل تعذب الأثمار إن لؤم الغرس ؟ ٤/٢

مهجتي ضدد يحاربني أنا منى ، كيف أحترس ؟ ١٠/٢

وقال فى الفصول والغايات :

إن الله — وله علو المكان — جعل الشر غريزة فى الحيوان . (٢١٩)

والشئ كما فطر حتى يأذن خالقه بالتغيير . (٣٣٩)

ولو شاء تعالى جعل زهداً رغبة الراغبين . (٢٠٦)

ويبعد أكثر من ذلك ، فيعلن أن الإنسان قد يتألم لما يقترب من شرور
وسيئات ، ويحاول مخلصاً أن يتجنبها ويفعل الخير ، فتصد عنه ذلك قوى قاهرة
غلبة ، لا سبيل له إلى مقاومتها . يهيم بالخير فتأبى الأقدار عليه ذلك وتتصدى معترضة
دون هذه الرغبة الكريمة .

يعلن أبو العلاء ذلك في مرارة وألم فيقول في اللزوميات :

وإذا غدوت على القضاء مغالبا فأذاك تستمرى وأنفك تُرغم ٢٧٥/٢

ارتاحت النفس بتطهيرها وربها قاض بتدريسها ٤٢/٢

لم يقدر الله تهذيباً لعالمنا فلا ترومن للأقوام تهذيباً ١١٠/١

أوصيت نفسي، وعن ود نصحت لها فما أجابت إلى نصحي وإيصائي ٦٦/١

وكيف يقام في أمر مهم ليفعل والمقادر مقعدات ؟ ١٦٣/١

قضى الله فينا بالذي هو كائن قتم ، وضاعت حكمة الحكماء

وهل يأبق الإنسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسما ؟ ٦٣/١

وفي الفصول والغايات ، من هذه التأملات كثير ، ترى خلالها هزيمة العقل وفشل الجهد ، أمام سطوة الغريزة وسيف المقادير :

إني لأزجي إلى الخير نفساً كالعود الرازم . (١٠٤)

كم أذمرها حاضاً لها على فعل الخير وهي غير مصغية إلى طول الذمرات . (١١٦)

رب نطف (فاسد النية) يُعطف إلى الخير ، فلا ينعطف ، وكيف ، ولم يأذن خالقه بالانعطاف ؟ (١٩٠)

أريد الخير لا يجبني ، والغريزة عن الرشد تدبني . (٢١٦)

وأى أسباب الخير عقلت به ، وجدته على ذا النيات : (٢١٧)

هل يعصمني الاجتهاد ، وقد سبق حكمه أني من أهل الخسار ؟ أو يضرني التقصير وقد نفذ علمه أني في درجة الأبرار ؟

خلدي بالخطايا مملوء ، وأنا بها أبوء ، أحملها فلا أنوء ، وغير القدر هو المدروء ،

لا يبعد عني السوء . أ هم بالخير وأهوء ، والأقدار دونه معترضات . (١٤٩)

٢ — قوله بالاختيار

سمعت أبا العلاء يقول بالجبر ويبعد فيه ، ولكنك تمضى فى تتبع تأملاته فإذا هو لا يثبت عند القول بالجبر وإنما يناقض نفسه .

وأول ما يلفت النظر فى ذلك إلحاحه الغريب فى الوعظ والنصائح ، وهذا جنوح إلى الاعتراف بالاختيار والاجتهاد . وإلا فكيف يستقيم إلقاء النصيحة مع مغلوب على أمره جبل على الشر وأجبر عليه ؟ كيف يوصى بفعل الخير وتجنب الشر من يعلم أن الأمر رهن بمشيئة الله لا بإرادة العبد ؟ .

اللزوميات ، والفصول والغايات ، وملقى السبيل ، حافلة بالمواعظ والنصائح . وكثرتها تُشعرُك أن أبا العلاء كاد يحترف الوعظ .

واقراً ثبت كتبه فى ياقوت ، فسترى من بينها هذه الأسماء :

استغفر واستغفرى — فى الوعظ .

الأيك والغصون — فى العظات وذم الدنيا .

تاج الحرة — فى عظات النساء خاصة .

حماسة الراح — فى ذم الخمر .

دعاء الأيام السبعة .

دعاء ساعة .

سيف الخطبة ، فى الخطب والدعاء — وفيه خطب للجمع والعيدى والخسوف والاستسقاء .

عظات السور .

العظة والزهد .

سجع الخمايم فى الوعظ .

السجعات العشر — في الوعظ .

فقه الواعظ .

المواعظ الست : في خطاب رجل ، واثنين ، وجماعة ذكور ، وامرأة ، واثنين وجماعة إناث .

ملقى السبيل — في الوعظ .

هو إذاً واعظ يوصي الناس بعمل الخير واجتناب الشر ، ويدعو إلى صالح الأعمال ومكارم الأخلاق ، وهذا جنوح إلى الاعتراف بأن للإنسان قدرة على أن يفعل الخير ويتجنب الشر .

ب — وتراه إلى جانب إسرافه في الوعظ والدعوة إلى مكارم الأخلاق ، يسرف في لوم المذنبين ويقسو في تعنيفهم ، وهذا جنوح إلى الاختيار ، لأن المجبر على الشر والخطيئة معذور ، وأولى بنا أن نشفق عليه بدلاً من أن نقسو في لومه وتعنيفه .

قال في اللزوميات :

أرى الناس شرا من زمانٍ حوَّاهمُ فهل وُجِدت للعالمين حقائق ؟
فقد كذبوا عن ساعةٍ ودقيقة وما كذبتُ ساعاتهم والدقائق ١١٧/٢

فؤادك خفاقٌ ، وبرقك خافق وأعيالك في الدنيا خليلٌ موافق
تخير ، فإما وحدة مثل ميتة وإما جليس في الحياة منافق ١١٨/٢

هل يغسل الناس عن وجه الثرى مطرٌ فما بقوا ، لم يبارح وجهه دَنَسُ
والأرض ليس بمرجوٍ طهارتها إلا إذا زال عن آفاقها الأَنَسُ ! ١١٩/٢

أنسلَ إبليس أم حواء ويحكم هذا الأنام ، ففي أفعالهم دلس ؟
إن يؤمنوا لا يؤدوا ، أو يكن لهم عزٌ يضيئوا ، وإن أعيانهم اختلسوا ١٢٠/٢

إذا حضرت عندى الجماعة أوحشت فما وحدتى إلا صحيفة إيناسى
 طهارةً مثلى فى التباعد عنكم وقربكم يحنى همومى وإدناسى ٢٦/٢
 هذا رجل يضيق بالناس ، ويقسو فى لومهم وينكر ما يقتربون من آثام ، وكان
 جديرا به أن يعذرهم لأنه كرر — على صور شتى — أن المرء مغلوب على أمره ،
 يقترب الإثم مرغما ، وقد يحاول الخير فيصده عن ذلك قدر غالب ، وطبع قاهر .
 على أن أباء العلاء لا ينصح ويلوم فحسب ، وإنما يقول بالاختيار الصريح .
 قال فى اللزوميات :

فما أذنب الدهر الذى أنت لاثم ولكن بنوحواء جاروا وأذنبوا ٨٠/١
 تأبى أن تجيء الخير يوما وأنت ليوم غفرانٍ تبُّ ؟ ٨٨/١
 نقت على الدنيا ولا ذنب أسلفت إليك ، فأنت الظالم المتكذب ٨٠/١
 تقلدت المآثم باختيارٍ أو انسُ بالفريد مقلدات ١٦٣/١

وقال فى الفصول والغايات :

كفرت البرية وربها حلیم .
 (٢٨)
 مولانا ! أغيرنا فتغيرت لنا ؟ أم نزلت السخطة منك علينا ؟ بل نحن الجريمة
 المسيئون ، ما زلنا عبید سوء ولا زلت أكرم المالكين .
 (٥٠)
 لو هجر أبٌ لجنایة ولد ، لحرم العنب لجريرة المدام . وهل لها من ذنب ؟ إنما
 الذنب لعاصر الجون ، ومستخرجها وردية اللون ، وحابسها فى الدن ، ومنتظرها برهة
 من الدهر ، وشاربها ورد العطشان وتفوق الرضيع ، فاجتنبوا ما يذهب العقول ، فيها
 عُرف الصواب .
 (٤٠)

وأى ذنب للدنيا لديك ، إنما الذنوب كلها لك ! (٥٣)
 لتكن أفعالك لوجه الله ما استطعت ، وعزيز ذلك على سكان الأرض ، ولكن
 يوجد من وراء ذلك اجتهاد . (١٨٠)

٣ — تدرده واضطرابه

وقد يختلط الأمر على أبي العلاء فلا يقول بجبر ولا باختيار ، وإنما يقف حائراً ،
 لا إلى هذا ولا إلى ذاك ، يجمع بين النقيضين في وقت واحد ، ويتحدث بكلام
 مبهم لا تدرى مؤداه . ففي اللزوميات يقول :

فأوسعُ بنى حواء هجرًا فإنهم يسرون في نهج من الغدر لاحب
 إذا ما أشار العقلُ بالرشد جرَّهم إلى الغي طبعٌ أخذه غيرُ صاحب ١٣١/١

تخالفت الأشياءُ في عقب الردى وتلك بحار ليس يُدرك عبرُها
 وقيل نفوسُ الناسُ تسطيع فعلها وقال رجال بل تبين جبرُها ١٣١/١
 أرى شواهد جبرٍ لا أحققه كأن كلاً إلى ما ساء مجرور ٢٢٢/١

— كيف احتيالك والقضاء مدبر تجنى الأذى ، وتقول إنك مجبر ؟ ٢٢٧/١

وجدت الفتى يرمى سواء بدائه ويشكو إليك الظلم وهو ظلوم !
 فإن كان شيطانٌ له يستفزه فأيهما عند القياس تلوم ٢٢٣/٢

أرأيت كيف يوسع الناس لوما وقد جرهم طبعهم إلى الغي ؟
 أرأيت كيف يردد قول المجبرة وخصومهم ثم لا يلقي لنفسه رأياً ؟
 أرأيت كيف يعجب من احتيالك والقضاء مدبر ، ثم ينكر عليك أن تقول إنك مجبر ؟
 أرأيت كيف يعجب ممن يشكو الظلم وهو ظلوم ؟ ثم يسأل من الملموم إن كان
 شيطان له يستفزه للمعصية والظلم ؟ .

واسمع قوله في الفصول والغايات :

ليس للسان ذنب ، إنما الذنب محرك اللسان ، كفارس طعن برمح فقتل غير مستحق للقتل ، فالجاني الفارس . والرُمحُ غنى عن الاعتذار . . .

وإذا سعت القدم إلى قبيح ، فالجريمة لناقلها ، مثل رجل ركب فرساً فأخاف سبيلاً ، فاستوجب العقوبة الرجل دون الجواد ، وإذا خانت اليد فالباسطُ لها الخبُّ الخؤون . وإذا نظرتُ العين ، فتلك المصباحُ استعان بها السارق على اجتلاء بز وجهاز .
(٣١٧)

هو هنا ينفي الذنب عن الجوارح ويبرئها من المسؤولية ، ويلقى العبء على محرك اللسان ، وناقل القدم ، وباسط اليد ، والناظر بالعين .

فاسمعه يقول في مكان آخر من الفصول والغايات :

الخيانة جنسان : خيانة الضمير ، فتلك لا يشعر بها غير الله ، والخيانة الظاهرة على أقسام : خانت العين بنظر وإطلاع ، والأذن في إصغاء واستماع ، والقدم إذا نقلها إلى الإثم ساع ، وكل عضو أعانك على الخيانة فقد خان .
(٣٩٩)

أرأيت كيف يضيف الخيانة إلى الجوارح ، وفي مكان آخر قد نفاها عنها ؟ ولكي يبعد شبهة المجاز في الإسناد ، يختم الفصل بقوله : « وكل عضو أعانك على الخيانة فقد خان » .

٤ — ما موقف الرجل :

ذهب الأستاذ الدكتور طه حسين بك في (ذكرى أبي العلاء) إلى أنه كان (١) جبرياً إلى أبعد حدود الجبر .

(١) تجديد ذكرى أبي العلاء للأستاذ الدكتور طه حسين بك ص ٢٨٢

ولكنه عاد ، فلاحظ تردد الشيخ وعدم ثباته على القول بالجبر الخالص ، فرأى الدكتور أنه كان يذهب إلى ما سماه (الجبر الملطّف) . وقد فصله في كتابه (مع أبي العلاء في سجنه) . أورد قول أبي العلاء في الفصول والغايات : « ألا ترى الحجر الموضوع ، مربّه العاثر فأدعى الإيهام ؟ ولا ذنب للحجر ، لكن للواضع والعاثرين : » وعلق الأستاذ على ذلك بقوله : « والمثل ^(١) الذي ضربه أبو العلاء في هذا الفصل لا يخلو من دلالة ، فهذا عاثر قد عثر بحجر في طريقه فدميت أصبعه ، فأيهما المسئول عن هذا الشر ؟ ليس هو الحجر من غير شك ، ولكنه واضع الحجر في موضعه ، هذا الذي جعله عرضة لأن يؤذى من قد يمر فيعثر به . والعاثر نفسه ، لأنه لم يتبين موضع قدمه . وما ينبغي أن تقف عند المعنى القريب لهذه الجملة من حديث أبي العلاء ، فأبو العلاء أذكى وأعمق فلسفة من أن يقف عند هذا المعنى في تفكيره ، فكن أنت من الذكاء ونفذ البصيرة بحيث تستطيع أن تسمو معه إلى ما أراد . وأكبر الظن أن هذه الصورة المادية رمز لصور معنوية كثيرة ، فما يكون من شر إنما ينحل في حقيقة الأمر إلى نوعين من أنواع التبعة : أحدهما تبعة الذي هيأ أسباب هذا الشر وجعلها في مواضعها من حياة الناس ، بحيث يعثرون بها ويتورطون فيها ، فلو لم تنهياً هذه الأسباب لما عثر الناس ولا تورطوا . والنوع الثاني تبعة الناس الذين يرون أسباب الشر فلا يتجنبونها ولا يعدلون بأنفسهم عنها وأيسر ما يستخلص من تحقيق هاتين التبعتين أن الإنسان ليس مسئلاً كل السؤال عن سيئاته ، لأنه لم يبتكر أسبابها ، ولم يخلق دواعيها ، ولم ينصب أشواكها في طريقه . ولكنه في الوقت نفسه ليس معفى كل الإعفاء ، لأن له عقلاً يهديه في هذا الطريق ويده على مواضع هذه الأشواك . فمن الحق عليه أن يهتدى وهو ملوم إذا لم يفعل .

(١) مع أبي العلاء في سجنه للأستاذ الدكتور طه حسين بك ص ٢١٨

« وإذا فهو الجبر الملطف — إن صح هذا التعبير — الجبر الذي يعذر الإنسان بعض العذر، ولكنه لا يعفيه من التبعات كلها. الجبر الذي يبيح لأبي العلاء أن يلوم الناس على آثامهم ويأمرهم بالخير، ويفرض عليه أن يحتاط لنفسه فيصطنع الخير ما وجد إلى ذلك سبيلا. وهذا الرأي من آراء أبي العلاء شائع في اللزوميات شيوعا شديدا على تفاوت في ذلك، فهو مرة يسرف في الجبر، ومرة يقتصد فيه. »

هذا رأى يصدق على الحياة العملية لأبي العلاء، فقد أراد لنفسه أشياء وأريدت له أشياء، أراد لنفسه العزلة والزهد والتقوى، ولكنه قد أريد على أن يفضل هذه الحياة، حين ألحت عليه المحن وأكرهته الظروف على أن يسيء الظن بالدينا وبالناس فاعتزلهم طائعا مختارا.

وكنا نود لو أن هذا الرأي يسلم لأبي العلاء في تأملاته، لأنه يجلو موقفه. ولكننا نلاحظ :

١ — أن هذا الجبر الملطف — على فرض أنه قسم ثالث — لا يسلم لأبي العلاء، ذلك لأن الرجل لا يقول بالجبر الملطف وحده، ولا يثبت عند هذا الموقف المتوسط متردداً بين الجبر والاختيار، وإنما يقول بالجبر المشدد مرة، وبالاختيار المؤكد أخرى، وقد يتوقف في الأمر فلا يقول بجبر ولا باختيار، ولا بجبر ملطف، وإنما يقف حائرا، يردد في القول، فيجمع بين التقيضين، ويقول بالرأى ثم يعود فينقضه.

عندنا أن أبا العلاء متناقض في مسألة الجبر والاختيار، فلسنا نعرف له رأيا بعينه ثبت عليه، وإنما نراه يبعد في الجبر حيناً، حتى ليصور الإنسان مجبولا على الشر مغلوبا على أمره، يحاول الخير فتقعه قوى قاهرة غالبة لا سبيل له إلى مقاومتها.

ويجئ إلى الاختيار حيناً، فيقول بالاجتهاد، ويدعو إلى صالح الأعمال، ويقسو في لوم الناس ويضيق بآثامهم، وينفي الذنوب عن الدنيا والقدر، ليثقل بها كاهل الإنسان.

ويتوسط متردداً بينهما حيناً ثالثاً كما رأينا في قصة الحجر والعاثر .
وقد يتوقف في الأمر فلا يقول بجبر خالص ، ولا باختيار خالص ، ولا بجبر متوسط
ملطف ، بل يقف حائراً متردداً .
هو إذاً متناقض لم يثبت عند رأى بعينه ، فليس من الصواب أن نقول إنه
جبرى ، أو اختياري ، أو متوسط ، أو متردد ؛ لأنه قال هذه جميعاً فاختلط أمره ،
وتناقضت أقواله .

الثواب والعقاب :

وقد اختلف قول أبي العلاء في الثواب والعقاب ، تبعاً لاختلافه في الجبر والاختيار .
يقول بالجبر ، فيحار في الثواب والعقاب . لم يُثاب مجبور على الخير مساق إليه ؟
وكيف يعاقب مجبور على الشر مُكره عليه ، لم يسع إليه ولم يرغب فيه ؟
إن كان من قتل المحارب مجبراً يسطى عليه ، فأين يُبغى الشار ؟ لز ٣٣٤/١
لا تحمدن ولا تذمنن امرأة فينا ، فغير مقصرٍ كمقصر ٣٩٨/١
فإن كان شيطانٌ له يستفزه فأيهما عند القياس تلوم ؟ ٢٦٣/٢
ويقول بالاختيار ، فيعوزه الاطمئنان إلى هذا القول ، ولكنه مع قلقه يفرع من
العقاب ويجنح إلى تقرير المسؤولية .

قال في الفصول والغايات :

إني سألك (يا رب) هل أبقت السيئات عندك موضعاً للحسنات ؟ (١٣٨)
اسودَّ عملك فما حزنت ، وحزنتك بيضُ الشعرات . (٩٤)
وأنت ترى حيرته واضحة في ترده بين الأمل في المغفرة والفرج من العقاب .

هو حين يجنح إلى الجبر ، يأمل في المغفرة مهما اقترف من الذنوب والآثام ، لأن عقاب الجبر على ما أريد له من سيئات ، ظلم بين .

قال في الزوميات :

قالت معاشرُ ، كلُّ عاجزٍ ضرع ما للخلائق ، لا ببطء ولا سرعة
مدبرون فلا عتب إذا خطئوا على المسيء ، ولا حمدٌ إذا برعوا
وقد وجدتُ لهذا القول في زمني شواهداً ، ونهاني دونه الورعُ ٧٩/٢

ليفعل الدهرُ ما يهيم به إن ظنوني بخالقي حسنه
لا تياس النفسُ من تفضله ولو أقامت في النار ألف سنه ٣٥٨/٢
أأخشى عذابَ الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام المعذب؟ ١٢٠/١

وقال في الفصول والغايات :

ما أحسنتُ فأطلب الجزاء ، لكني أسأتُ فمرادى الغفران . ومن لى بالوقفة بين
المنزلتين لا أكرم ولا أهان ؟ ١٧٣

لا آيس من رحمة الله ولو نظمت ذنوباً مثل الجبال سوداً ، كأنهن بنات حمير ،
(ابن حمير هو الليل المظلم) . ووضعتن في عنقي الضعيفه كما ينظم صغار اللؤلؤ فيما طال
من العقود . ولو بنيت بيتاً من الجرائم أسود كبيت الشعر ، يلحق بأعنان السماء ،
وتمتد أطنايه في السهل والجبل ، كامتداد جبال الشمس ، لهدمه عفو الله ١٧٩ - ١٨

وأسألك (يارب) عصمة من الذنوب ، فإن لم أكن أهلاً للعصمة ، فلتكن
جرائمي معك لا مع عبادك ، فإنك الحليم الكريم ، وإنا معشر الإنس فينا سوء ظفر
وقلة احتمال . ١٧٣

وقد عرض أبو العلاء مسألة المغفرة في (رسالة الغفران) عند ما ذكر قصة التوبة .

فهو يمضى بصاحبه ابن القارح فى الجنة يسأل بعض الشعراء بم غفر الله لهم ، فإذا المغفرة قريبة . بيت من الشعر ، كاف لأن يعفى الآثم العاصى من لفح جهنم ويمضى به إلى نعيم الجنة .

اسمعه يتحدث على لسان ابن القارح ، ويعرض قصة عبيد : «^(١) ثم ينصرف (ابن القارح) إلى عبيد ، فإذا هو قد أعطى بقاء التأييد . فيقول : السلام عليك يا أخا بنى أسد . فيقول : وعليك السلام — وأهل الجنة أذكىاء — لعلك تريد أن تسألنى بم غفر لى ؟ » فيقول : أجل ، وإن فى ذلك لعجبا . فيقول عبيد : إني دخلت الهاوية وكنت قلت فى أيام الحياة :

من يسأل الناس يجرموه وسائل الله لا يخيب

وسار هذا البيت فى آفاق البلاد ، فلم يزل ينشد ويخف عنى العذاب ، حتى أطلقت من القيود والأصفاد . ثم كرر إلى أن شملتني الرحمة ببركة هذا البيت . وإن ربنا لغفور رحيم » . قال أبو العلاء : « فإذا سمع الشيخ ما قال هذان الرجلان (زهير وعبيد) طمع فى سلامة كثير من أصناف الشعراء » .

ويمضى بصاحبه « فإذا^(٢) هو بيت فى أقصى الجنة كأنه حفش أمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة . وعنده شجرة قيئة (حقيرة) ثمرها ليس بزك . فيقول : يا عبد الله لقد رضيت بحقير .

فيقول : والله ما وصلت إليه إلا بعد هياط ومياط (أشد السَّوق فى الورد والصدر) وعرق من شقاء ، وشفاعة من قریش وددت أنها لم تكن . . . فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا الخطيئة العبسى ، فيقول : بم وصلت إلى الشفاعة ؟ فيقول : بالصدق فى قولى :

(١) رسالة الغفران (طبعة هندية) ص ٢٣

(٢) المصدر نفسه ص ٨٣

أبت شفتاي اليوم إلا تكلماً بهجر فلا أدري لمن أنا قائله !
أرى لي وجهاً قبح الله خلقه قبح من وجهه وقبح حامله !
فيقول : ما بال قولك :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس
لم يُغفر لك به ؟ فيقول : سبقني إلى معناه الصالحون ، ونظمته ولم أعمل به ،
فحُرمَت الأجر عليه . »

على هذا النحو ، يمضي أبو العلاء في تصوير التوبة والمغفرة فيظهر لك الغفران
أمراً هيناً قريب المنال .

لكنه لا يمضي على هذه الفكاهة المرة ، فرسالة الغفران لا تخلو من جد صارم
حزين ، تحسه حين ترى أبا العلاء يمضي بصاحبه (ابن القارح) إلى شعراء آخرين
لم يغفر لهم « فهم حطب لجهم ، كلامهم ويل وعويل ، يغمض أحدهم عينيه حتى
لا ينظر إلى ما نزل به من العذاب ، فيفتحهما الزبانية بكلايب من نار » . يتأملهم
أبو العلاء حزينا متألماً ثم يصيح على لسان أحدهم (أوس بن حجر) وقد سئل عن
أبيات رُويت له وللنابغة « قد^(١) بلغني أن نابغة بني ذبيان في الجنة ، فأسأله عما
بدا لك . فعله يخبرك ، فإنه أجدر أن يعي هذه الأشياء . فأما أنا فقد ذهلت :
نار توقد ، وبنان يعقد ، إذا غلب على الظمأ رفع إلى شيء كالنهر ، فإذا اغترفت
منه لأشرب ، وجدته سعيراً مضطرباً . ولقد دخل الجنة من هو شر مني ، ولكن
المغفرة أرزاق ! كأنها النسب في الدار العاجلة ! » .

هذا الجد الصارم تحسه كذلك من أبي العلاء في اللزوميات والفصول والغايات .
تراه يبعد في تأمله — حين يقوى جنوحه إلى الجبر ، فيدركه العجب والحزن ،
ويصيح في ألم يشبه أن يكون اعتراضاً .

لِمَنْ تَوَاضَعُ بِالْجُرْئِيَّةِ الَّتِي سَلَفَتْ ۚ وَمَا تَحْرُكُ حَتَّى حُرْكُ الْجُرْسِ ١٢/٢
 مَهْجَتِي ضَعْفٌ يَحَابُنِي أَنَا مَنِ كَيْفَ أَحْتَرَسُ ؟ ١٠/٢
 مَنْ وَسَخَ صَاغَ الْفَتَى رَبِّهِ فَلَا يَقْـلُـ ۚ وَلَنْ تَوْسَخْتَ ١٧٣/١
 وَمَا فَسَدْتَ أَخْلَاقَنَا بِاخْتِيَارِنَا ۚ وَلَكِنْ بِأَمْرِ سَبَبْتِهِ الْمُقَادِرِ ٣١١/١
 نَحْنُ شَتْنَا فَلَمْ يَكُنْ مَا أَرَدْنَا ۚ وَتَمَّتْ لِلَّهِ فِينَا الْمَشِيئَةُ ٤٣٣/١
 وَقَالَ فِي الْفُصُولِ وَالْغَايَاتِ :

وَبُئْسَ الرَّبُّ رَبُّ لَا يَعْذِرُ ، إِنْ غَفَلَ قَاتٍ (خَادِمٌ) فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ . (٣٠٤)
 أَبُو الْعَلَاءِ — كَمَا رَأَيْنَا — طَامِعٌ فِي عَفْوِ اللَّهِ مَهْمَا كَانَتْ الذُّنُوبُ وَالْآثَامُ . يَرَى
 الْمَغْفِرَةَ قَرِيبَةً وَيَنْكُرُ الْمَسْئُولِيَّةَ وَالْعِقَابَ ، مَا دَامَتْ أَخْلَاقُنَا لَمْ تَفْسُدْ بِاخْتِيَارِنَا .
 وَلَكِنَّهُ لَا يَطْمَئِنُّ إِلَى هَذَا ، لِأَنَّهُ كَمَا قَدَمْنَا لَا يَثْبُتُ عَلَى الْقَوْلِ بِالْجُبْرِ — بَلْ تَدْرِكُهُ
 لَوْثَةُ الشَّكِّ فَيَرْتَابُ ، وَيَصِيحُ فِي فِزَعِ رَهَيْبٍ :

وَرَاعَنِي لِلْحِسَابِ ذِكْرٌ ۚ وَغَرَنِي أَنَّهُ بَعِيدٌ لَزًا ٢٥٩/١
 ذَكَرْتَنِي عَقُوبَةً مِنْ إِلَهِي ۚ فَاسْتَطِيرُ الْفَوَادَ لِلتَّذْكِيرِ ٤١٨/١
 وَالرَّمْلُ يُشَبِّهُ فِي أَعْدَادِهِ خَطِيئِي ۚ فَمَا أَهْمُ لَهُ يَوْمًا بِإِحْصَاءِ ٦٦/١
 فَهَلْ عَايَنُوا فِي مَضْجَعِي الْجَرَائِمِ ۚ كِتَابٌ مِنْ زَنْجٍ ، تَرُوحُ ، وَنُوبِ
 وَهَلْ يَجْعَلُ الْأَرْضَ الَّتِي أَيْبُضَ لَوْنُهَا ۚ كَلَوْنَ الْحَرَارِ الْحُمْسِ ، لَوْنُ ذُنُوبِي ١٢٨/١
 نَرْجُو السَّلَامَةَ فِي الْعَقَبِ وَمَا حَسَنَتْ ۚ أَعْمَالُنَا فَيَرْجِي الْفَوْزُ وَالْغَرْفُ !
 مَا بَانَ قَوْمٌ عَنِ الْأُولَى بِمَا جَمَعُوا ۚ مِنْ الْخَطَامِ ، وَلَكِنْ بِالذِّي اقْتَرَفُوا ٩٢/٢
 إِنِّي حَيٌّ رَانَ ذَنْبِي عَلَى ۚ قَلْبِي ، فَمَا أَنْفُكَ حَيْرَانًا ٣٥٧/٢
 (١٠)

وقال في الفصول والغايات :

لقد خفت النعمة من رب العظمة .

واجعل خوف الله نصب فكرك ، والموت غير خال من ذكرك ، اسود عملك فما
حزنت ، وحزنتك بيض الشعرات . (٩٤)

ما أضيق على دنيائى ! أخطأت خطأ لا أقول معه دراك ، والمتخلف مظنة من
فوت الصحاب . (٥٣)

لا يخلو اليوم من اقتراف . إما ظاهر وإما خاف ، فالواجب أن أظل كناقف
الحنظل أو الباكي عند السمرات . (١٣٠)

وإني سائلك : هل أبقت السيئات عندك موضعاً للحسنات ؟ (١٣٨)

غفران إلهنا مأمول ، ولكنك أيتها الحشاشة فرطت فأوبقت ، حتى خلفت
وسبقت ، فانظري هل من متاب ؟ (٤٦)

هل من راق لذى إوراق بات شاكياً ، من الخيفة باكياً ، يسأل ربه غفران
الكبائر . والله القابل توبة التائبين . (١٣٩)

ويبعد أبو العلاء فيضيف إلى الجماد والنبات ، الخوف من العقاب ، ويقول بإمكان
العقاب معها . قال في الفصول والغايات :

نكزت القلب من خوفك ، فما سقى بياض بسويد ، وكأن بعض الشجر عصاك
فحمل ، فلما قارب الكمال أو كمل ، أرسلت سحابة ذا عمد حمر ينفض على الثمر ، حصي
من حمد لقد بات بحبيرة شر من حاب . (٥١)

هكذا تردد أبو العلاء بين الأمل في المغفرة ، والخوف من العقاب ، وكان تردده كما
رأيت صدى لاضطرابه في أمر الجبر والاختيار .

عمل الله

بقي أن نسمع قول أبي العلاء في عدل الله . ولو أن أبا العلاء اطمأن إلى الاختيار كما فعل المعتزلة ، لأراح نفسه من العناء ، كما أراحوا أنفسهم وسلم لهم مبدؤهم في عدل الله .

ولكن أبا العلاء صرح بالجبر وأسرف فيه ، والقول بالجبر ، مع الاعتراف بالثواب والعقاب ، يبدو منافياً لعدل الله .

إن كان من فعل الجرائم مجبراً فعقابه ظلمٌ على ما يفعل
والله إذ خلق المعادن عالمٌ أن الحداد البيض منها تجعل
سَفَكِ الدماء بها رجالٌ أعصموا بالخليل تلجم بالحديد وتُنعل لـ ٨١/٢

فإن كان شيطان له يستغفره فأيهما عند القياس تلوم ؟ ٢٦٣/٢

وما كان المهيمن وهو عدل ليقتصر حيلتي ويطيل لومي ٣١٢/٢
إنما نذكر هنا أن أبا العلاء لم يطمئن إلى الجبر الاطمئنان الكافي ، وأياً كان رأيه واضطرابه في الجبر والاختيار ، وتردده بين الأمل في المغفرة والخوف من العقاب ، فإن الرجل ثبت عند التسليم لله والقول بعدله ، وتنزيهه تعالى عن الظلم والخطأ والنقصان رافضاً أن يقيس أفعاله تعالى بأحكامنا ، فهو تعالى لا يسأل عما يفعل .

لا ريب أن الله حق فلتعد باللوم أنفسكم على مراتبها لـ ١٤١/١
وقال في الفصول والغايات :

أعدل بالحاكم على خلقه بالمنية ، يحيدون من خطب إلى سواء . (١٦٩)

جل القادر عن ارتياب . (٣٨)

لا ريب في أن الله حكيم . (٤٨)

قطان لك (يا رب) ومعد . وجرى بقدرك النحس والسعد ، وصدق منك الوعد ،
لا تظلم أحداً ولا تعد ، كنت من قبل وتكون من بعد ، لا تفتقر في عزك إلى
الخلفاء . (٣٠)

والرب يستجار ، ولا يخرج مما يقضيه الحمد ولا الحيوان ، ولا يفعل إلا ما رضى
وشاء ، وغير متعلق به الزيف والخطأ ولا شيء من الدنيات . (٣١)

وأبو العلاء مخلص في هذا التمجيد ، لا يصدر فيه عن تقية أو تقليد ، وإنما كان
يؤمن بأن الله خالق حاكم « لا يرد عليه عجب والحكم له » . لا تجوز عليه أحكامنا ،
ولا يفعل إلا ما رضى وشاء ، لا حجة لمخلوق عليه ، « وله الحجة على كل مخلوق » .
الفصول . (٣٠)

المرحلة الثالثة

من مراحل الحياة الإنسانية

الموت ومصير الإنسان

- ١ - سوء ظن أبي العلاء بالدنيا ورغبته في التخلص من محنة الحياة .
- ٢ - فزعه الرهيب من الموت وتشبثه بالحياة .
- ٣ - أسباب فزعه من الموت
أ - لم يبرأ من حب الدنيا ؟
ب - الجهل والخوف مما وراء الموت .
ج - الموت هو المأساة الإنسانية الكبرى .

آن لنا أن نترك تلك الأبحاث العقلية ، بما تثير من مشكلات أتعبت أبا العلاء وأتعبتنا معه ، نتركها لنخلص إلى أبي العلاء وحده ، وننفذ إلى أعماق نفسه ، فنرى كم أحب الحياة ، وكم تشبث بها ، وكم تعب منها . وسنطيل الوقوف معه عند اللحظة الحاسمة التي ينطفئ فيها سراج العمر وتنتهي الحياة ، فقد أطل صاحبنا الوقوف عندها وتمثلها تمثلاً ملحاً ، وأحسها إحساساً قوياً .

سنرى أبا العلاء هنا في صراع رهيب بين حب الدنيا ومقتها ، بين الفزع من الموت والترحيب به . سنرى نفسه ميداناً لألوان من العواطف : عنيفة ، متناقضة ، تتجاذبه وتنهكه وتعييه ، وهو منطوٍ على نفسه ، معتكف في دنياء ، يرصد هذه العواطف الجياشة المضطربة ، ويشهد هذا الصراع ويعانى أهواله .

سوء ظنه بالدينيا ورغبته في التخلص من محنة الحياة

كيف واجه أبو العلاء مأساة الموت؟

شاع في الناس أن أبا العلاء زاهد في الدنيا منصرف عنها، راغب في الموت متقرب له. ومن الحق أن الرجل قد أسرف في ذم الدنيا ورأى الحياة كلها تعباً، والتنازل جريمة والوجود شراً. وقد ألح في تنفير الناس من الدنيا وتذكيرهم بشروورها ومتاعها وغدرها. وحشهم على الصدود عنها والزهد فيها. وكان إحساسه بمتاعب الحياة وضيقه بالدينيا مبكراً. ففي سقط الزند أبيات متشائمة قال بعضها في عهد مبكر (انظر مرثيته^(١) لأبيه)

ذمه للدينيا

قال أبو العلاء في سقط الزند:

تجربة الدينيا وأفعالها حشت أخا الزهد على زهده ٤/٢
ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد ٢١١/١
تعب كلها الحياة فما أعـ جب إلا من راغب في ازدياد
إن حزناً في ساعة الموت أضعا ف سرور في ساعة الميلاد ٢١٠/١
على أم دفر غضبة الله إنها لأجدر أن تخون وأن تخنى ١٩٤/١

وقال في اللزوميات:

فلا تطلب الدنيا وإن كنت ناشئاً فإني عنها بالأخلاء أربأ
وما نوب الأيام إلا كتائب تبث سرايا أو جيوش تعباً ٤٨/١

(١) شرح التنوير على سقط الزند ج ١ ص ١٩٥

خسئت يا أمنا الدنيا فآف لنا بنو الخبيسة ، أوباش أخساء
 موج بحرك والأهواء غالبة لراكبيه فهل للسفن إرساء ٥٤/١
 وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء ٦٣/١
 قضى الله أن الآدمي معذب إلى أن يقول العالمون به قضى
 فنهى ولاية الميت يوم رحيله أصابوا تراثاً ، واستراح الذي مضى ٦٩/٢
 لا تلبس الدنيا فإن لباسها سقم وعرّ الجسم من أثوابها ١٤٢/١
 دنياك دار إن يكن شهادها عقلاء ، لا ييكوا على غيابها
 ما الظافرون بعزها ويسارها إلا قريبو الحال من خيابها ١٤٣/١
 رغبتنا في الحياة لفرط جهل وفقد حياتنا حظّ رغب ٩٣/١
 يؤمل كل أن يعيش وإنما تمارس أهوال الزمان إذا عشتا ١٧٥/١
 يخوفنا أهوال ما هو كائن ويكفيه من أهواله ما تمارس ٩/٢

وقال في الفصول والغايات :

الدنيا دار حسرات (١٠٥) ودار شقاء (١٦٠) وهي زائلة زوال الظلال (١٧٦)
 والدهر يلعب بنا حالا بعد حال . (٢٩١)

والدنيا غير وافية ، ليست الحياة فيها بصافية ، إن الكدر لكأس العيش مزاج . (٢٩٥)
 غفرانك اللهم ! عرفت الدنيا لو نفعت المعرفة ، وعلمت أنها أخون من الورقاء ،
 وشر العلم علم لا ينتفع به . (٣٣١)

ولو كنت مؤدياً لها لثقل على أمرها (٣٥٨)

الدنيا حية عرماء ، لمعة بيضاء ولمعة دهماء ، والأيام عوارم لا تترك لحي عراماً (٤٤٢)
 ما البقاء إلا طول شقاء ، والحياة ظلمة ليس فيها إياة ، ومن السعادة أن يموت
 القوم كراماً . (٤٤٣)

إحساسه بمتاعب الشيخوخة

وكان أبو العلاء — فوق إحساسه بمتاعب الحياة — يحس متاعب الشيخوخة
 ويصورها تصويراً شعرياً فيقول في اللزوميات :

إذا ما أسن الشيخ أقصاه أهله وجار عليه النجل والعبد والعرس
 وأكثر قولاً ، والصواب مثله ، على فضله ، ألا يحس له جرس ٣/٢
 لاخير للفم في بسط الحياة له حتى تساقط أنياب وأضراس ١٧/٢

وقال في الفصول والغايات :

يرتع الحى ويبتقل ، ويعنق في حياته ويرقل ، حتى إذا الأيام تصرمت ، وحقب
 مدته تجرمت ، وجاء الوقت ، وقع من أهله المقت . (٦)
 وليس للهزم من مكرم . (١١٤)

من هلك وهو شاب ، ما شمط ولا شاب ، فإنه لوهرم لم ولهرم . والكبر بئس
 المسير : ملأ الأنف ، وأخلى الأذن من الشنف ، وجعل بيض الثنايا سودا ، وأما كنها
 وهوذا . (١٤٤)

أهل البيت بالوليد فرحون ، وهم بالشيخ متبرمون : كلام هذا يستظرف ، وكلام
 ذاك خرف . (٢٦٧)

وإذا فنى صباك فلا جنوبك تحمد ولا صباك . (٣٠٣)

فيا حالية إنك ولدت عاطلة سلتاء . وأشرك إن عمرت درد . ونعمة

جسمك تحدد ، ورياً فيك إلى ما تعلمين يتبرم بك ولدك فبئس ما جازاك ،
لقد حملت فوضعت ، وغذوت وأرضعت ، وسهرت لأجله والناس نيام ، وآثرته على
نفسك في أشياء كثيرة فما حفظك ولا رعاك .

أتمل ثوبٌ فنبذ — وهرم عود فترك بالمراح . (٣٨)

سرك بقاء أهلك ! لو سلمت الحواس لحمد البقاء الناس ، ولكن الموت أجملُ
بدلف مفندين ، ونهابل من الكبر مهترات . (١٠٤)

ضيقه بمأساته ورغبة في التخلص من محنة الحياة :

هذه نظرة أبي العلاء إلى الدنيا ، وهذا تصويره لما وراء البقاء فيها من متاعب
وشيوخوخة . فأما نظره إلى عالمه الخاص وحياته المستقلة ، فقد سمعته في المقالة الثالثة^(١)
يحدثك عن إحساسه المر بمتاعبه وضيقه بمأساته ، وعرفت خطأ الذين زعموا أنه راض
نفسه على الصبر والرضا والاستسلام .

تمثل هذا الرجل المتشائم المتعب يواجه مأساة الموت ، ألا تنتظر منه أن يهش له
ويرحب به ويسعى إليه ويرغب فيه ؟ أجل . . . وقد فعل أبو العلاء . تمناه واشتهاه
وسعى إليه ، ورأى فيه البرء من السقام ، والمهرب من المحنة ، والراحة من التعب .

قال في سقط الزند :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

ضجعة الموت رقدة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد ٢١١/١

وقال في اللزوميات :

رب متى أرحل عن هذه الدنيا فإني قد أطلت المقام

(١) يرى لي أستاذي الجليل أمين الحولي ، أن أجمع تأملات أبي العلاء الخاصة بمأساته ، لتكون
موضعا لتناول في نفسي ، قد يفسر كثيراً من عقد نفسه ، بل يفسر كثيراً من تأملاته . وأرجو أن
أفعل ذلك إن شاء الله .

لم أدر ما نجمي ولكنه في النحس مذ كان، جرى واستقام
فلا صديقي يترجى يدي ولا عدوى يتخشى انتقام
والعيش سقم للفتى منصب والموت يأتي بشفاء السقام ٢٢٤/٢

إذا لم يكن خلفي كبير يضيعه حمائي ، ولا طفل ، فقيم حياتي ؟ ١٨٢/١

إن يرحل الناس ولم أرتحل فعن قضاء لم يُفوض إليّ
خُلِّتُ من بعد رجال مضوا وذاك شرٌّ لي ، وشر عليّ ٤٣٧/٢

موتٌ يسيرٌ ، معه رحمة خير من اليسر وطول البقاء
وقد بلونا العيش أطواره فما وجدنا فيه غير الشقاء ٦٨/١

كأسُ المنية أولى بي وأروح لي من أن أكابد إثراء وإحواجا ١١٢/١

وما العيش إلا علة برؤها الردى فخل سبيلي ، أنصرف لحياتي ! ١٨٢/١
متى ينقضى الوقت والله قادر فنسكن في هذا التراب ونهدأ ؟ ٤٨/١

أيفكني هـذا الحمام تفضلا فالعيش أوثقني وشد رباطاً ٧٠/٢

دعا لي بالحياة أخو وداد رويديك ، إنما تدعو عليّ
وما كان البقاء لي اختياراً لو أن الأمر مردود إليّ ٤٣٠/٢

إذا غدوبٌ بطن الأرض مضطجعاً قتم أفقد أوصابي وأمراضى ٦١/٢

إذا طُفِئَتْ في الثرى أعينٌ فقد أمنت من عمي أو رمد ٣٠٢/١

وقال في الفصول والغايات :

أرتفع والقدر يكبني كم أستنسر وأنا من البغاث ! ٢١٦

لا أعتدل أبداً ولا أستقيم ، مغبون في الدنيا غيبين . (٣٧٠)
 كم بت وظلت ، فقد سئمت الحياة ومللت . كم أبليت من المرض فما بليت (٢٨٥)
 مولاي ! قد سئمت هذه الدار وأنا فيها بخير ، فانقلني باختيارك إلى حيث تشاء ..
 وتخير العبد على مولاه شقاق . (٣٤٨)

واسمع أبا العلاء يردد زعم القائلين بالتناسخ فيرثي لشبيهه مما يكابد :
 وما أعود إلى الدنيا وقد زعموا أن الزمان بمثلي سوف يحكي
 وارحمنا لشبيهي في حوادثه ينكيه ما كان في الأيام ينكيني لز ٣٧٤/٢
 ولعل الكثيرين لا يعرفون أن أبا العلاء قد حاول بالفعل أن يفر من الحياة ليضع
 حداً لما يكابده فيها من أهوال ثقال . ولكن كيف الفرار ؟ ودّ لو باعه أحد بحياته ميتة
 سرحا ، واستنزل لعنة الله على من ندم :
 من باعني بحياتي ميتة سرحا بايعته ، وأهان الله من ندما لز ٢٨٧/٢
 ولكن أحداً لم يملك أن يعقد له هذه الصفقة ، فالتمس المسكين مخرجاً بالانتحار ،
 وهمّ به فعلاً ثم عاقه الخوف والجهل بما وراء الموت .
 وقد حدثنا عن هذه المحاولة في ثلاثة كتب له وصلت إلينا : في اللزوميات ،
 وفي الفصول والغايات ، وفي رسالة الغفران .

قال في اللزوميات :

لولم تكن طرق هذا الموت موحشة مخشية ، لا عتراها القوم أفواجاً
 وكان من ألفت الدنيا عليه أذى يؤمها ، تاركا للعيش أمواجاً
 كأس المنية أولى بي وأروح لي من أن أعالج إثراء وإحواجا ٢١٢/١

ولعل قائلًا يقول إن هذه الأبيات ليست صريحة الدلالة على أنه هم بالانتحار ،

فلا يبعد أنها خاطرة ألت به . ولكن لدينا ما هو صريح الدلالة على أنه همّ بالأمر ،
لدينا قوله في رسالة الغفران :

« قد كدتُ ألحق برهط العدم من غير الأسف ولا الندم ، ولكننا أرهب قدومي
على الجبار ، ولم أصلح نخلى بإبار . »

٢٠٢/١

وقوله في الفصول والغايات : « لو أمنت التبعة ، لجاز أن أمسك عن الطعام
والشراب ، حتى أخلص من ضنك الحياة ، ولكن أرهب غوائل السبيل ! » (٦٢٠)

إلى هنا نرى الرجل واضحاً مفهوماً : متعب متشائم يأس ، ضاق بمحنه ، وضاق
بشرور الدنيا ، فاشتفى الموت وتمناه .

وهذه الصورة التي عرضناها لأبي العلاء تلائم رأى الناس فيه وفكرتهم عنه .
ولكننا نعرض عليك بعد هذا ، صورة أخرى لأبي العلاء .

٢

صورة أخرى لأبي العلاء

فزع الرهيب من الموت — وتشبته بالحياة

رأينا أبا العلاء في المقالة السابقة ، يسرف في ذم الدنيا إسرافاً لا حد له ويلعنها في
قسوة وإلحاح . رأيناه يئن من هول ما يكابد من متاعبه الخاصة ، ويفزع إلى الموت
يلتمس فيه الخلاص والمهرب .

والآن نزيح الستار عن جانب آخر من نفس أبي ، العلاء فإذا هو يبدو في صورة
أخرى مختلفة كل الاختلاف عما رأيت وسمعت .

فزع من الموت :

هذا الرجل المتعب الشاكي المتشائم ، يفزع من الموت فزعا رهيبا ، ويتمثله تمثلا
عنيفا ملحا لا ينفك عنه .

فلنصغ الآن إلى هذه النعمة الجديدة ، تصدر عن ذلك الإنسان المضطرب الحائر .
ولنرقبه وهو يعاني صراعه العنيف ، وعواطفه المتناقضة ، وإنا لواجدون إن شاء الله
ما يفسر اضطراب الرجل وتناقض عواطفه وأقواله .

الموت يقين — يقين لا شك فيه ، وحق لا ريب فيه ولا مماراة . بهذا كان يؤمن
أبو العلاء . قال في اللزوميات :

سنبتع آثار الذين تحملوا على ساقية من أعبد وإماء
نهاب أمورا ، ثم تركب هولها على عنت ، من صاغرين قماء ٦٤/١

وما نفس إلا يباعد مولدا ويدنى المنايا للنفس فتقرب ٨٣/١

وللموت كأس تكره النفس شربها ولا بد يوما أن يكون لها شربا ١٠٠/١

مضى أناس وأصبحنا على ثقة أنا سنبتع ، فالأشجان تعتلج
إن أدلجوا وتخلفنا وراءهم شيئا يسيرا ، فإننا سوف ندلج ٢٠٧/١

جميع الذي نحن فيه النفاق ونلحق بالذاهب الزائل ٢٤٤/٢

أما اليقين فإننا سكن البلى ولنا هناك ، جماعة فراط ٦٧/٢

أما الحقيقة فهي أني ذاهب والله يعلم بالذي أنا لاقى ١٣٩/٢

والموت أصدق حادث وأصحه وكأنه كذب يسر فينغم ٢٧٥/٢

خلقنا لشيء غير باد وإنما نعيش قليلا ، ثم يدركنا الهلك ١٤٢/٢

وقال في الفصول والغايات :

أضح وأمس ، وأيقن بالرمس ، نبأ غير لبس ، ما أشبه غداً بالأمس ! (٢٥٤)

وأعلم أن الملحد آخر منزلى . (٢٧٢)

سرياً منسر فالقياس لا ينكسر ، إن المنايا عنك منقبات . (١٩٣)

أعظم بعزتك (يارب) . ذهب الأبد وأنت لا تحول ، لا أعلم كنهك ولا أهوء وأوقن أنى فى الغد أموت . (٣٧٤)

أمر الآخرة جد ، وأمر الدنيا جد ، وسيصرم الإنسان ويمجد ، كما ذهب الأب والجد (٢٢٧)

وكلنا إلى ذلك المنزل نؤوب . (٢٥٠)

تمتد الرهيب للموت

وقد فزع أبو العلاء من هذا اليقين فزعاً رهيباً ، وتمثله تمثيلاً قوياً عنيفاً ، ولم يكن ينفك عن تذكره وتذكير الناس به ، قال فى اللزوميات :

وإن حبال العيش ماعلقت بها يد الحى ، إلا وهى تخشى انقضائها ١٠٢/١

وللموت كأس تكره النفس شربها ولا بد يوماً أن يكون لها شرباً ١٠٠/١

وقال فى ملقى السبيل :

مرّ أبى تابعاً أباه ومُدّ وقت ، فكم أعيش ؟

تطيش نبل الرماة منا وأسهم الختف لا تطيش !

ولم يزل للمنون جيش تُفل من ذكره الجيوش

يحث بالنعش حامله وشد ما سارت النعوش

وقال فى الفصول والغايات :

تجهز للظعن أيها المقيم ، إن أملك بواكر الأحداج . (١٨٤)

يا ابن آدم ، علقت من الدنيا بأضعف مرس ، فهل لحشاشتك من حرس ، فامهد
لضجعتك يا صاح ! (٣٤٨)

وانظر على أى رحل تركب ، فنفسك مرتحلة مع المرتحلات . (١٥٥)

أظننت الإقامة ؟ فكذب الظن ، ألا تأهب للرحلة فالمكر على جناب . (٤١)

وابك نفسك وأنت حى ، فكلنا يلحق بالأمم المتقدّمات . (١٤٣)

وابك على نفسك بدموع أسراب . (٥٧)

وإذا اغتبطت ، فاذكر ما يطرق به الموت من السكرات . (١٠٤)

غدت المنية بنبل كالوبل ، وسهام ألطف من الأوهام . (٢٩)

واسمع أبا العلاء يتمثل الموت ويتفنن فى تمثله ، فهو مرة وحش يفترسنا ، وهو مرة
سيف يقطعنا ، وهو مرة ثلاثة أسر يأخذ بنواصينا ، ونحن معشر الضحايا الضعفاء
نشهد هذا فى سوانا وننتظر دورنا .

وما زالت الأيام وهى غوافل تسدد سهماً للمنية صائباً لز ١٠٣/١

وتأكلنا أيماناً ، فكأنما تمر بنا الساعات وهى أسود ٢٤٣/١

والمنايا كالأسد تفترس الأحياء جميعاً ، ولا تعاف القليبا

تفرع الشامخ المنيف من الشم وتهوى فتستبيح القليبا ١١٥/١

تلقى المقادير فى آنافهم خطا يقدرونهم لمناياهم بأرسان ٣٧٠/٢

والحتف كالثائر العادى يصرعنا والأرض تأكل هلاتكتفى الضبع؟! ٨١/١

وقد بدا لأبى العلاء كأن هذا الغول الرهيب يطاردنا ويقف لنا بالمرصاد ، وهو
يلح فى طلبنا ، لا يهدأ حتى يظفر بنا وإنه لظافر مهما أمعنا فى العدو ، أو اعتصمنا بالمعاقل
والمآمن . هو غالب ، قاهر ، باطش ، لامفر منه ولا عاصم ، ولا رقية ولا طب .

قال في سقط الزند :

يا دهر يا منجز إيعاده ومخلف المأمول من وعده !
تستأسر العقبان في جوها وتنزل الأعصم من فنده
كأننا في كفه ماله ينفق ما يختار من نقده

وقال في ملقى السبيل :

يا ابن آدم ، كم تحرس وتحترس والموت أسد مفترس ؟

أيجترس المرء من حتفه وما حاد عن يومه المحترس ؟
هل الناس إلا نظير السوا م ، وآجالهم أسد تفترس ؟
يحُل الربي ، ويحل الوهو د ، ولا بد للربيع أن يندرس
العاجلة سبيل منفوذة ، والأنفس بحق مأخوذة . لا الدرع تنفع ولا الخوذة .
لا سقية أغنت ، ولا رقية ولا تميمات ولا عـوذة !

وفت عُدد لديه فمن دروع وأسياف ينوء بها عديد
بدا شخص المنون لناظريه وقيل له : أتبدى أم تعيد ؟
تفرقت الجنود فما حمته وأبطلت المواعد والوعود

وقال في الفصول والغايات :

أيها الوعل الوقل ، والطائر المستقل ، والمكثر والمقل ، والمسافر والمنتقل ،
الا يعصمك معقل (٥)

إن المنية أخذت الدرة من الوالدة ، والدرة من الوليد ، وهجمت الغاب على الضارية ،
ولخدر على الجارية ، وأتت وجار الحشرة . . . فغالت الوحوش الرأعات . (٢٣٠)

يا ويح الإنس ، حملوا القنا للشر من الأشر . وإذا حضر القدرُ لم يغن القنا عن
المشرعين ، والموتُ جامع بين الطفل والهرم ، ولك يا غراب حباله عند الوكر ،
ولو كان في أعلى نيق .

(٢٥٩)

والقدرُ يضع المسدَّ في أعناق ليوث الأسد

(١٦٣)

وقدرُ الله يفترس المفترسات .

(١٦٨)

أيها المنتبذ ، كن في النيق أو الجر (أعلى الجبل أو أصله) ، لورقيت إلى السماء
بكر (جبل) ، ما وجدت لك من مفر .

(٣٥٣)

وإن تصبحوا وراء شق الثعلب ، فالتدر معكم . لا فرار من قضاء الله ، فاصبروا
على ما حكم إنه واعى الكلمات .

(١٢٦)

لا ينجى النفس اعتصامها ، يسامها في الغد عصامها ، ولو كان عند الجوزاء مصامها (٢٧٤)
إن الآجال كأنها الرجال . بنت الظلل على القلل . ونظرت من يمر بالسبيل ،
فما خفي عنها راكب ولا صاحب حذاء .

(٢٤٣)

وقال في الزوميات :

كن حيث شئت بلجة أو ربوة أو وهدة ، سينالك التيار ٣٣٩/١

ودرعك إن وقتك سهام قوم فما هي من ردى يوم وقاء ٥٤/١

فارقبي يا عصماء يوماً ولو أنك في رأس شاهق ، عصماء ٥٨/١

إن دنا من فارسٍ أجل حار لا يجري به الفرس

كل من حانت منيته لم يدافع دونه حرس ١٠/٢

أظاعن أنت ، أم راس على مضض حتى تخونك من دنياك أمراس ؟

هل تمنعك بيض أو مثقفة أو ينجينك أجمال وأفراس ؟ ١٧/٢

ودرع الفتى في حكمه ، درع غادة وأبيات كسرى من بيوت العناكب ١٢٣/١

(١١)

تتبعنا في كل نقب ومخرم منايا لها من جنسها نقباء ٤٥/١
 إذا كان القضاء يجيء حتما فما هذى المغافر والدروع ؟ ٧٤/٢
 هذى القضايا فمن يطاولها ؟ وهي المنايا فمن يخاشنها ؟
 لم يثن عن فارس وحميرها دروعها الموت ، أو جواشنها
 ولا قصور لها مشيدة قد موهت عسجداً رواشنها ٣٣٨
 والموت طب ليس يبرئه الحكيم وإن تطب ١٥١/١
 بكر الطبيب على الدواء ، وللردى كأس تعم صحاحها ومراضها ٦٠/٢
 ويدعو الطبيب المرء وافاه حينه رويدك ! إن الأمر جل عن الطب ١٢٠/١
 كل علم الطب عن مرض الموت ، وقد ناب فيه كل مناب ١٤٧/١
 رقتى الراقيات وحُم يوحى فغادرني كأني ما رقيت ١٦٩/١
 شكا الأذى فسهرت الليل وابتكرت به الفتاة إلى شمطاء ترقيه
 وأمه تسأل العراف قاضية عنه النذور ، لعل الله يبقيه
 وأنت أرشد منها حين تحمله إلى الطبيب ، يداويه ويسقيه
 ولو رقى الطفل عيسى أو أعيد له بقراط ، ما كان من موت يوقيه ٤١٢/٢

نسبة بالحياة :

أرأيت كيف كان فزع أبي العلاء من الموت ، وكيف كان تمثله له ، وإحساسه
 بمطاردته لنا ، وإلحاحه في طلبنا ؟ ولكنك لم تسمع بعد أروع وأعنف ما قال
 أبو العلاء في الفزع من الموت ؛ سمعته يتناول المسألة تناولاً عاماً ، ولم تسمعه يحدث
 عن رعبه وارتياحه من الموت .

إن الناس قد عرفوا أبا العلاء زاهداً في الدنيا كارهاً لها ، مرحباً بالموت راجياً له ، ولكن الكثيرين لم يعرفوه متشبهاً بالحياة فزعاً من الموت ؛ فاسمعه الآن يعرض نفسه ويحدث عما يجد ، وهو يرقب الموت يغول سواء ، وينتظر دوره خائفاً متشبهاً بالحياة :

أروم خلاصاً من قضاء مسلط _____ على ، توخى قاهر الناس بالقهر لـ ٣٧٢/١

لو كانت الريح تحت ما نجوتُ بها _____ فكيف أنجوبذات الشد والحضر؟ ٣٨٠/١

ولم أرد _____ المنية باختيارى ولكن أوشكَ الفتیان سحى

ولو خُيرت لم أتركُ محلى _____ فأسكن فى مضيق بعد رحب ١٣٢/١

وحبائل الدنيا تزيد على الحصا _____ وأقلُ أنفاسى أدق حبائلى ٢٢٨/٢

وكيف أقضى ساعة بمسرة _____ وأعلم أن الموت من غرماى؟ ٦٤/١

أعلل مهجتي ويصيح دهرى _____ ألا تغدو ، فقد ذهب الرفاق؟ ١٢٢/٢

يمر الحول بعد الحول عنى _____ وتلك مصارع الأقيام حولى

كأنى بالألى حفروا لجارى _____ وقد أخذوا الحافرَ وانتحوا لى ٢٣١/٢

وقال فى الفصول والغايات :

كرهتُ المنية وأيتها . (٢٣٣)

كم أغدر وأنكت ، أمل أننى أمكت ، والمنية آخذة بالناصية أخذَ الأسر
بناصية الأسير . (٢٤١)

شغلنى عن النسب ، وقول فى النسب ، أنى أسلك من الحمام نيسباً ، أذهبَ النوم
وأطالَ الأرق ، وأفلَّ رغبتي فى الشرف ، أنى لا أجد عن ذلك مذهباً . . .
جلَّ البارى ! هل تحمل هذه النكبة منكباً أضاح ؟ (جبل) (٤٢٢)

على للمنايا دين ! (٣٠٩)

كأنى قتلتُ للمنايا أهلاً ، فهي تنقب عنى حزناً وسهلاً ، تطلب عندى
الترات ! (١٠٥)

أطلب من المنايا حزناً ، هل أجد عنها معترزاً ؟
لو لبست درعاً أريد للمنايا دفعاً ، لأزارتنى رؤوس الأراقم ، وأنا فى مثل برودها
من الحديد الواقم ! (٢٠٩)

وقعت فى الحباله فليس إلا التسليم ؟ وكيف حال قنيص أخذ معه أمثال كثيرة ،
فنظر إلى الأمثال تُعَبِّط ، وقد علم أنه سيعيد المديّة له معيد ؟ (٢٩٥)
إنما أنا فريز فى ربق ، قد أعدت له المديّة ، يُنتظر به أمرُ الملك ، فتجرى الشفرة
على الأوداج . (٢٨٣)

ويشدد فزع أبى العلاء من الموت وتشبّه بالحياة ، فيرتعد ويئن ، وتصدر عنه
الكلمات شاكية صارخة بكاءً ، تذكرك بنذب النأحات ، وأنين الشكلى ،
ونواح الباكيات .

أعِنْ باكياً لَجْ فى حزنه _____ وسل ضاحك القوم : مم ابتهج ؟ لز ٢٢٣/١

وإن كنتِ شاديةً فاصمتى _____ وإن كنتِ باكيةً فاصدى ٢٣٥/١

يُيهال التراب على من ثوى _____ فآه من النبأ الهائل ! ٢٤٤/٢
وقال فى الفصول والغايات :

آه من ماء لا يسوغ ، ونفس لا تسمح به الأنوف ، وأنا ملقى أفوق — ذلك مسلك
مسلوك ، تعبس به عند الهلوك . (٢٠٥)

ما يقول الخللخال فى رجل الكاعب ... إنه يحلف أن الحالية ستعطل ، والخلدة ...
سترم ، والناعمة ستبأشر التراب ! (٣٢٨)

أتدري ما يقول المزهري أيها الطرب الجذلان ؟ ستدوي الروضة ، وترم القينة ،
ويموت الشرب ، وتصبح الديار آيات .
(١٨)

يا سوار الكاعب كم رأيت ذهبك من عين ؟ متى عهدك بمعذتك ؟ لقد بقيت
وفني مدخروك ! يا ضاحك لتبكين ، ويا منزل لتوحشن ، ويا شمل إنك
لرهين بشتات .
(٨٧)

آه من شملٍ شتّ ، وحبلٍ منبتّ ، لا يصله الواصلون .
أيتها النفس الجهمشة مهلاً ! قرب ممائك فلا تقولي كلا ! بليت وحسرتك
لا تبلى .
(٣٩٤)

ثم اسمع هذا الحوار المر العجيب :
« يا جُواب الأرض ، هل مررتم بقطر لا يصبوب فيه القطر ؟ نعم ، في الأرض
بلاد لا تجودها الأمطار .

« فهل أحسستم بعطرةٍ ليست بذات مقطرة ؟ أجل ، إن كل روضة كذاك .
« فهل سمعتم بمكان ليس فيه للموت استمكان ؟ هيهات هيهات !! إن الموت
نزل على الجبل والبراث » .
(الفصول ٢١)

أسباب فزعه من الموت

- ١ — لم يبرأ من حب الدنيا ؟
- ٢ — الخوف والجهل بما وراء الموت .
- ٣ — الموت هو المأساة الإنسانية الكبرى .

نقف هنا لنسأل فيم يفرع أبو العلاء من الموت ؟ أليس متعباً والموت راحة ؟ ألم يضيق بمحنة الحياة ويعتبرها جناية جناها عليها أبواه ؟ ألم يصرخ ويئن من هول ما يكابد في حياته ؟ ثم ماذا وراء البقاء ، غير الشقاء والشيخوخة والملل ؟ لم يتشبث بالحياة مثل هذا المتعب المتشائم ؟

ما أسهل أن يقال إن أبا العلاء يترجم في الحالين عن حالة نفسية ! فهو يضيق بالحياة حين تلح عليه المموم ، وهو يفرع من الموت حين يهدأ ويهنأ . ذلك تعليل لا اضطرابه وتناقضه يسيغه علم النفس ، ويؤيده الواقع المشاهد . فكل منا تمر به هذه الحالات ؛ يحزن فتسود الدنيا في وجهه ويود لو يخلصه الموت ، ويفرح فيقبل على الدنيا ويشتهي طول العمر .

ما أسهل أن يقال ذلك في أبي العلاء ! ولكنه قول يصدر عن الفهم اليسير والنظرة العاجلة . فأما إذا أبعدت في الفهم وأمعنت النظر ، فسترى أن أبا العلاء لا يفرع من الموت حين تقبل عليه الدنيا ويهنأ بالحياة . ومتى كان المسكين راضياً عن حياته هنئاً بها ؟ ستري أنه يجزع من الموت وهو ضيق بحياته ، دقيق الحس لمأساته ، متنبه لآلامه ومتاعبه .

نحن في حاجة إذاً إلى أن نلتمس أسباباً تفسر لنا تناقضه واضطرابه ، وتعلل لنا جزعه الصارخ من الموت ، مع ضيقه بالحياة ، وضجره منها ، وتنبيهه لآلامه ومتاعبه .

١ — حب الدنيا :

السبب الأول لفرع أبي العلاء من الموت وتشبثه بالحياة ، أنه لم يبرأ قط من حب الدنيا .

قالة غريبة تبدو شاذة مع ما اشتهر به أبو العلاء من مقت الدنيا ، وزهده فيها ، وانصرافه عنها . ولكنها على غرابتها حقيقة واقعة ، خفيت على الناس دهرًا طويلاً ، لأنهم خدعوا بوهم مكذوب ، هو زهد أبي العلاء في الحياة وانتصاره على الدنيا . ولكن الناس معذورون ، فهذا الوهم قد خدع به أبو العلاء حيناً من الدهر ، والتمس فيه السلوى والعزاء .

☆☆☆

كان أبو العلاء كما تعلم موفور الحظ من متاعب الدنيا ، وقد حاول أول الأمر أن يتناسى محنته ، فواجه الدنيا متكلفاً الجرأة والشجاعة . وخرج إليها يتحداها ويفرض نفسه عليها ويستصغر ما يصيبه منها . وقد عرفنا في المقالة الثالثة كيف سخرت الدنيا بهذا التحدي ، ورأيناه ينسحب إلى قريته ويأوى إلى عزلته حزيناً مهموماً .

هذا شيء فصلناه من قبل ولن نعيد الحديث فيه . إنما الحديث عن تلك اللحظة الحاسمة التي اعتزل فيها أبو العلاء ، والتي كثرت فيها الأقاويل .

هل فرغ أبو العلاء في هذه اللحظة من الدنيا وانصرف عنها ؟ قال ناس أجل ! لقد انتصر على الدنيا وداسها بقدميه . تجهمت له فسخر بها ، وأعرض عنها وعاف ملذاتها جميعاً ، فكان أن انقادت الدنيا إليه .

قال الميمنى عن رجوعه من بغداد :

« ولا بد^(١) أن تطلع نفسه وفيه بقية من حب الدنيا . . . ولكنه لما روض نفسه

(١) « أبو العلاء وما إليه » ص ١٧٤

وقنعها على الكفاف ، عاد شماسها انقياداً ، وألقت إليه مقاداً .

انقادت إليه الدنيا ؟ متى كان ذلك وكيف كان ؟ ألا إنه لوهم مكذوب ، خدع به الناس ، وخدع به الرجل نفسه ؛ فكتب إلى خاله يقول : إن أهل بغداد لم يسمعوا بعزمه على السفر ، حتى ارتاعوا له ، وألحوا في نهيه عنه ، وبذلوا له الأموال ، ورغبوه في ألوان النعمة فأبى ذلك كله ، وكأن نفسه انصرفت عن الدنيا أتم الانصراف .

ويصور أستاذنا الدكتور طه حسين بك هذا الوهم الذي ألم بخاطر أبي العلاء ، فيقول على لسانه حين لزم بيته سنة ٤٠٠ :

« مالى ^(١) ولدنيا ، لقد أتيتها كارهاً ، وعاشرتها كارهاً ، ولأخرجن منها كارهاً ، ولقد ذقت من لذاتها ما لم أرج ، واحتملت من آلامها ما لم أحتسب ؛ فإذا اللذة إلى ألم ، وإذا السعادة إلى شقاء ، وإذا الأمل إلى يأس ، والرجاء إلى قنوط ، إني لأحق إن لم أطرحها قبل أن تطرحني ، وأزدرها قبل أن تزدريني ، وأملأ قلبي عن لذاتها بالعزاء النافع والصبر الجميل ! » .

هذا ما طاف بوهم أبي العلاء حين لزم بيته ، فهل تحقق له وأفلاح فيه ؟ هل انصرف عن الدنيا أتم انصراف ؟ هل قوى على ازدرائها ، وملاً قلبه بالعزاء النافع والصبر الجميل ؟

كلا ! لم ينتصر إلا على ملذاتها التافهة ، زهد في الطعام والشراب وصحبة الناس . لكن زهده لم يكن إلا اعترافاً مرّاً رهيباً بتفاهة هذه الملذات إلى جانب ما كان يرجو ويطمع .

كان يرجو أن يحشد له كل نعيم الحياة ، فأعجزه قصور المادة وعجز الكيان . وبقيت له بعض ملذات مادية تافهة ، عرضتها عليه الدنيا في إشفاق ، كما يعرض المحسن قرشاً على فقير .

ما أتفه ما تتصدق به الدنيا عليه ، إلى جانب ما كان يرجو ويطمع !
فكر في الأمر ، ثم انتهى إلى الرفض والتعفف . مثله مثل رجل ممتاز هيأته ملكاته
إلى الظفر في حلبة السباق ، ثم قصرت به قواه عن بلوغ الغاية فانسحب . ومن قبل
قال الأمير أبو فراس :

وإنا لقوم لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر
أراد أبو العلاء لنفسه أمراً ، وأراد له القضاء أمراً ، فكان ما أراد القضاء .
خلقه الله لأمر حاول سواه فعجز . فماذا يفعل ؟ هل يأبى من ملك ربه فيخرج من
أرض له وسما ؟ ليته يستطيع ! ولكن بشريته تخذله ، فما كان منه إلا أن انطوى
على نفسه يرصد أحزانها ، متكلفاً الصبر ، فظن الناس به الزهد .

وقال الفارسون حليف زهد وأخطأت الظنون بما فرسه
ورضت صعب آمالي فكانت خيولاً في مراتعها شمسه
ولم أعرض عن اللذات إلا لأن خيارها عني خسنه لـ ٣٥٣/٢

طال صبري ، فقيل أكم شعباً ن وإني لمنطو طي — ان ٣٩٣/٢
حاول الرجل أن يصارع القدر ويظفر بما أراد لنفسه ، فألفى القدر غالباً قاهراً
لا يعاند . عاد إلى نفسه يقاوم ما فيها من حب الحياة ، ويجاهد أن يروضها على
الرضا والصبر والاستسلام ، فما استطاع . وهو يصور لنا ذلك الصراع المزدوج ! صراعه
مع الدنيا ومع نفسه ، ويصور فشله فيه تصويراً رهيباً ، يثير الحزن والألم ، ويبعث
على الإشفاق والرتاء .

كتب إلى خاله أبي القاسم عند خروجه من العراق :
« ولما فاتني المقام بحيث اخترت أجمعت على انفراد . »

وكتب إلى أهل المعرة :

« فشاهدت (في بغداد) أنفس مكان لم يسعف الزمن بإقامتي فيه ، والجاهل

مغالب القدر . »

وقال في الزوميات :

صحبت عيشاً أعانيه ويغلبني مثل الوليد يقود المصعب السدما

وقد مللت زماناً شره لهب إذا دنا لخبو ، عاد فاحتدما ٢٨/٢

تنازعني إلى الشهوات نفسي فلا أنا منجح أبداً ، ولا هي ! ٤٢٢/٢

أريد ليلان العيش في دار شقوة وتأبى الليالي غير بخل وليان

ويعجبني شيئان : خفض وصحة ولكن ريب الدهر غير شياني

وما جبل الريان عندي بطائل ولا أنا من خود الحسان بريان

أريد عليات المراتب ضلة وخرط قتاد الليل دون عليان ٣٦٣/٢

تضاعف همي أن أتتني منيتي ولم تقض حاجي بالمطايا الرواقص

وما عالمي إن عشت فيه بزائد ولا هو إن ألقيت منه بناقص ٥٧/٢

إله الأنام ورب الغمام لنا الفقر دونك ، والملك لك

إذا أنا لم أغن في لذة أسفت ، وضاق على الفلك ١٦٨/٢

أريد الإناخة في منزل وقد حُديت لسواه جمالي

فمن مخبري أغريق البحا رألقي الردي ، أم دفين الوصال ؟

هويت انفرادي كما يخف عن أعاشر ثقل احتمالي

أما لي فيما أرى راحة مدى الدهر من هذيان الأمل ؟ ٢٤٣/٢

وقال في الفصول والغايات :

إنما أنا كرجل مُبلى بالصدى ، لا يجد ورداً ولا مورداً ، فهو ظمآن أبداً : إن ورد غروفاً (بئراً يغترف منها باليد) وجده مضفوفاً (كثيراً ورّاده) ، وإن صادف نزوعاً (بئراً يجلب ماؤها) ، أعوزته الآلة والمعين . (٢١٦)

أرتفع والقدر يكبني — يألبنى دائماً ويلبني . كم أستنسر وأنا من البغاث ! (٢١٦)
وإن الله خلقني لأمر ، حاولت سواء فألفت المبهم بغير انفراج . وفظام ابن عامين أيسر من فظام ابن الأعوام . . وأعيأ تأديب الهرم على الأدباء . (٢٣١)

قد فررت من قدر الله ، فإذا هو أخو الحياة . هل أطأ على غير الأرض أو أبرز من تحت السماء ؟ (٢٥١)

ود لو يستطيع ، ولكن بشريته خذلته .

ويزعم بعض الناس بعد ذلك ، أنه انتصر على الدنيا وسخر بها ، « فعاد شماسها انقياداً ، وألقت إليه مقاداً » !

ألا إنه لوهم تشبث به الرجل ، وأمل طاف به في أحلام اليقظة ورؤى المنام ، وتمثله حقاً فمضى يسخر بالدنيا .

ولكن الحقيقة تعرت باطشة رهيبة :

فإذا الوهم مكذوب ، وإذا الأمل سراب !

لم يسل الرجل عن حب الدنيا ، ولم يبرأ من هواها ، ولم ينتصر عليها ، بل خرج من النضال وإن قلبه لينوء بحب الدنيا والحنين إليها ، وإن كيانه ليرزح تحت هوى مُلحّ ثقيل الوطأة .

أحبها بقدر ما كرهها ! وكان قصوره عن الانتصار عليها يزيد حبه ضراماً . وكانت وطأة الحرمان تزيد حنينه عنفاً وسعيراً .

عرفها غادرة ، خادعة ، قاسية .

ولكنه برغم ذلك أحبها . أحبها وإن كرهها ، وفطن بها وإن اصطنع الصد عنها .
وحن إليها ، وإن زهد فيما أباحت له من تافه الملذات .
كان يريد أن ينتصر عليها . . . أن يملكها ، ويحتوى كل مجدها ونعيمها . . .
ولكن بشريته تخذله ، ومادته لا تسعفه . فجأ بالشكوى وصاح بها أنه
يمقتها ويكرهها ويزدريها ، لكنه مع ذلك ظل يهواها .

أتظن ذلك حديث خيال وصنعة كلام ؟ إذا فاسمع أبا العلاء يحدث عن حبه للدنيا
ويئن مما يكابد من هواها ، ترنا غير مسرفين ولا خائلين . قال في سقط الزند :

وجدنا أذى الدنيا لذيذاً كأنما جنى النحل أصناف الشقاء الذى تجنى
فما رغبت فى الموت كدراً مسيرها إلى الورد خمس ، ثم يشربن من أجن
يصادفن صقراً كل يوم وليلة ويلقن شراً من مخالفه الحجن
ولا قلقات الليل باتت كأنها من الأين والإدلاج ، بعض القنائلدن
وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله وكلف نوحاً وابنه عمل السفن

وما استعذبتُه روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنتى عدن ١٩٦/١

وأملى فى رسالته إلى أبى نصر بن يوسف ، حين استدعاه إلى حضرة الأمير
عزيز الدولة :

« وإن العامة رأتنى مضطراً إلى القناعة فقالت زاهد . وأنا فى حب الدنيا جاهد » (١)

وقال فى الزوميات :

نحن البرية أمسى كلنا دنفاً بحب دنياه ، حباً فوق ما يجب ٨٥/١

وكلكم يبدى لدنياه بغضة على أنه يخفى بها كمد الصب ١٢٠/١

لو أن عشقك للدنيا له شبح أبديته ، ملأت السهل والجبال ١٩٣/٢

والنفسُ آفةُ الحياة فدمعها يجرى لذكر فراقها ، مُنهله ١٨٣/٢

أشربتُ حُبَّكَ لا ينفيه عن جسدى سوى ثرى لدماء الإنس شراب ١٣٣/١

وصدقتُ هذا العيشَ فى حبي له واغترنى بخداعه وكذابه

عذبٌ يعذبنى البقاء ، وللردى يوم يخلصُ من فنون عذابه ١٣٩/١

شقينا بدنيانا على طول ودها فدونك مارسها حياتك واشقها

ولا تظهرنَّ الزهدَ فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضمّر عشقها ١٢٩/٢

وقال فى الفصول والغايات :

ونفوسنا بالحياة شحاح . (٢٤٣)

لم أر كالدنيا عجوزاً قد اشتر خبرها بقتل الأزواج ، وهى على ما اشتر كثيره الخطاب (٧٣)

أيتها الدنيا البالية ، ما أحسنَ ما حلتك الحالية . . . والنفسُ عنك غير سالية ! (١٤٩)

بى طَب فإين أستطب ؟ أنا تحت حُب الدنيا مُحِب (رازح) ، أثقلنى فأنا مُكَب (٢٤٠)

قلتنى دنيائى فما قليتها . . . قد كرهتُ المنية وأيتها . (٢٣٣)

زويت عنى الدنيا فأسفت ، وأشقت لذلك وخفت ، وأحببت لها وشنفت ، ولو

أنصفت لعفت ما أستوبله (ما أجده وبيلا) ، فما نثفت (ما أصبت شيئاً منه) (٣٤٨)

(مولائى) لا أكتمك ما أنت به عليم ، إن أسفى على الدنيا لطويل ! (٢٤٣)

أحب الدنيا كأنها تحبنى ، والغريزة عن الرشد تدبنى . (٢١٥)

رضيت بالحضض على مضض . (٢٣٦)

أحب الدنيا وآلتها ليست فى ، وقد يئستُ من بلوغها واليأس مريح ، فإلام التشوف

والضلال ؟ ولو كنت مؤدياً لها لتقل على أمرها . (٣٥٨)

هذا أنين النفس المحرومة ، وتأوه القلب المكروب . هذه شكاة الرجل الذى

أحب الدنيا ، ثم تكلف الصدود عنها ، وجرى في وهمه أنه تسلى .
قال في اللزوميات .

أيها الدنيا لحاك الله من ربة دلّ
ما تسلى خلدى عنك وإن ظن التسلى

٢ - جهل وضوف مما وراء الموت :

رأيت أبا العلاء لم يبرأ من حب الدنيا ، وأن هذا الحب كان يربطه إلى الحياة
ويغريه بالتشبث بها . ولعل هذا كان يكفيننا في تعليل جزعه الصارخ من الموت
لو أن أبا العلاء كان سعيداً راضياً . ولكننا عرفناه متشائماً ، ضيق الصدر بهمومه ،
يأساً من بلوغ ما يشتهي . ومثله جدير بأن يسكن إلى الموت ، ليخلص مما يكابده من
متاعب الحياة ، وأهوال الصراع بينه وبين الدنيا .

مثله جدير بأن يرجو المفر من محنة الحياة ، ولكن إلى أين ؟
إنه لا يعرف ماذا وراء الموت ، ولا يدري ما يلقاه هناك .

لقد عاش في ظلام ، وهو يجزع ويرتاع كلما فكر في المجهل المظلمة التي يُقذف به
إليها حين يموت .

الموت راحة ؟ من يضمن له ذلك ؟

وإن يكن في موتنا راحةً فالفرج الوارد من — قريب لـ ١٥٥/١
لو اطمأن أبو العلاء إلى ذلك ، لوضع حداً لما يكابده ، ولفرغ إليه يدفن فيه
آلامه ومتاعبه وحب اليأس ، وآماله المحطمة ، وأشواقه المكبوتة !
ولكن هيهات ! الخوف يربعه ، والجهد والشك يرهقانه .

قال في سقط الزند :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذى يراد بنا ، والعلم لله ذى المن

إذا غُيب المرء استسر حديثه ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى ١٩٥/١

وقال في اللزوميات :

وان أعفَ بعد الموت مما يريني فمأخِظ الأَدنى، ولا يدى الحسرى ١٧٩/١

آه لضعفى كيف بى هابطاً فى الواد ، أو مرتقياً فى العقاب ١٥٦/١

فما لى أخاف طـريق الردى وذلك خير طريق سُـلك ؟

يريحـك من عيشةٍ مُرة ومالٍ أضـيع ، ومالٍ مُلك ١٦٩/٢

لعل الموتَ خـير للبرايا وإن خافوا الردى وتهيبـوه ٤٠٣/٢

أوجالُ نفسى فى الأولى مضاعفةٌ ولا أزال من الأخرى على وجل ! ٢٢٠/٢

وقال فى الفصول والغايات :

والطف مولاى بضـيفك إذا اقترى ، ونزل إلى بطن الأرض عن القرى ،
ضـيفُك ولكل ضيف قرى ، ما أجدرك بالرأفة وما أحرى ! (٤٩)

الدنيا فانية ، والنفس لا تأمن التبعات .

ويلم القبر مسكناً لا ترفع له الجدران . (١٤٤)

ويحى إذا الوقت نفد ، ونزل حامى فأفد ، وقوى نهوضى ورفد ، وكأنه
قد غُلِّ وصفد (٨١)

حمداً لك إلهى ، لا أعلم وقت إسكانك لى فى دار البلاء ، وقد عشت فيها ماشئاً ،
وأعيش فيها ما تشاء ! وأنا شاك إليك أثقال الزمن ، فإذا قضيت عنها الرحلة
فأعنى على تلك الغصص والغمرات ، فإنى منها فـرق ، وبى من الحياة ملل . (١٩٦)

وقد مرّ بك ، أن الرجل همّ بالتخلص من محنة الحياة ، فردّه عن ذلك خوفه وجهله
بما وراء الموت .

قال في اللزوميات :

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة مخشية لاعتراها القوم أفواجاً
كأس المنية أولى بي وأروح لي من أن أكابد إثراء وإحواجا ٢٠٢/١
وقال في الفصول والغايات :

لولا خشية المنقلب لكنت أحد الفائزين . (٢٨٠)

وقد سئمت الحياة ، وأخاف أن أنقل فأقدم إلى ما حزن وساء ! (٢٣١)

لو أمنت التبعة لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب ، حتى أخلص من ضنك
الحياة ، ولكن أرهب غوائل السبيل . (٣٦٠)

وقال في رسالة الغفران :

« قد كدت ^(١) ألحق برهط العدم من غير الأسف ولا الندم ولكننا أرهب قدومي
على الجبار ، ولم أصلح نخلي بإبار »

هذه كلمة نقولها مسرعين ، فالحديث عنها يأتي مفصلاً في المقالة التالية حيث نصغي
إلى تأملات أبي العلاء في مصير الإنسان .

٣ — الموت مأساة الانسانية الكبرى :

فزع أبو العلاء من الموت ، لأنه كما رأينا لم يبرأ من حب الحياة ، وكان — فوق
ذلك — يجهل ما وراء الموت . وبقى سبب ثالث نضيفه إلى هذين . وهو سبب
لا يتصل بالحياة الخاصة بأبي العلاء وحده ، وإنما يتصل بالانسانية جميعاً — فقد كان ،
بصرف النظر عن مأساته ، يرى الموت مأساة البشر . لقد دُفعوا إلى الحياة
مجبزين ، وهم ينزعون عنها مكرهين ، على ما رُكب فيهم من حب لها وتعلق بها .
الموت مأساة ، وقد أطال أبو العلاء الوقوف عندها ، ومضى يهتف في حزن ومرارة :

غير مجدد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي إذا قيس بصوت البشير في كل ناد سقط
٢٠٨/١

يا دهر يا منجز إيعاده ومخلف المأمول من وعده
تستأثر العقبان في جوها وتنزل الأعصم من فنده
أرى ذوى الفضل وأصدادهم يجمعهم سـيلك في مده
.....

وحالة البـاكى لأبائه كحالة البـاكى على ولده
(١) ما رغبة الحى بأبنائه عما جنى الموت على جده اسقط ٢/٤

وكتب يعزى خاله أبا القاسم في وفاة أخيه أبي بكر :
« (٢) والقدر غالب أبى . فالعياذ بالله أن تقول كما قال المحاربى :
اهتز عرش الله ذى الجلال لموت خالى ، يوم مات خالى !
« ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون ، كل من عليها فان وإنما ابن آدم شبح منقول .
تعالى الله قادراً ، ما ترك وافياً ولا غادراً ، إلا جرعه كؤوس المنية » .
وكتب إلى ابن القارح : « وأما من فقد من الأصدقاء لما دخل حلب ، فتلك عادة
الزمن ، يبدل من الأبيات المسكونة قبوراً ، وإن رمس الهالك لبيت الحق »
وقال في ملقى السبيل :

من أعظم الحدث سكنى الحدث :
يدوم القديم إله السماء ويفنى بأقداره ما حدث

(١) قال أبو نواس : ألا يا ابن الذين فنوا وبادوا أما والله ما بادوا لتبقى
وقال المتنبي : نحن بنو الموت فما بالناس نعا فملا بد من شربه !

(٢) رسائل أبي العلاء (مرجليوث) الرسالة الثلاثون ص ٩٢

وما أرغب المرء في عيشه ولكن قصاراه سكنى الحدث!

وقال في الزوميات :

قد صحبنا الزمان بالرغم منا وهو يردى كما علمت الصحابا
وحللنا المضيق ثم أتينا الرحب لودام تركنا والرحابا
وضحكنا وليس ما يوجب الضحك ، بل ما يهيج انتحبا ١١٣/١

رأيت قضاء الله أوجب خلقه وعاد عليهم في تصرفه سلباً ٩٩/١

سألت رجلاً عن معد ورهطه وعن سباً ، ما كان يسبى ويسباً
فقالوا هي الأيام ، لم يخل صرفها مليكا يفدى ، أو تقياً ينبأ ٤٨/١

قام بنو القوم في أماكنهم وغيت في التراب آباء
وزال عز الأمير وافترقت أحباؤه عنه والأحباء ٥٧/١

ومدّ وقتي مثل القصر غايته وفي التراب تساوى الدرّ والبرد ٢٤٥/١

وكم وطئت أقدامنا في ترابها جبين أخى كبر وهامة أبلج ٢١٤/١

فقير كل من في الأر ض إن العبد لا يملك ١٦٤/٢

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة أن ييكونا

يحطمننا ريب الزمان كأننا زجاج ، ولكن لا يعاد لنا سبك ١٤٣/٢

وقال في الفصول والغايات :

بكى عمرو عمرة ، وكم في الأرض من عمور وعمرات . (١٠٢)

الموت أعظم الحدث ، والحدث لا يأنس بالحدث ، ألحقت المنون جديداً برث . (٦)

سل كندة عن آكل المرار ، وفزارة عن آل بدر ، واستخبر في حمير عن ذى

نواس ، وقل يا دارم أين زرارة ، ويا حنظلة ما فعل آل شهاب ؟ (١٠١-١٩-٧٧)

أين صاحبة جذيمة ومنزلها أين مotech العطية ومجزلها ؟ أكلتهم الأيام
أكل الثمرات . (٩٦)

لا لث بعثر ، ولا مثير العثير ، ولا من على الملك عثر ، يبقى منه أثر . (١٠٣)
إن منازل طسم وأميم ، طالما صهلت فيها الخيل ، وكثر الرعاء ، وأمها للنفع
القاصدون ، فانظر هل ترى فى ديار القوم أميا ؟
فنى الواتر والموتور وعند الله علم الذاهبين . (١٩٠)

رُب حى أشرى ، كأنهم ليوث الشرى ، قروا الأضياف ذرى جاءتهم
المنايا تترى ، فمزجوا بالثرى ، أصبح فيهم الزمن قد عاث . (٢٢٥)
نُصر قوم وخذل آخرون ، فما بقى الغالب ولا المغلوب . (٢٧٦)
إن الجبارة رامت الخلود ، فإذا هو لا يمكن ولا استطاع ، ولا يخلد إلا جبار
السموات . فبذلوا سام الذهب فدية من العطب ، فقال لهم القدر : تجرعوا سماما ! (٤٤٢)

ويشتد إحساس أبى العلاء بمأساة الموت وتنبيه لها ، فيرثى لنا معشر البشر
الضعاف الفانين : يهددنا الموت فى كل حين ، فيهدم ما نبنى ويقوض ما نقيم ،
فإذا الأمير كصعلوك قومه وإذا الغالب كالمغلوب . كلنا ضعاف أذلاء ، قصرنا التراب .
كل نار لنا تحمد ، وكل بناء يتقوض ، وكل عامر يخرب ، وكل حى إلى ممات .
قال فى سقط الزند :

كل بيت للهدم ما تبنتى الورقاء ، والسيد الرفيع العماد ٢٠٨/١
وقال فى ملقى السبيل :

بكى على الميت مواخ ، كأن أجله فى تراخ ، فلتنه الباكىة عن الصراخ :
بكى عليه ، فهل تراه فى أجل دائم التراخى ؟
وقال فى اللزوميات :

كم عفة ما عف عنها الردى وم ديار لأناس عفت

التفت الآمال منا بها وقد مضى آملها ، ما التفت ١٩٧/١

المشيدات التي رفعت أربع من أهلها درس ١٠/٢

فلا تغرنك شم من جبالهم وعزة في زمان الملك قعساء

نالوا قليلا من اللذات وارتحلوا برغمهم ، فإذا النعماء بأساء ٤٨/١

حياتك هجعة : سهد ونوم ورؤيا هاجع ما أنقته ٤٠٤/٢

قدمنا والقوابل ضاحكات وسرنا ، والمدامع ينبجسنة

وقد زعم الزواعم وافتكركنا فويح للخواطر ما هجسنه !

ومن يتأمل الأيام تسهل عليه النائبات وإن بخسنه

وهان على الفراقد والثريا شخوص في مضاجعها درسنه ٢٥١/٢

وقال في الفصول والغايات :

لمن أهضام توقد بالأهضام ، وأوضام تجعل على الرضام ؟ إن ذلك لقوم
بائدين ، ويبقى الله خالق العالمين . (٢٤٩)

كل مشمخر سوف ينهدم ويخر ، فياويح المشيدين ! وكل أهل يصبح ،
وهو قفار . (٢٧١)

وسوف ينفد العدد ولو أنكم الرمال ، وتخبو النار ولو هم لهبها على النجوم . (٤٣٦)
ألم تر ناراً بالأمس متأججة ، ومررت بها اليوم هابية ، كأنها لم تُغدَّ ضراما ؟ (٤٤٢)
وإذا الليل طلى قار الأرض فابرز لحدق النجوم ، واسأل الأسد كم فني تحته من
أسد ، والنعام كم طلعن على ظليم ، يخبرنك بالبرحين . (٣٣٨)

لا يعجبك جم رماد ، وييت مرتفع العباد ، ونار دائمة الانتقاد ، تسطع بجبل
أو واد . (٥٠)

واسمعه يسخر بمشاغلنا ومتاعبنا وغرورنا وآمالنا . اسمعه يشفق علينا : نطمع ونؤمل
ونبني كأننا مخلدون ، وإنما نحن على سفر أو عابرو سبيل .
قال في سقط الزند :

لو عرف الإنسان مقداره لم يفخر المولى على عبده
والواحد المفرد ، في حتفه كالخشد المكث من حشده
ولا يبالي الميت في قبره بدمه شيع ، أم حمده
أمس الذي مر على قبره يعجز أهل الأرض عن رده ٥/٢
وقال في ملق السبيل :

المرء نهى فما انتهى ، ما زال في العاجلة يزدهى ، ان قيل ما أحسن وما أبهى !
فأين صاحبك لما وهى ، وطالما نعيم ولها ، ونال في العمر ما اشتهى ، دهاه
الزمن فيمن دهى :

المرء معتوب على فعله كم سمع النهى فألاً انتهى ؟
زايله اللهو وزار البلى وطالما عاينت به مزدهى
باهى زماناً بالذى ناله ثم أتى الموت فأين البهى ؟
وهت عقود ، كان في عصره أحكمها ، لا عاقد ما وهى
كان يرى في غزل دائماً ما بين غزلان له أو مهى
دهاه بالمقدار لم يدفع الخطب عن مهجته إذ دهى
وقال في اللزوميات :

لا تغبطوا رجلاً على ما ناله إن بات قد ساد الرجال ، ولم يسد
فخوات الأيام غير توارك نسر النجوم ، ولا السماء ، ولا الأسد ٢٩٩/١
إن المواهب كلها عارية ومن السفاهة غبطة بعطائها ٦٧/١

تبني المنازل أعماراً مهدمة من الزمان بأنفاس وساعات ١٨٥/١

وما تريد بدار لست مالكها تقيم فيها قليلاً ، ثم تنطلق ؟ ١٢١/١

والموت يسلب ما في الأنف من شَمَم تحت التراب ، وما في الخلد من صعر ٣٨٤/١

وكم نزل القميل عن منبر فعاد إلى عنصر في الثرى

وأخرج من ملكه عارياً وخلف مملكةً بالعراس ٣٧٤/١

أُتْذَهَب دار بالنضار وربها يُخلفها عما قليل ويذهب ؟ ٨٣/١

وإنك لا باك عليك مهند ولا مظهر حزناً ، جواد مطهم

يساوى عليك الحى ، صعلوك قومه وتسحى له الأرض الزرود ، قتلهم ٢٥٥/٢

ومن العجائب أننا بجهالة بنى ، وكل بناء قوم يُهدم ٢٧٢/٢

إذا لم تكن دنياك دار إقامة فمالك تبنيها بناء مقيم ؟ ٢٩٩/٢

لا يعجبني الفتى بفضل فإنه مقتضى بوعد

يقول جاوزت في المعالى آل سعيد وآل سعد

فليس فوقى وليس مثلى وليس قبلى وليس بعدى

والده خصه بـعدوى من موته ، والحمام يعدى ٢٩٠/١

تنافس قوم على رتبة كأن الزمان يديم الرتب ! ١٥٦/١

وحسب الفتى أنه مائت وهل يعرف الشرف الميت ! ١٨٢/١

وقال في الفصول والغايات :

٥١٤ يا راعى الضائنة ، ارتع في الينمة (العشة الطيبة) كيف شئت ، واصطف لنفسك

ما أحببت من الرخال (إناث الضأن) ، إن لك وقتاً يلهمك عن الشاء والرباب . (٤٢)

أسيت على انفلات الأعيار ، فما فعل أهل الديار ؟ القليل يكفيك ، وربك عن
وجه الأرض ينفيك ، فالرغام بمعطسك وفيك . (٣٠٠)

أيها المسيم ، إن حظك لتسيم ، إما الشخت وإما الجسيم ، هل زاد رسمك الرسم ؟
تعتبط بلبقاح السوام ؟ إنك لا تعلم لمن التناج ! (٣١٠)

المرء يقدر ولغيره الأمور ، يحسب أنه يملك ويحوز ، كذب ! لله النفوس . (٣٧٤)
يا نهم ، إن ما تلتهم لقليل ، بينا ملك ينير ، عرض له التغيير ، فحمد خدمة
لهب أجاج . (٢٩٤)

كيف يتكبر من في الغد يقبر ؟ (٢٢)

واخذ المتصعر ، سيوضع في الأرض في أخذود . (٢٨٠)

أخذ ربنا بفضله ، وفرح الوارث لجهله حبذا التراث لولا فرط ذله ، من لك
بأخيك كله ؟ نسخ يومك بمثله . (١٠٧)

نصر قوم وخذل آخرون ، فما بقي الغالب ولا المغلوب . (٢٧٥)

شغل الآدميون ببناء بيت شعر وبيت شعر وجدار من مدر . فبيوتهم في الآجلة
كبيوت العناكب ، واهية الرواق والكفاء . (٢٨)

نحن على الدنيا نقترع ، نتسايف ونصطرع ، والقدر لنا مضرع . (٢٤٥)

الله الكامل ، والنقص لجمعنا شامل ، فماذا يؤمل الآمل ؟ أليس قصره الذهاب ؟ (٣٨)
يهوى المرء في المهالك ولا يبالغ هواه كل مشمخر ، ينهدم ويخر ، فياويح
المشيدين . (٢٥٠)

ما تصنع أيها الإنسان بالسنان ؟ إنك لمغترب بالغرار (حد الرمح) ، كفت المنية
ثأراً ما أراد ! (٨٢)

تلك هي المأساة الإنسانية الكبرى كما عرضها أبو العلاء ، وإنك لتحس في أقواله
مرارة لاذعة وحرناً أليماً ، ورتاء للإنسانية ، وقد كان يرى في الموت الموعظة البالغة

الكبرى ، كما كان يرى فيه المأساة الكبرى . وتجاذبه هذان المعينان ، فوعظ بالموت
حيناً وأطال ، وخاف من الموت كثيراً وأشفق .

قال في ملقى السبيل :

غرك ما يخدع من زخرف الدنيا فزاد الحرص والطمع
علمت أن الدهر في صرفه مفرقٌ عنك الذي تجمع
سمعت بالخطب وعائنته هل كف ما تبصر أو تسمع ؟
وقال في سقط الزند :

لو عرف الإنسان مقداره لم يفخر المولى على عبده ٥/٢
وفي اللزوميات :

نام في قبره ووُسِّدَ يميناً ه فخلناه قام فينا خطيباً
للمنـايا حواطب لا تبالي أهشياً جرت لها ، أم رطيباً ١١٤/١

قام للأيام في أذنى واعظ من شأنه الخرس :
ليس يبقـى فرع نابتة أصلها في الموت مغترس ١٠/٢

حدثت هذه الأيام جهراً ويُحسب أن ما نطقت هسيس
تعالى الله أين ملوك الخم لقد خمدوا ، فما لهم حسيس ١٨/٢

يجاور قوماً أجادوا العظاـت وما فيهم أحـد نابس ٢١/٢

أراك حسبت النجم ليس بواعظ لبيـاً ، وخلت البدر لا يتكلم
بلى قد أتانا : أن ما كان زائل ولكننا في عالم ليس يعلم ٥٤/٢

ألم تر أيام الفتى في عظـاته بهمس تناجى ، أو أدق من الهمس
توخت عـواري الملوك بردها جهاراً ، وآثار الأكارم بالطمس ٢٥/٢

وقال في الفصول والغايات .

لو أنصفت يا ابن آدم ، ولمن تنصف ؟ لأعز الناس عندك — أعنى نفسك —
إذن لا تنزجر قلبك ، وقصر أملك ، وشغلك الحق عن الأباطيل ، وعددت في ترنم
النوادر ترجيع القينات .
(١٩)

إن في آثار الأولين لمعتبراً ، فلتعظك منازل القوم الزاهبين . . . لا تسمع الأذن
لهم نثماً

رحم الله امرأ وعظه سواه ، ألا يعظك الشقي أيها السعيد ؟ ضرب لك أمد طال
عليك ، وقريب عند الله ذلك البعيد .
(٢٩٤)

المرحلة الأخيرة من مراحل الإنسان

مصير الإنسان

ما وراء الموت

- ١ - تبلى أجسادنا ، وتنتهك رممنا ، وننسى فلا صديق .
- ٢ - توقف العقل عن إبداء الرأي فيما وراء ذلك .
- ٣ - قدرة الله على الحشر والبعث .
- ٤ - حيرة أبي العلاء ، بين توقف العقل وإعجاز القدرة .
- ٥ - الخبر اليقين عند الموتى ، ولكنهم لا يعودون ولا يتكلمون !

صحبتنا أبا العلاء وهو يرصد مراحل الحياة الإنسانية : مرحلة الوجود ، ومرحلة الحياة ، ومرحلة الموت . ونحن الآن نصحبه في المرحلة الأخيرة من مراحل الطريق ، ونرقبه وهو يقف أمام الستار الكثيف الذي يسدل على الإنسان بعد أن يموت .

ما وراء الموت ؟

وراءه كثير . عرف أبو العلاء أشياء وآمن بها ، وغابت عنه أشياء ، فلم يستطع أن يميز عنها الحجب والأستار ، رغم ما بذل من جهد أليم .
أما الذي عرفه أبو العلاء ، فهو أننا نودع الأرض ، فنبتلى وننسى ؛ تأكلنا الأرض وتنتهك رممنا ، وننسى فلا صديق .

هذا ما كان يؤمن به أبو العلاء ، ويعلمه في لهجة مرة ذات وقع مؤثر حزين . وتأملات أبي العلاء فيما وراء الموت رائعة مؤثرة ، وروعها تأتيها مما تترجم عنه ، من

حزن صادق لمأساة الإنسان ، ورثاء مؤثر لها ، وإشفاق أليم على هذا المخلوق الذي
يُنْتزَع من الحياة ، ويقذف به إلى مجاهل الموت . هذه التأملات تشبه أن تكون مرثية
الإنسانية ، ونحن نصمت الآن ، لنسمع أبا العلاء ينشد مرثيته الرائعة الباكية من
أغوار الماضي البعيد .

بلى الأجساد وانتهاك الرمم :

قال في سقط الزند :

صاح ، هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطء ما أظن أديم الأر ض إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا — وإن قدم العهد — هوانُ الآباء والأجداد

.....

رُب لحد قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تراحم الأضداد
ودفين على بقايا دفين في طويلِ الأزمان والآباد ٢٨٠/١

وقال في اللزوميات :

والأرض غدتنا بالطفها ثم تغدتنا فهل أنصفت ؟

تأكلُ من دب على ظهرها وهي على رغبتها ، ما اكتفت ١٦٧/١

تُكرِّم أوصال الفتى بعد موته وهن إذا طال الزمان ، هباء ٤٦/١

والأرضُ تقتات الجسوم كأنما هذا الحمام لتربها ميار ٣٤٠/١

ومن ضمّه جدث لم يُبل على ما أفاد ، ولا ما اقتنى

يصير تراباً ، سواء عليه مسُّ الحرير وطعن القنا

ولا يزدهى غضبُ حلمه ألقبه ذاكر ، أم كنا ٧٧/٢

والتربُّ نَفْلِيه ظَلَمًا وهو والدنا وكم لنا فيه من قربي ومن رحم ٣٠٤/٢

فلا يمس فخَّاراً من الفخر عائد إلى عنصر الفخار للنفع يضرب
لعل إناء منه يصنع مرة فياً كل فيه من أراد ويشرب
ويحمل من أرض لأخرى وما درى، فواهاً له ، بعد البلى يتغرب ! ٨١/١

أعلم أنى إذا حيت قذى وأننى بعد ميتى مدر
كم من رجال جسومهم عفر تبني بهم أو عليهم الجدر ٣٤٧/١

إذا الحى ألبس أكفانه فقد فنى اللبس واللابس
ويبلى الحيا فلا ضاحكٌ إذا سرَّ دهر ولا عابس
ويُحبس فى جدث ضيق وليس بمُطلَقٍ ————— الحابسُ
يجاور قومًا أجادوا العظاات وما فيهم أحدٌ نابس ٢١/٢

وقال فى الفصول والغايات :

ما صنع التراب بالجثث ؟ فعل بها فعل المجثث . (٦)

الجسد بعد فراق الروح، كما قُص من يدك وقصر من فودك . إذا ألقى فسيط فى النار
لم تباله ، وإذا غرق قليل فى اللج فكذلك . (١٨)

فارحنى رب إذا أدرجت ، ثم أخرجت من الوطن إلى أضيق عطن ، وخَفَّت
الآليل (أنين المريض) ، واستراح المعلل من التعليل . (٢٧)

كرهت البشرة ديب الحشرة، ولتصيرن كهشيم العشرة (شجرة ضعيفة الهشيم) (٢٠٧)
وربما أضجعتى الملحد على رمم ميت قبلى لو نطق لم يقل مرحباً — وتجيء جيل
(ضبع) بقدر الله فتكشف عنى التراب ، لتغذو بى جرواً حوشباً (عظيم البطن) ،

أذهب النوم ، وأطال الأرق ، وأفلّ رغبتى فى الشرف ، أنى لا أجد عن ذلك مذهباً .
جل البارئ ، هل تحمل هذه النكبة منكباً أضاح ؟ (٤٢٢)

والجسد كالعود القطيل (المقطوع) ، قد حمل على أسرة الهالكين ، فأودع الأرض
وكفت ، وقدم عليه العهد فرفت ، ونسيت فلا يمر اسمى بأفواه الذاكرين ، لا يبلغنى
مدح المادح ، ولا مقال الجدّاب . (٧٩)

ولا آمن أن يحفر قبرى محترق ، فيهجم على جدولى الرمام ، وقد امتزجت بالغفر ،
فيدخلها إلى الأريمة (موقد) ، فيصطنع منها مصطحاً (كوزاً) أو ما شاء . (٨٣)
ولا أكره أن يتخذ منها (من الرفات) إناء يتوضأ منه لذكر الله . (٣٨)

وعندى خبر خبرنيه المعقول . إن جلود القوم تمزقت ، واللحوم بليت وتهالكت ،
وصارت الأعظم رماماً . أضحك فلا ضحكت ، وأنا بالبكاء حقيق مما كان ويكون ! (٤٢٢)
يا جدث ، بعد موتى ، هل تسمع ندائى وصوتى ؟ يا أرض ، لا قرض عندك
ولا فرض ، أودعت المال فرددتَه سالماً ، والخليل فأكلته راغماً ، ليتك أكلتِ
المال ، ورددت الخليل . (٣١٥)

وننى نمر صديقه :

سمعت حديث أبى العلاء عن بلى الأجساد وانتهاك الرمم ، فاسمع حديثه عن
نسيان الموتى . ينساهم أهلهم وأحبابهم ، فلا صاحب ولا صديق ، وأى صديق للرمّة
البالية ، والجسد الفانى ، والراحل الذى لا يعود ؟ وفيما الذكرى ؟ هل يعود الميت
فيجزى الوافين الذاكرين ؟

كل ذكر من بعده نسيان وتغيب الآثار والأعيان لز ٣٩٣/٢
كأن المهيمن أوصى النفوس بعشق الحياة وإحبابها

إذا دَفَنْتُ في الثرى هالِكاً تناسْتُ عهوداً لأحبَّاءها ١٤٨/١

تَبْكِي على الميت الجديد لأنه حديث ، ويُنسى ميتك المتقادم ٢٦٠/٢

وسوف تُنسى فَنَمَسِي عند عارفنا وما لنا في أقاصي الوهم أشباح ٢٢٦/١

هل تحفظ الأرض موتاها وأهلهم لما بدا اليأس ، الغوهم فما حفظوا ؟ ٧٤/٢

وقال في الفصول والغايات :

فكأنني بالوقت وقد فني . . . ودفنت الأرض فنسيت ، وتمزق الذي كسيت . (٤٢٢)

. . . ثم أسلمت فألقيت في زوراء بعيدة المزار . . . وسكنى التربة أغرب الغربة .

انقضبت الآراب من أهل التراب ، وغدر بهم أهل الوفاء . (٢٧)

أين أكون بعد البيت المسكون ؟ أحل بالصعيد لا أشعر بمجمع ولا عيد ، وذلك

منزل المنفرد الغريب ، والله مؤنس المستوحشين . (١٦٢)

وُسِمَت الأرض ثم وليت ، على أجساد قد بليت ، علت في الحياة وعليت ،

وسُلت أرواحها فُسليت ، وقُلَّت الحاجة إليها فُقُلَّت . (٢٣٣)

أمر بأجداث الأقارب وكأنا أشرف على البعداء ، والحي لا يرعى للميت ذماماً (٢٤١)

يا معشر أهلنا الصالحين ، بئس القوم نحن ! لم نوفكم الواجب من الوفاء ، شربنا

بعدكم البارد ، ولبسنا ناعم اللباس ، وأظلتنا الجدر وأفنية الدور ، لو كنا أهل حفظ ،

عَفِنا بعدكم النطف العذاب . (٨٠)

وكذبت النادية ما للميت من صديق ، وأساءت الأيم أجابت الخطاب قبل أن

يقضى لفقيدها عام ! (١٢٩)

وصيح بالأرض اقبلي رهنك ، وبالنزِيل فاغدرِي ، وحيز المال ونسي العهد وانتوى

عن الإنسان أنيسه ذو الود القديم ! (٣٤٢)

أجل . تأكلنا الأرض وتنتهك رمنا ، وننسى فلا صديق . هذا هو المصير المحتوم ،
وذلك هو اليقين الرهيب ..

ولكن ماذا بعد فناء الأجساد ؟ أملتئمة هي بعد الفناء ؟ ثم ما مصير الأرواح ؟
أمبعوثة هي يوم الحشر لتعاقب أو تثاب ؟
أسئلة حيرت أبا العلاء واضطرب فيها .

— لقد سمع أبو العلاء ما قيل عما وراء الموت ، ووعى الأخبار التي تناقلها الناس
بشأن البعث والحشر ، وقد عرفنا في المقالة الأولى رأيه في الأخبار وسوء ظنه بها .
فليس غريبا أن نراه هنا يسيء الظن بما تحدث به الأخبار عما وراء الموت ، ولا يحس
نحوها شيئا من الاطمئنان ..

قد قيل إن الروح تأسف بعدما تنأى عن الجسد الذي غنيت به
إن كان يصحبها الحجا فلعلها تدرى وتأبه للزمان وعتبـه
أو ، لا ! فكم هذيان قوم غابر في الكتب ، ضاع مدادُه في كتبه ! لز ١٤٠/١

والروح شيء لطيف ليس يدركه عقل ويسكن من جسم الفتى حرجا
سبحان ربك هل يبقى الرشاد له وهل يحس بما يليق إذا خرجا ؟
قالت معاشر يبقى عند جثته وقال ناس : إذا لاقى الردى عرجا ٢١١/١

والروح أرضية في رأى طائفة وعند قوم ، ترقى في السماوات
تمضى على هيئة الشخص الذي سكنت فيه ، إلى دار نعى أو شقاوات ١٨٥/١

وقد زعموا هذى النفوس بواقيا وتشكل في أجسامها وتهذب
وتنقل منها ، فالسعيد مكرم بما هو لاق ، والشقي معذب ٨١/١

قد ادعيتكم فقلنا أين شاهدكم ؟ فجاء من بات عند اللب مجروحاً
إن صح تعذيبُ رمسٍ من يحل به فجنباني ملحوداً ومضروحاً
الوحش والطير أولى أن تنازعني فغادراني بظهر الأرض مطروحاً ٢٣١/١

توقف العقل عن إبراء الرأي فيما وراء بلى الأجساد :

أبو العلاء كما ترى غير مطمئن إلى أقوال الرواة . وقد فزع إلى عقله ، يقيس به هذه
الأقوال ويطلب لديه الرأي المقتنع ، ولكن عقله لم يسعفه بما يغنى ، أن كان لا يطمئن
إلى شيء مما يقال عما وراء بلى الأجساد ، ولا يلقي فيه رأياً ، لأن هذا مجال لم يقتحمه
العقل بعد ، ولم يستطع أن يمزق الأستار المسدلة بيننا وبين المصير المجهول .

قال في سقط الزند :

جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذى يراد بنا ، والعلم لله ذى المن
إذا غيبُ المرء استسر حديثه ولم تخبر الأفكار عنه بما يغنى
.....

طلبت يقينا من جهينة عنهم ولن تخبريني يا جهين سوى الظن
فإن تعهدينى لا أزال مسائلاً فإني لم أعط اليقين فأستغنى ! ١٩١/١

وقال في اللزوميات :

أرى هذيانا طال من كل أمة يضمه إيجازها وشروحها
وأوصال جسم للتراب مآلها ولم يدر دار أين تذهب روحها ٢٢٥/١
سنؤوب في عقبى الحياة مساكننا لا علم لى بالأمر بعد ما بها ١٤١/١
سأرحل عن وشك ولست بعالم على أى أمر ، لا أبالك ، أقدم ٢٥٦/٢

وكم ثوى لك جد، ما درى فطن — منكم، على أى أمر إذ مضى قدما ٢٨٥/٢
 بنون كآباء، وكم برح الردى بضب على علاته وبنون
 دفناهم فى الأرض دفن تيقن — ولا علم بالأرواح غير ظنون ٣٦٦/٢
 أما الجسوم فالتراب مآلها — وعيت بالأرواح أنى تسلك ١٤٩/٢
 لا نعلم الموتى تهم بكـرّة — لكن أحياء تروم لحاقا ١٣٣/٢
 إن تسأل العقل لا يوجدك من خبر — عن الأوائل إلا أنهم هلكوا ١٤٥/٢
 على أن أبا العلاء لم يطمئن إلى العقل، وراح يعرض الأمر على القدرة المعجزة
 فرأى البعث ممكنا غير ممتنع.

قال فى الزوميات :

وقدرة الله حق ليس يعجزها — حشرٌ خلق، ولا بعث لأموات ١٨٥/١
 بحكمة خالق طي ونشروى — وليس بمعجز الخلاق حشرى ٣٩١/١
 يكر موتانا إلى الحشر إن — قال لهم بارئهم: كـروا ٣٤٧/١
 يقوم الفتى من قبره إن دعوته — وما جر مخطوط له فى الرواجب ١٢١/١
 ومتى شـاء الذى صورنا — أشعر الميت نشورا فنشر
 فافعل الخير وأمل غـبه — فهو الذخر إذا الله حشر ٤٢٢/١
 وقال فى سقط الوند .

خلق الناس للبقاء فضلت — أمة يحسبونهم للنفساد
 إنما ينقلون من دار أعما — ل إلى دار شقوة أو رشاد ٢٠٨/١

١٢٥

وقال في الفصول والغايات :

الجسد بعد فراق الروح كما قُص من يدك ، وقصر من فودك . إذا أُلقي فسيط في النار لم تُباله ، وإذا غرق فليل في البح فكذاك ، هكذا يقول المعقول — والله نظر في العالم دقيق ، لا يمتنع أن يكون جسدُ الصالح إذا قُبِر في نعيم ، وجسد الكافر في عذاب أليم لا يعلم به الزائرون . (١٨)

من أولع النعامة بالتخويد ، وفرّق بين الأرى والهبيد، ليس الحشر عليه ببعيد . (٢٦٢)
يقدر الله على المستحيلات : رد الفائت ، وجمع الجسمين في مكان ، ومالا تحتمله الألباب ، إذ كان لا ينسب إلى عجز ولا انتقاص . (١٧٤)

والله على بعث الميت مقيت . (٣٧٥)
الطيور ناطقات بالسُبْح ، ورجال ما تقر بالبعث ، بلى ! جل القادر عن ارتياب (٣٨)
لا يعجزك (يا رب) ممتنع في العقول . متى أجتمع وسلفي الذاهبين ، فأخبرهم بما لقيت بعدهم ، ويخبروني بمثل ذاك ؟ لقد بعدوا بعد إلا كتاب . (٤٧)

الله الملتجأ ، يمهّل أمره ويفجأ ، وهو على إنشائك قدير ، وبجزاء الخير جدير .
والظالم أعرّ قدما من المظلوم وأنا أحد الظالمين . هل ينجيني منك أبدطال ، وجسد لحق بالرفات ، أو مال كثر أو عز مكان ؟ أدركت ما لم يكن فكيف ما كان ؟ (٣٥٣)

وكتب إلى داعي الدعاة :

« وفي الكتاب الأشرف : « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نقطة فإذا هو خصيم مبين — وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ — قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . وهذه حجة بالغة في أن خلقها مبتدعة ، أبعد من إنشائها مرتبعة . ثم قال سبحانه : « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون » فتبارك الله العظيم القادر ، على أن يحرق بورقة خضراء ، من

فوق الراكدة ، « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟
بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون — فسبحان
الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » . أشهد الله الذى بإذنه نشأت
السموات والأرض ، أنى مقر بالقدرة على الرجعة ، والخوف من الآخرة . أحافظ على
صلاتى وأصوم ، لعل معصوم » .

صيرة أبى العلاء

هذا الإيمان بقدرة الله ، قد أبى على الرجل أن يطمئن إلى توقف العقل . على أنه
لم يخلص من سلطان عقله ، بل ظل حائرًا

أما الحقيقة فهي أنى ذاهب والله يعلم بالذى أنا لاقى

وأظننى من بعد ، لست بذاكر ما كان من يسر ومن إملاق لز ١٣٩/٢

شاب علينا أمرنا شائبٌ وقد وددنا أنه لم يُشب ١٥٢/١

تقدم الناس فيا شوقنا إلى اتباع الأهل والأصدقاء

ما أطيب الموت لشرا به إن صح للأموات وشك التقاء ! ٦٨/١

وإن أعفَ بعد الموت مما يرينى فما حظى الأدنى ولا يدى الحسرى ٧٩/١

إن يصحب الروح عقلى بعد مضعها للموت عنى ، فأجدر أن ترى عجباً

وإن مضت في الهواء الرحب هالكة هلاك جسمى فى تربى ، فواشجبا ! ١٠٣/١

يا مرجباً بالموت من متنظر إن كان ثم تعارف وتلاقى ١٤٠/٢

إذا حرق الهندى بالنار نفسه فلم يبق نحض للتراب ولا عظم

فهل هو خاش من نكير ومنكر — وضغطة قبر لا يقوم لها نظم ؟ ٢٥٣/٢
مضى الأنام ، فلولا علم حاكمهم لقلت قول زهير : أية سلكوا ؟
في الملك ، لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا منه ، فكيف اعتقادى أنهم هلكوا ؟ ١٤٥/٢
وقال في الفصول والغايات :

أما اللحاق بالقوم فقريب ، ولست من لقائهم على يقين ، فالقلب لذلك آسف
حزين ، أقترانى أوجر على ذلك وأثاب ؟ (٤٧)
وخبر الميت غير جلي ، إلا أنه قد لقي ما حذر . (٣٥٨)

في هذا الموقف الحائر بين الشك والإيمان ترى أبا العلاء يقول :
قال المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجسام ، قلت إليكما
إن صح زعمكما ، فلست بخاسر أو صبح عزمي ، فالحسار عليكما لـ ٢٩٠/٢
إحدى اثنتين : إما أن يصح البعث فيكسب أبو العلاء ، وإما أن ينتهي الأمر
بالموت فلا ضير عليه ، ومن يحاسب الميت الفاني الذي انتهى بالموت ؟
ويؤذ كرنا هذا برهان بسكال ، حين تصدى لمحاورة من لا يؤمن بشيء بعد الموت .
قال بسكال ^(١) : ما دمت لا تعلم أى شيء عما وراء الموت ، فأنت لا تستطيع أن تحكم
بأنه حق أو باطل ، وليس من حقلك أن تلوم من يراهن على هذا أو ذاك .
قال صاحبه : لست أقول لمن يختار إنه أخطأ أو أصاب ، ولكنى أقول له : لقد أخطأت
إذ اخترت ، أخطأت إذ قبلت الرهان وأنت غير واثق .
فقال بسكال : ما دمت حياً ، فحياتك ترغمك على الاختيار ، بل إن توقفتك عن
الرهان ، معناه اختيار ، فكأنك تقول : لا معروف بعد الموت .
ثم مضى يحاور صاحبه :

«فلننظر ماذا يكون من أمر هذا الرهان . إن قلت نعم وربحت فقد كسبت . وإن خسرت فلن تضيع شيئاً» قال صاحبه : «بل أكون قد خسرت هذه الحياة التي أحيّاها ، أخسر متاعها لأن إيماني بما وراء الموت ، يكلفني الخضوع لأحكام خاصة ، والتنازل عن كثير مما أشتهى» . فمضى بسكال على طريقته الحسابية يهيئ صاحبه لقبول التضحية ويقول : «ربما كان ما تقوله حقاً ، ولكن . . . لو أنك موعود بحياتين ، ألا تضحي بواحدة لأجل اثنتين ؛ ولو أنك موعود بثلاث ، ألا تضحي بواحدة لأجل ثلاث ؟ ومع هذا ، فإنك لست موعوداً بواحدة ولا باثنتين ولا بثلاث ، وإنما بحياة سعيدة خالدة . وحياتك هذه ، فانية ولا بد أن تنتهي ، رضيت أو كرهت ، اليوم أو غداً . وهذا يجعلك لا تتردد في الاختيار . إذ خلود النعيم ينفي كل تردد . وقد تقول : كيف أضحي بخير محدود مؤكد ، لخير غير محدود ولا مؤكد ؟ فأقول : لا أحد يلوم من يجرب حظه في رهان بمبلغ قليل ، ليربح ثروة طائلة» . فسأله صاحبه ، وهو يكاد يسلم : «ولكن الأدليل لكي أراهن مخلصاً معتبطاً غير حزين ؟» فأجابه بسكال : «هناك كتب السماء لو أردت» . قال صاحبه : «ولكن طبيعتي ليست مهيأة للإيمان ، حتى ولو آمن عقلي .» فأجابه : «هذا حق ، ولكن على الأقل تواضع ، وقل إنك عاجز عن العلم ، واجتهد في أن تروض عواطفك لتؤمن بما يعجز العقل عن نفيه أو إثباته .»

هذا ملخص لرهان بسكال . وهو يشبه قول أبي العلاء في جملته ، لولا أن بينهما فرقين واضحين .

أولهما ، يظهر في طريقة عرض الرهان ، فأبو العلاء يلقى قوله على طريقته ، خطرة شعرية موجزة تثب بك إلى ما يريد ، من غير أن تعرف مراحل الطريق . وأما بسكال فيعرض رهانه مفصلاً على طريقته الرياضية ، ويحاور صاحبه بالأرقام .

الفرق الثاني يتصل بروح المراهن ، فأبو العلاء لا يلجأ إلى هذا إلا حين يغلبه الشك ويعوزه اليقين . ورهانه عملي لا نظري فهو يقول : إن لم يصح زعمي لم أخسر ،

وإن صح ، خسرتما أتما ، فكأنه يقول بالأحوط . وهو يسمى قوله بالحشر زعماً ، وهذا دليل على شكه وحيرته . أما بسكال فهو مؤمن مقتنع بأن الموت ليس نهاية كل شيء ، وكان هذا الإيمان عدته في المناظرة . وعليه اتكأ في طول الحوار والتشبت بإقناع صاحبه .

وقف أبو العلاء حائراً لا يدري ما ذا وراء الموت ، فتراه يغبط الجماد والحيوان الأعجم ، أن كانا لا يتوقعان شيئاً بعد الموت . قال في الفصول والغايات .

ليتني كنت حجراً ، لا أمسى حذراً ، ولا أصبح وجراً . (٤٠)

طوبى لأكدر ، من بنات أخدر ، لا يتوقع كائنة بعد الموت . (٤٦)

عنه مبرهنة الخبير اليقين :

في هذا الموقف الحائر المتعب ، الذي لم يستطع أبو العلاء فيه أن يطمئن إلى شيء ، ود الرجل لو أن مخبراً صادقاً ينقذه من حيرته ، ويعلمه بما يكون بعد الموت ، ولهذا الخبير أن يختار نفائس ما يقدر عليه أبو العلاء .

« كيف لي بمخبر ، يعتام نفائس ما أقدر عليه ، يعلمني بعد الموت ، كيف أكون » ، (الفصول ٢٧٨)

ولكن من يكون هذا الخبير الصادق ؟

ليس هو العقل ، فقد عرفت شعور أبي العلاء بقصور العقل ، وجزعه من توقفه . وليس هو من هؤلاء الأحياء الذين لم يجتازوا مرحلة الموت ولا علم لهم بمعالمها .

ومبرهنة هنا ، هو الميت :

هو الخبير الصادق الذي شاهد وعانى وجرب . هو الذي سار في الطريق وعرف مراحل ، وبلى الموت وشرب من كأسه .

هو الذي نودى إلى العالم الثاني ، وكشفت له الحجب ، وأزيمت أمامه الأستار .

آه لو عاد أحد هؤلاء الموتى إلى الحياة ، فقص على أبي العلاء أمر تلك الرحلة
المجهولة ؟

لو جاء من أهل البلى نخبر سألته عن قوم وأرخت
هل فاز بالحنة عمالها ؟ وهل ثوى في النار نوبخت ؟ لز ١٧٤/١

فهل قام من جدث ميت فيخبر عن مسمع أو مرا ؟ لز ١٧٥/١

ولكن الموتى لا يعودون ، ولا يجيبون سؤالا :

أما الصحاب فقد مروا وما عادوا وبيننا بقاء الموت ميعاد ٢٥٦/١
أولى القوم وأنقوا ، وثقلت الحقائق فألقوا ، من أين سقوا أو استنقوا ؟ لاحت لهم
النار بقو ، فلم يعرجوا بالرضمات !
فصول ١٢٧

ودّ أبو العلاء لو أن الموتى — وقد استحالت عليهم العودة — يبعثون برسالة إلى
الأحياء ، ليحدثوهم عما ينتظرهم في الغد المجهول ، ولكن الموتى لا يبعثون برسالة
ولا رسول .

وكم حل فيها معشر بعد معشر من الناس ، عاشوا سوقة وملوكا
فما بلغتهم منك بعد رحيلهم ألوك ، ولا أهدوا إليك ألو كا لز ١٥١/٢
لو غبرت ألف حقبة ، ما ورد علي منهم كتاب ولا رسول .
فصول ٤٤١

فزع أبو العلاء إلى الموتى يسألهم ويلح في السؤال : ماذا لقوا وواجهوا ؟ أين ساروا
وإلى أين انتهوا ؟ كيف هم وأين هم ؟
لو كان ينطق ميت لسألته ماذا أحس وما رأى لما قدم ؟ لز ٣٢٢/٢
ولكن الموتى لا يتكلمون ، يهتف بهم الصائح فلا يجاب ، كأن بهم صمما فلا
يسمعون نداء !

قال في اللزوميات :

يا ساكنى الأرض كم ركب سألتهم عما فعلتم ، فلم أعرف لكم خبراً ٣٥٩/١

وقفت على أجدائهم وسألتهم فما رجعوا قولاً ولا ، سألوكم ١٥١/٢

مضى الناس إلا أننا فى صباية كآخر ما تبقى الحياض أو الخرس

ولم يسمعوا قولاً ، أمن صمم بهم ؟ ولم يفهموا رجعاً كأنهم خرس ! ٤/٢

وفى الفصول والغايات :

سلم الله عليكم أهل ديار ، لا يشعرون بتبلج الصبح ولا ترحل النهار .
أشتاق إليكم وإلى من أشتاق ؟ لا الأرواح متكلمة ، ولا الأجساد ملتئمة ،
ولا المنازل برحاب ! (٥٢)

كيف أصبحتم أهل المنازل الدارسة ؟ إن ما أصابكم للخطب الجليل
يهدف بكم الصائح فلا يجاب ! (٤٧)

لم يكن أبو العلاء أول من وقف هكذا على أحداث الموتى ، يسأل فلا يجاب . ما أشبه
موقفه هذا بموقف قس بن ساعدة ، حين وقف أمام موكب الحياة ، ورأى الراحلين
ينطلقون إلى الوادى الجهول فوجاً بعد فوج ، ثم لا يثوب منهم راحل ، ليحدث عما
رأى وسمع ؛ ! روى أنه وقف بين الناس فى سوق عكاظ يلقى إليهم الموعظة ويهتف
بهم قائلاً :

« أيها ^(١) الناس ، اسمعوا وعوا . من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو
آت آت . . . إن فى السماء لخبراً ، وإن فى الأرض لعبراً ؛ ما لى أرى الناس يذهبون
ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟

(١) البيان والتبيين (طبعة مصر سنة ١٣٣٢) ج ١ ص ١٦٨ .
صبح الأعشى (طبعة دار الكتب المصرية) سنة ١٩٢٢ (٢١٢/١)

« يا معشر إباد ؟ أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ؟
 في الزاهبين الأولين — من القرون لنا بصائر
 لم رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادر
 ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر
 لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقيين غابر
 أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر »

فزع أبو العلاء إلى الموتى يسألهم ولكنهم صمتوا فلم يجيبوا له سؤالاً ، ولم يلقوا إليه
 خبراً ، ولم يبعثوا إليه رسالة ولا رسولاً .

لم يبق منهم إلا طيف ، يلم بنا في رؤى المنام ، ولو صدقت الأحلام لاطمأن
 أبو العلاء إلى ما يخبر عن سكان القبور ، ولكن الأحلام تكذب .

قال في سقط الزند :

وبين الردى والنوم قربى ونسبة وشتان برء للنفوس وإعلال
 إذا نمت لاقيت الأعبة بعد ما طوتهم شهور في التراب وأحوال

وقال في اللزوميات :

غُيِّب ميت فما رآته عين ، سوى رؤية المنام ٣٠٨/٢

وقال في الفصول والغايات :

أسعد الله الأرواح ، فلا أعرف فائدة للدفين في قول القائل : أيها القبر سقيت غماماً .
 إن الحى والميت لا يتزاوران ، فرضى الله عن قوم نراهم في الرقدة لمأماً . (٤٤٢)
 سبحانه مؤبد الأباد ، ... هل للمنية نسب إلى الرقاد ؟ لا أتخيل إذا انتهت
 أحداً من الأموات ، وإذا هجعت لقيني قريب عهد بالمنية ، ومن قد فقد منذ أزمان

أسألم فيجيون ، وأحاورهم فيتكلمون ، كأنهم يحمل الحياة متعلقون لو صدق
الرقاد لسكنتُ إلى ما يخبر عن سكان القبور ، ولكن الهجعة كثيرة الكذاب ! (٨٠)

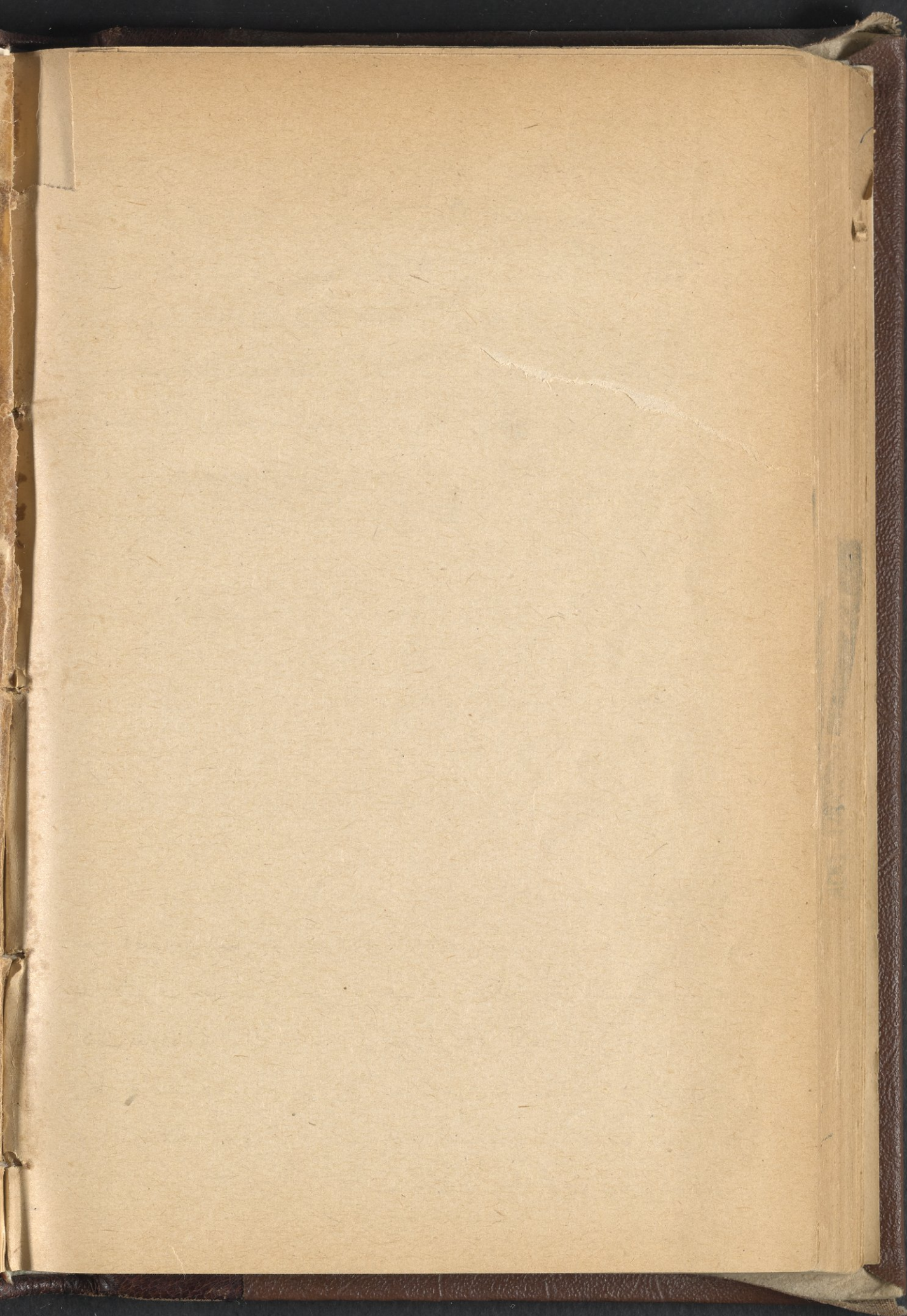
هذه هي المرحلة الأخيرة للإنسان كما صورها أبو العلاء .

رحلة مبهمة ، في تيه الظلمات

معالمها تائهة ، ومراحلها غامضة ، ومناراتها خافية الأضواء

والسراة فيها خليط منوع غريب ..

وكل سار فيها لا يعود



الخاتمة

وبعد فهذه دراسة لجانب واحد من فن أبي العلاء ، أخذنا فيها بالمنهج الحق الذي يقضى بالتخصص ، ويفرغ للمسألة الواحدة فيعكف عليها السنين الطوال .
لقد جمعنا تأملات أبي العلاء في الحياة الإنسانية ، فصحبناه وهو يتبع مراحلها ، ويرصد متاعبها ويواجه مشكلاتها .

لم يكن حديث أبي العلاء في هذه المسائل الإنسانية حديث فيلسوف يرقب تجربته ، أو ينظر بعقله ، ويتحدث بمنطقه ، ولم يكن حديث شاعر يهيم في كل واد ويقول ما لا يفعل ، وإنما كان حديث إنسان متأمل ممتاز ، يعالج هذه المسائل بكل قوى إنسانيته ، ويفكر فيها بعقله وقلبه ونفسه جميعاً .

ولسنا نقول إننا انتهينا إلى كشف جديد هام ، أو أننا بما لم يأت به الأوائل ، ولكننا نقول إننا انتهينا إلى بعض نتائج ، نرجو أن تكون ذات أثر في توجيه الدراسات المفصلة التي ننتظر أن ينهض بها أصدقاء أبي العلاء وتلاميذه .
من هذه النتائج :

- ١ — تحقيق الشخصية الفكرية ، لأبي العلاء ، ومحاولة فهم تعليل تردده في مسألة المعرفة ؛ فقد آمن بالعقل حيناً وأسرف في الثقة به حتى جعله إماماً ونصيراً ونبيّاً ، ولكن هذا الإسراف جعله يضيق بقصوره عن فهم أسرار الكون والغاز الغيبيات ، ومن ثم كانت تعاوده لوثة الشك من حين إلى حين فيرتد عن الإيمان بالعقل ويتهمه بالعجز ويظن به الصداً ، ويسوى بينه وبين الجهل ، وهو في هذا يحيل — كأهل الأديان — على القدرة الإلهية ، ويعترف لها بالقدرة على « المستحيلات ، وما يمتنع في العقول » .
- ٢ — إقرار مكان أبي العلاء بين الشعر والفلسفة . وقد أوردنا أقوال من ينكرون

فلسفته . واعترفنا بأنه لم ينهج منهج الفلاسفة في عرض تأملاته ، ولم يثبت على رأى بعينه في المسألة الواحدة ، ولم يخضع في فهمه للكون ، لأصل ثابت من أصول المعرفة . ثم واجهنا من يجحدون شاعرية أبي العلاء ويرون أن نظمه « ليس من الشعر في شيء » ، محتجين بأنه خرج عن المألوف ، وتصدى بالشعر لمعالجة المسائل العقلية والأمور الجدية . وقلنا إن هذه الضوابط لا تلزمنا لأن تقيدنا بها وقوف بالشعر حيث تركه الأقدمون ، وتجاهل لذوقنا وإنكار لتسامي الفن . ثم لاحظنا أن الإنسانية قد عرفت هذا النوع من الشعر الذي يزدحم بالمعاني ويتصدى لمعالجة المسائل العليا ، وكان هذا النوع من الشعر نخر الرومان في شعر لوكريس ، والفرنسية في ألفريد دي فيني ، والفارسية في الخيام ، والهندية في طاغور وإقبال . كما عرفت العربية في شعر المتصوفة . لاحظنا كذلك أن العرب في تحديد الشعر ، أهدروا معنى الشعور ، وهو أجدر المعاني بالاعتبار لأنه الأصيل في المادة — نلاحظه في دورانها وتطورها — وأبو العلاء يجد فيعبر ، وشعره يترجم عن شعور نقي صاف قوى ، فهو بهذا جدير بأن يكون شاعراً لا تنهم شاعريته .

ولم ننكر أن في شعره طائفة أفسدها التكلف والإكثار من المعاني والآراء إكثاراً يشبه أن يكون مجرد نظم لها ، ولكننا استبعدنا شرط ثبات المستوى ، في فهم الشاعرية . ولم ننكر أيضاً أن أبا العلاء يختلف عن الشعراء ، ولكن هذا الاختلاف يأتي من كونه يجد في قوله ، ويعنى ما يقول ، ويعبر عما يجد ، صريحاً جريئاً غير متملق شعور العامة ولا مصالح الخاصة ، ومن ثم طلبنا لأبي العلاء مكانه بين الشعراء المتأملين الممتازين .

٣ — وعرضنا تأملات أبي العلاء في العلة الغائية — وهي المرحلة الأولى من مراحل الحياة الإنسانية — فرأيناه يرفض رد الخلق إلى علة نعرفها ، ويأبى الاعتراف بأن الكون مخلوق لنا مسخر لأجلنا ، منتهياً إلى أن الله قد خلقنا لحكمة يعلمها هو ، وأن لكل كائن حي ، حقه الذاتي في الحياة .

٤ — وفي مرحلة الحياة رأيناه يواجه مشكلتين : الخير والشر ، والجبر والاختيار .

في الأولى — آمن بأن الله خلق الخير والشر جميعاً ، لكننا لا نعلم حكمة خلقه للشر ، إلا أنه تعالى يفعل ما يشاء ، سبحانه لا يُسأل عما يفعل .

وفي الجبر والاختيار : ناقشنا قول من قالوا إنه جبري ، ورفضنا أن نقول إن الرجل كلن يلتزم رأياً بعينه ، فليس مجبراً ، وليس مخيراً ، وليس متوسطاً ، وإنما يبعد في الجبر حيناً ، ويمعن في الاختيار حيناً ، ويتوسط بين بين ، حيناً ثالثاً من غير أن يثبت عند رأى بعينه .

٥ — ثم صحبناه وهو يواجه مأساة الموت فرأيناه مرة يرحب بالموت ، وأخرى يفزع منه فزعا رهيباً غريباً ، وقد فسرنا ذلك : فهو يرحب بالموت لأنه يأس متعب متشائم . وهو يفزع من الموت لأسباب ثلاثة :

١ — حبه للدنيا — وقد حققنا هنا مسألة زهده ، وصححنا ما شاع على الألسن عن انتصاره على الدنيا وبغضه لها ، مؤكدين أن هذا وهم مكذوب . فالرجل لم يبرأ قط من حب الدنيا ، ولم يسلم عنها أبداً . وإنما زهد في ملذاتها التافهة ، حين عجز عن الظفر بكل ما انتهى من مجدها ونعيمها .

والسبب الثاني خوفه وجهله بما وراء الموت .

٢ — والسبب الثالث أن الموت هو مأساة الإنسانية الكبرى : كل نار تخبو ، وكل عامر يخرب ، وكل بناء يتقوض ، وكل حي إلى ممات .

٣ — هنا أصغينا إلية وهو يقف حائراً أمام المرحلة الأخيرة — بعد الموت — هو يؤمن بأن أجسادنا تبلى ، ورممنا تنتهك ، ثم ننسى . ولكنه يجهل ما وراء ذلك . فزاع إلى العقل فلم يسعفه العقل ، لأنه لم يطرق بعد مجال الغيبات .

وسمع الأقوال عما وراء الموت ، فأنكرها وأبأها ، لأنه لا يطمئن إلى الخبر وإن تواتر . وعرض الأمر على القدرة الإلهية فرأى البعث ممكناً ، ولكنه لم يطمئن إلى رفض أو

يقين، فودّ لو عاد ميت فقص عليه ما رأى وعانى وجرب، ولكن الموتى لا يعودون. وهم كذلك لا يسمعون قولاً ولا يجيبون سائلاً.

هذه هي خطوات البحث، وتلك هي النتائج التي انتهينا إليها، وتري أننا في بعضها رفضنا أن نعترف لأبي العلاء برأى بعينه، كمسألة المعرفة، والجبر والاختيار، وما وراء الموت. ولسنا لهذا كارهين، فما من مهمتنا أن نتكلف رأياً نضيفه إلى الرجل حين نراه مضطرباً لا يثبت عند رأى. وليس معنى هذا أننا أتعبنا أنفسنا دون جدوى، ودرسنا فلم ننته إلى شيء، بل نكون قد انتهينا إلى أن أبا العلاء لم يثبت عند رأى بعينه. ولقد كنا في حاجة إلى أن تؤرخ تأملات أبي العلاء، لكي نعرف كيف تكونت آراؤه، وكيف عاشت في نفسه. ونربط بينها وبين الحوادث التي وقعت له، والمؤثرات التي تعرض لها. لكن هذا التأريخ — على ما يعترضه من حوائل مادية ليس من السهل تذليلها — يحتاج إلى خدمة هائلة، يقوم بها من يتوفرون على البحث والدراسة والاستقراء، حتى يردوا أقوال أبي العلاء إلى تاريخ منضبط أو مقارب. فلم نرم من الأمانة العلمية أن نتناول هذا التأريخ، عرضاً وتبعاً.

ولم يكن سهلاً علينا أن نتتبع أقوال أبي العلاء في المسألة الواحدة، فقد بثها متناثرة مشتتة في ثنايا قصائده وفصوله، لا تنفرد القصيدة الواحدة أو الفصل الواحد، برأى بعينه، وإنما ينتقل مسرعاً في عوالم متباينة، غير حريص على رعاية الانتقال أو وحدة السياق. ولسنا نقول إننا بلغنا في بحثنا هذا ما نطمع له من كمال، ولكننا نؤكد أننا حرصنا أشد الحرص على بلوغ هذه الغاية، وبذلنا لها الجهد المستطاع، وتكلفنا في سبيلها ما هي جديرة به من تعب وعناء، غير ضجرين ولا متبرمين ما

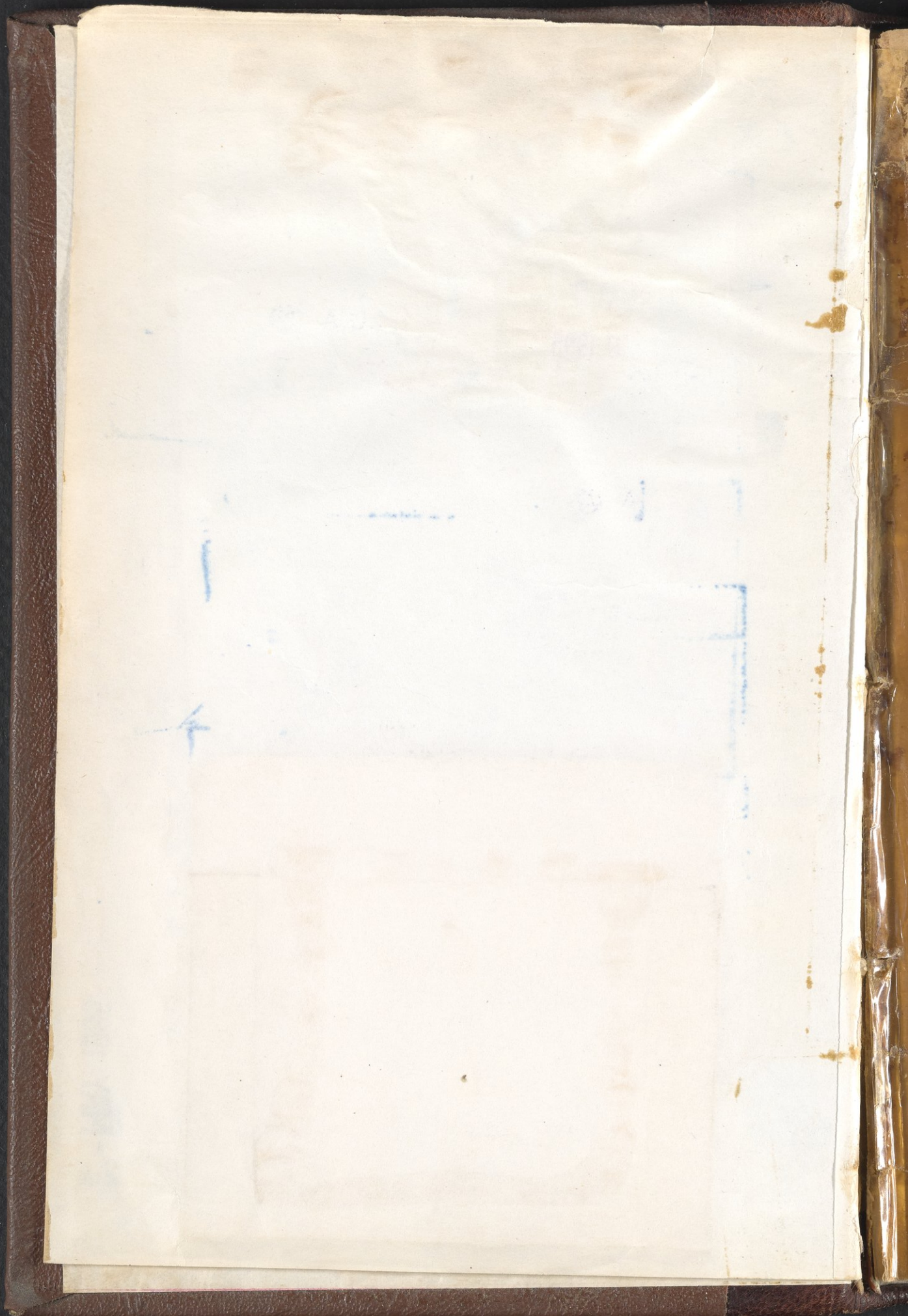
الأورمان

أول مايو ١٩٤١

١٩٤٤/٨/١/١٢٥٥

(بنت الشاطئ)

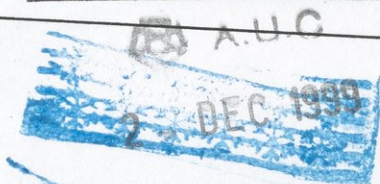
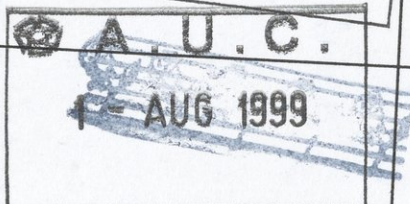
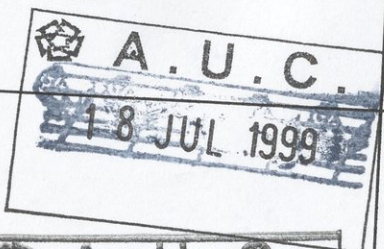
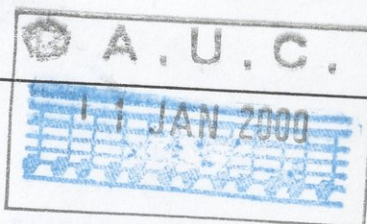
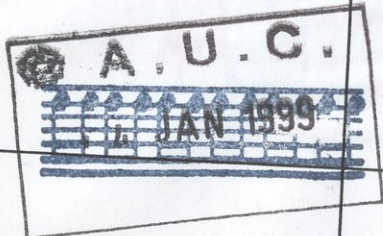
أبو العلاء
أبو العلاء
أبو العلاء
أبو العلاء



AUC - LIBRARY



DATE DUE



- MAY 1985

6. 12434952

3-13336903

main



00000021942

PJ 7750 A25 Z59 1944/c.1

28 NOV 1990

